معالم أصول الدين

(دروس في العقيدة للناشئة والشباب)

الطبعة الثانية

١٤٣٥هـ/ ٢٠١٤م

الصف	عبد الواحد عبد الله اللاحجي
تنسيق وإخراج:	حفظ الله أحمد أحمد عقيل

رقم الإيداع بدار الكتب صنعاء

(   )

التنفيذ الطباعي

دار الإمام زيد بن علي للطباعة والنشر

تلفون (٧٧١٢٢٣٥٧٨)

معالم أصول الدين

(دروس في العقيدة للناشئة والشباب)

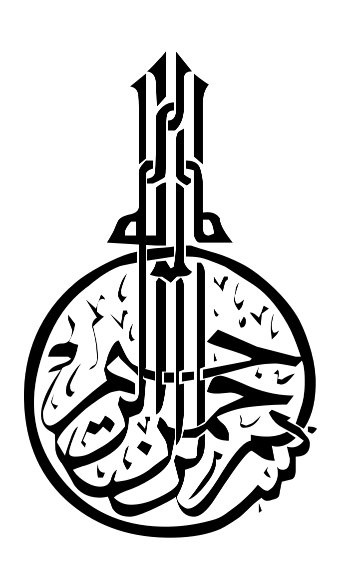
الكتاب الثاني

ويشتمل على:

(القضاء والقدر -الوعدوالوعيد-النبوات)

تأليف

عبد الرحمن محمد عبد الملك المروني


بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية

بعد أن تكلّمنا في الكتاب الأول عن التوحيد والعدل ننتقل بعد ذلك إلى جملة من الموضوعات والقضايا الهامّة التي لا غنى للمسلم عن معرفتها والإيمان بها، وذلك لأن معرفتها والإيمان بها من تمام الإيمان وكماله، لما لها من أثر في سلوك الإنسان وتوجيه حركته في الحياة نحو العمل والإبداع، كما أن دراستنا لهذه الموضوعات يصحّح الكثير من المفاهيم الخاطئة التي علقت في أذهان الناس، إما نتيجة جهلهم لمقاصد الشرع وأحكامه، أو نتيجة فهمهم الخاطئ لنصوص القرآن والسنّة .

وتجدر الإشارة هنا إلى أنني قد حرصت على الاستدلال في المسائل التي عرضتها في هذا الكتاب بما ورد في كتاب الله تعالى وبالصحيح من سنّة النبي ﷺ، واقتصرت في تخريج الأحاديث النبويّة على كتب السنّة المشهورة، لما أعتقده من أنّ أصحاب الأسانيد والسنن ليسوا سوى ناقلين للحديث، وللباحث نظره فيما سطّروه في كتبهم نقلاً عمّن سمعوا منهم من الرواة والمحدّثين، وبالتالي فلا يعني ذلك تقديس أصحاب الأسانيد والسنن، بقدر ما يعني تقديسنا للسنّة النبويّة التي هي ولا شك في المرتبة الثانية بعد القرآن في قداستها وحجّيتها مصداقاً لقول تعالى: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ**﴾[الحشر:٧]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى**﴾[النجم:٣-٤] .

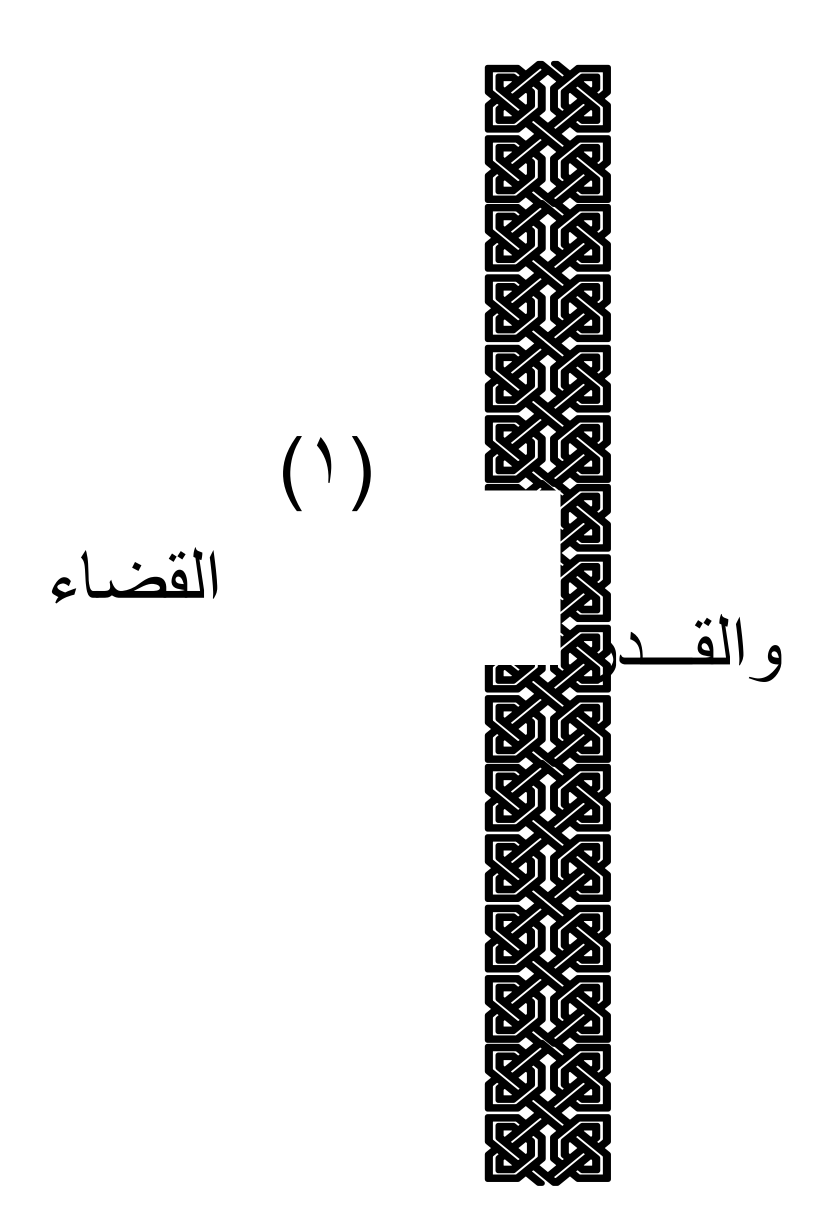
هذا وقد بذلت جهدي في تنقيح موضوعات الكتاب واختصارها، وعرضها بشكل سهل وميسّر قدر المستطاع، وأرجو ممن يعثر على خطأ أو زلة إصلاحها، فهذا العمل في الأول والأخير إنما هو جهد بشري ليس يتعدى العيب، ولا يخلو من النقص، والكمال لله وحده:

وإن تجد عيباً فسد الخللا .... فجل من لا عيب فيه وعلا

والله أسأل أن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين..

المؤلّف

صنعاء - محرم١٤٣٥هـ


(١)
القضاء والقـــدر

القضاء والقدر

الإيمان بالقضاء والقدر

لاشك أنّ الإيمان بالقضاء والقدر واجب، وأنه ركن من أركان الإيمان لا يتم إيمان المؤمن إلّا به، وقد ورد ذكر القضاء والقدر في حديث جبريل عليه السلام المشهور، وفيه: قال –أي جبريل: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: «**أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِر، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ**»[1].

والإيمان بالقضاء والقدر يقتضي الانقياد لإرادة الله تعالى ومشيئته، والاعتقاد بأن أمر الله سبحانه وتعالى نافذ، وأن حكمه ماضٍ، وأنه لا رادَّ لقضائه، ولا ناقضَ لحكمه، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾[يس:٨٢].

وقد اقتضت مشيئة الله وإرادته أن يخلق الكون على أحسن تنظيم وأبدع تقدير، وأن يكون هذا الكون قائم على نظام محكم لا مجال فيه للعبث، وأن يقوم هذا الوجود على سنن ونواميس ومقادير منتظمة، تترتب فيه المسبَّبات بأسبابها والمعلولات بعللها، قال تعالى: ﴿**إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ**﴾[القمر:٤٩]، وقال تعالى: ﴿**وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ**﴾[الرعد:٨]، وقال: ﴿**وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا**﴾ [الفرقان:٢].

---

(١) رواه مسلم والترمذي عن عمر.

ومن حكمة الله سبحانه وتعالى وتقديره أنه سبحانه وتعالى خلق الإنسان، ووهبه الحريّة والاختيار، ومنحه من قدرة الحركة، وقوّة التفكير، وحسن التدبير، ما يُمكّنه من الاستفادة من نواميس الكون وقوانينه لمصلحته ومنفعته، غير أنه سبحانه وتعالى جعل قدرة الإنسان محدودة، وبنيته ضعيفة، وجعل سبحانه وتعالى الحياة الدنيا دار ابتلاء واختبار، وطبع الله هذه الحياة على الشهوات والملذّات، وعلى الأكدار والمنغّصات، ففيها ما يسرّ وما يضرّ، وفيها ما يُفرح وما يُحزن، وكثير هي أمور الحياة التي تحدث حسب مشيئة الله تعالى وقدرته، وهي تنفُذ في الناس طوعاً أو كرهاً، ولا دخل فيها للإنسان ولا يد له فيها، بل هي من فعل الله ووفق مشيئته وحكمته.

فالزلازل، والأعاصير، والفيضانات، والأوبئة، وغيرها من الظواهر الطبيعية المختلفة، وما يصيب الإنسان في نفسه أو ماله أو ولده، من الآفات، والأمراض، والضعف، والوهن، والموت، ونحو ذلك من المكروهات الناتجة عنها، وكذا سائر ما يحدث للإنسان من مصائب وما يقع عليه من نوازل لا سبيل له إلى دفعها والاحتراز منها، أو التي تحدث للإنسان بعد أن يكون قد اتّخذ نحوها ما هو في استطاعته من حيطة وما يمكنه من حذر، فكل تلك المصائب والنوازل ونحو ذلك من المكاره وصنوف الشر، أو من النعم وصنوف الخير، جميعها من خلق الله وتقديره، فإذا ما وقع على الإنسان شيء من ذلك فليعلم أنه قضاء من الله وقدر لا مفرّ منه، وليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه.

"ومن الواجب على المكلّف أن يؤمن بأن ما قضاه الله وقدّره على خلقه مما يحبّه الإنسان من خير، أو يكرهه من الشر، هو مطابق للحكمة والعدل، وأنه لا ظلم فيه ولا قهر، وأنه أحكم مما يلائم هواه ويتمنّى وقوعه أو عدم وقوعه.

فإذا ما حدث للمكلّف ضرّاء من فعل الله كصاعقة، أو طوفان، أو زلزال أحزنه على مال، أو ولد، أو صديق، أو حبيب، أو أصيب بفعل مخلوق كأن يقهره ظالم، أو ينتصر عليه معتد أثيم، فليعلم حينئذ أن وقوع ما هو من فعل الله مطابق للحكمة، والراجح، والصواب، والعدل، والرحمة، وأن وقوع ما هو من فعل المخلوقين أثر من آثار قضاء الله سبحانه بالتمكين لعباده من الخير والشر، وأن التمكين حكمة، وعدل، وصواب"[1].

مفاهيم خاطئة

ما من شك أنّ جهل الكثير من المسلمين عبر الأجيال المتعاقبة بحقيقة القضاء والقدر قد أوقعهم في كثير من الأخطاء في الاعتقاد والسلوك، وجعلوا من القضاء والقدر شمَّاعة يعلقون عليها الأخطاء والسلبيات، بل وحتى الجرائم والمنكرات !! حيث اعتقدوا أن كل ما يقع على الإنسان من خير أو شر، وهدى أو ضلال، قضاء وقدر من فعل الله وتقديره، وأنه لا إرادة للإنسان ولا مشيئة البتّة، فظنوا بذلك أن الكافر كفر بقضاء الله وقدره، وأن المؤمن آمن بقضاء الله

---

(١) نقلاً عن كتاب (القضاء والقدر) لمولانا العلامة الحجة/ محمد بن محمد بن إسماعيل المنصور، حفظه الله. "بتصرّف".

وقدره، فاستوى عندهم المحسن والمسيء، والصالح والطالح، والمؤمن والكافر، حتى قال قائلهم:

أصبحتُ مُنفعلاً لما يختارُهُ مني ففعلي كلُّه طاعاتُ

يريد بذلك أن الله هو الذي قدَّر عليه أفعاله كلها وأرادها منه، فهو في كل الحالات طائع لله مستسلم لحكمه!!.

يروى أن أحدهم سمع رجلاً يقول: لعن الله القَوَّاد يجمع بين الزاني والزانية. فقال له: إنك تلعن ربك فإنه هو الذي جمع بينهما.

وروي أن رجلاً سرق شيئاً يسيراً، فضُرب بالسياط، فقال: مرحباً بقضاء الله وقدره[1]، يعني في سرقته وضربه بالسياط!!.

هذا ما تصوّره القدريّة والمجبرة عن مفهوم القضاء والقدر فيما يتعلّق بأعمال الإنسان وتصرّفاته.

أما فيما يتعلّق بالأرزاق، والآجال، والآلام، ونحو ذلك، فقد سيطرت عقيدة الجبر على عقول كثير من المسلمين، وسرت في نفوسهم سريان النار في الهشيم جيلاً بعد جيل، حتى أصبحت هذه العقيدة هي السائدة، وصارت قضيّة مُسلَّمة لا تقبل النقاش.

فصحّة الإنسان ومرضه، وفقر الإنسان وغناه، وزواج فلان من فلانة، ووفاة فلان من الناس بانتحار أو حادث أحدثه سائق متهوّر، أو طلقة ناريّة من معتدٍ

---

(١) **المصدر**: رسالة إبليس إلى أخوانه المناحيس، الحاكم الجشمي.

آثم؛ كل ذلك وغيره هي عند الناس قضاء وقدر، وحصول إنسان على مال أو وظيفة أو منصب، أو نحو ذلك؛ هو عندهم قضاء وقدر، ونجاح فلان في دراسته، أو تجارته، أوحياته العملية؛ قضاء وقدر.. وهكذا.

وبالمقابل فإن نجاة شخص أو إصابته، أو وفاته من حادث مّا هي عند الناس قضاء وقدر، وتعثّر حظّه في الحصول على أمر مّا قضاء وقدر، وفشله في دراسته أو في حياته العمليّة قضاء وقدر. . وهكذا.

وإذا ما وقع شئ من ذلك فإننا نسمع الناس يشكون القضاء والقدر، فهذا يقول: قدّر الله عليَّ بأن قُطعت يدي، وآخر يقول: قدّر الله علي بأن بُترت ساقي، وثالث يقول: قدّر الله عليَّ بأن قُتل أبي، أو ماتت أمّي، أو زوجتي، أو فقدتُ ولدي، أو تهدّم منزلي، أواحترق متجري، أو تحطّمت سيارتي..الخ.

وهكذا نجد عامّة الناس لا يكفّون عن الشكوى من القضاء والقدر، ولا يتورّعون عن اتهام القضاء والقدر أنه سبب مصائبهم وآلامهم، وأنه السر في سعادتهم أو شقائهم، ونجاحهم أو فشلهم، ذلك لأن الإنسان يميل بطبعه إلى اختلاق المعاذير، واختراع التبريرات التي تعفيه من المسئوليّة، ويلقي باللائمة على غيره، وهو ما يفسّر ظاهرة نسبة الحوادث والوقائع إلى ظواهر غيبيّة كالحظّ والقدر، وحسن الطالع، ونحو ذلك، وهذه الظاهرة يشترك فيها سائر الناس على اختلاف أديانهم ومعتقداتهم، يقول ابن الرومي:

إنَّ لِلحَظِّ كِيْمِيَاءٌ إذا مَا ... مَسَّ كَلْباً أَحَالَهُ إِنْسَانا

ويقول آخر:

إِذَا كَانَ سَعْدُ المَرْءِ فِي الدَّهْرِ مُقْبِلاً   تَدَانَتْ لَهُ الأَشْيَاءُ مِنْ كُلِّ جَانِبِ

كما أنهم يفسّرون الفشل في الحياة، والإخفاق في تحقيق الأماني، بسوء الحظّ أو سوء الطالع، يقول الشاعر:

ربَّ ساعٍ جاهدٍ في سَعْيِهِ   أخفقَ التوفيقَ فيمَا طَلَبَا

ويقول آخر:

لا تَلُمْ كَفِّي إذا السيفُ نَبَا[1]   صحَّ منِّي العَزْمُ والدَّهرُ أَبَى

ويقول آخر يندب حظّه التعيس:

إنَّ حَظِّي كَرَمَادٍ   فَوقَ شَوْكٍ نَثَرُوهُ

ثُمَّ قَالُوا لِحُفَاةٍ   يَومَ رِيْحٍ: اجْمَعُوهُ

ومن هنا كان لا بدّ وأن نتطرق إلى ذكر الأرزاق، والآجال، والآلام، لنتبيّن وجه الحق فيما يصح نسبته إلى القضاء والقدر، وما لا يصح نسبته إليهما، على النحو الذي بيّناه في الحديث عن أفعال الإنسان وتصرّفاته فيما سبق، وبالله التوفيق.

(١) نبا: أخطأ الضربة.

الرّزق والكسب

الـرزق

خلق الله الإنسان واستخلفه في هذه الأرض لإحيائها وعمارتها، وقد شـاءت حكمة الله تعالى أن تكون الأرض هي مصدر قوت الإنسان الذي يمدّه بالحيـاة، ويضمن بقاء النوع الإنساني واستمراره.

وإننا لنلحظ أن خيرات الأرض لا تنضب، وأنها في تزايد مستمر، ففي حين كانت الآلاف المؤلّفة من البشر تعاني المجاعة والقحط، في وقت كان عدد سكان الكرة الأرضيّة لا يتجاوز الملايين، صارت البشرية اليوم -أو الأغلب من سكّان الكرة الأرضيّة- ينعمون بخيرات الأرض وثرواتها، في وقت تضـاعف سـكان المعمورة أضعافاً كثيرة، يصل إلى سبعة أو ثمانية مليـار نسـمة عـلى أقـل تقـدير، وذلك يؤكّد الحقيقة التي أشار إليها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**وَقَـدَّرَ فِيهَـا أَقْوَاتَهَا**﴾[فصلت:١٠]، مما يـدل عـلى أن ثـروات الأرض وخيراتهـا تكفـي سـكّان المعمورة مهما بلغ تعدادهم، ليس للبشر فحسب، وإنما للبشر وكلّ ما يدبّ عـلى هذه الأرض من دواب، وأنعـام، وحيوانـات، وزواحـف، وطيـور، وأسـماك، وغيرها، يقول الله تعالى: ﴿**وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَـلَى اللَّـهِ رِزْقُهَـا وَيَعْلَـمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا**﴾[هود:٦]، ويقول تعالى: ﴿**وَكَأَيِّن مِنْ دَابَّـةٍ لاَ تَحْمِـلُ رِزْقَهَـا اللَّـهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ**﴾[العنكبوت:٦٠].

ومن هنا ندرك أن جميع خيرات الأرض وثرواتها رزق من الله سبحانه وتعالى لبني الإنسان ولسائر الدواب والأنعام.

ولا خلاف في أنّ ما انتفعت به الحيوانات والطيور والدواب يكون رزقاً وهبه الله إيّاها، مصداقاً لقول الرسول الأعظم ﷺ: «**لو توَكّلتُم على الله حَقّ توَكُّلِهِ لَرَزَقَكُم كما يَرزُقُ الطيرَ، تَغدو خِماصاً، وتَروحُ بِطاناً**»[1].

وقد أطلق الرزق في حق الدواب والأنعام بكل ما تنتفع به؛ لأنها لا تمتلك ولا تحوز شيئاً من المنافع إلا ما ملأ بطنها، وسدّ جوعها، وأطفأ عطشها، بخلاف بني الإنسان، فإنه يجوز له أن يتملّك، وأن يحوز من ثروات الأرض وخيراتها ما شاء، شريطة أن يكون مما أحلّه الله له شرعاً، وأجاز له تملّكه والانتفاع به، قال تعالى: ﴿**فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا**﴾[النحل:١١٤].

وبناءً عليه فإنّه لا يطلق على ما في يد الإنسان من ثروات وخيرات ومنافع رزقاً إلّا ما كان من الحلال الطيّب، ومما يدل على ذلك أن الله سبحانه وتعالى وصف الرزق بالطيّب في سائر آيات القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ**﴾[النحل:٧٢]، وقوله تعالى: ﴿**فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلاَلاً طَيِّبًا**﴾[النحل:١١٤]، وقوله تعالى: ﴿**قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ الرِّزْقِ**﴾ [الأعراف:٣٢]، وقال تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ**﴾[البقرة:١٧٢]، ونحو ذلك من الآيات.

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي عن عمر.

وهذه الآيات في مجموعها دالّة على أنه لا يطلق الرزق إلا على ما كان من الحلال الطيّب، وأما ما لم يكن من الحلال الطيّب فليس برزق، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا﴾[النحل:٦٧]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمْ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمْ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾[المائدة:٨٧]، أي لا تجعلوا الرزق الحلال الطيب حراماً تحرّمونه على أنفسكم.

ونستنتج من ذلك أنه ليس كل ما بحوزة الإنسان وتحت تصرّفه يعدّ رزقاً، وإنما لا يسمّى رزقاً إلا ما كان من الحلال الطيّب، وهو ما كان في ملكه من الحلال المأخوذ من وجهه الشرعي، سواءً كان في يده أو في يد غيره .

وأما ما كان من الحرام الخبيث الذي يتملّكه الإنسان بطريق الغصب، أو النهب، أو السرقة، أو الغش، أو الربا، أو الرشوة، أو الاحتكار، أو غير ذلك من الطرق التي لم يشرعها الله فلا يعتبر رزقاً، ولا يصح تملّكه، ولا يجوز الانتفاع به، لأن الإنسان مأمور شرعاً بالتخلّي عنه والتخلّص منه، إما بإرجاعه إلى أهله – إن كان له أهل– أو بإرجاعه إلى بيت مال المسلمين، أو بإتلافه والتخلّص منه، إن كان من الحرام الذي لا يصحّ الانتفاع به، كالخمور ونحوها.

الكسب

ما من شك أن الناس متفاوتون في الرزق، وبعضهم أفضل من بعض، قال تعالى: ﴿**وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ**﴾[النحل:٧١]، وقال تعالى: ﴿**نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ**﴾[الزخرف :٣٢]، وهذا التفاوت في الرزق بين الناس إنما جعله الله لحكمة ومصلحة، وهو أن يحصل بين الناس تبادل المنافع، فالغني يكون محتاجاً إلى عمل الفقير، والفقير يكون محتاجاً إلى مال الغني، وهذا هو التسخير الذي أشارت إليه الآية المذكورة في قوله تعالى: ﴿**لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا**﴾ أي ليكون بعضكم مُسَخَّراً لبعض، وبذلك تتحقّق عمارة الأرض وتطوّر الحياة.

ولا شك أن هناك حِكَم ومصالح أخرى ليس هذا مقام الحديث عنها، وما نريد أن نشير إليه هنا هو الإجابة على التساؤل التالي: **هل يتعلّق التفاوت بين الخلق في الرزق بالإرادة والمشيئة الإلهيّة؟ وهل لذلك علاقة بالقضاء والقدر أم لا؟**

وللإجابة على هذا التساؤل نقول: إنه ما من شك أن التفاوت في الرزق متعلّق بالإرادة والمشيئة الإلهيّة، وأن لذلك علاقة بالقضاء والقدر، وذلك أن الله سبحانه وتعالى جعل ثروات الأرض وخيراتها محدودة، وأباح لبني الإنسان تملّك الأموال والثروات، وخلق الله في الإنسان الشهوات التي لا تقف عند حدّ، والتي تجعل الإنسان حريصاً كلّ الحرص على تملّك الثروات وحيازة الأموال ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

ومن أجل ذلك تفاوت الناس في أرزاقهم؛ لأن ما في الأرض من أموال، وثروات، وكنوز، وخيرات، لا تكفي لكي يكون كل أهل الأرض أغنياء، وإلى ذلك أشار أمير المؤمنين عليه السلام بقوله: «**ما جاع فقيرٌ إلّا ببِطْنَة غني**» أي ما افتقر الفقير إلا بسبب طمع الغني وتملّكه أكثر من حاجته، إذ لو لم يكن الإنسان مجبولاً على حب الدنيا، وجمع الأموال، واكتناز الثروات، لكان ما في الأرض يكفي جميع الناس، وربما فاض عن حاجتهم.

وهذا هو القضاء والقدر، حيث اقتضت إرادة الله ومشيئته أن تكون خيرات الأرض محدودة، في حين أن شهوات الناس لا تقف عند حدّ، يقول الله تعالى: ﴿**زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنْ النِّسَاءِ وَالبَنِينَ وَالقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنْ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ**﴾[آل عمران:١٤]، ويقول تعالى: ﴿**فَأَمَّا الإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلَّا بَل لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَّمًّا * وَتُحِبُّونَ المَالَ حُبًّا جَمًّا**﴾[الفجر:١٥-٢٠]، ويقول الرسول صلى الله عليه وآله: «**لَوْ كَانَ لاِبْنِ آدَمَ وَادِيَانِ مِنْ مَالٍ لاَبْتَغَى لَهُمَا ثَالِثًا، وَلاَ يَمْلأُ جَوْفَ ابْنِ آدَمَ إِلاَّ التُّرَابُ، وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ تَابَ**»[1].

وهكذا نجد أن الله سبحانه وتعالى قدّر على بني الإنسان أن يكونوا متفاوتين في الرزق، وأن يكون بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء، ولا يعني ذلك أن الله قدّر

(١) رواه البخاري ومسلم عن أنس، وأحمد والطبراني عن زيد بن أرقم.

على فلان من الناس أن يكون غنيًّا، في حين قدّر على فلان أن يكون فقيراً، ذلك لأن الله سبحانه وتعالى ربط المُسبَّبَات بأسبابها، والمعلولات بعللها، فالغنى له أسبابه ومسبّباته، والفقر له أسبابه ومسبّباته.

فظروف الإنسان وبيئته المحيطة، إضافة إلى قدراته الذهنية والبدنية، وسعيه وجِدّه ونشاطه، جميعها عوامل تساعد الإنسان على الغنى واليَسار، في حين أن الخمول والكسل، والميوعة والدّعَة، والتبذير والإسراف، إضافة إلى ظروف الإنسان وبيئته المحيطة، وضعفه عن العمل، وعجزه عن اكتساب المهارات وتعلّم الحِرَف، ونحو ذلك؛ عوامل سلبية عادة ما تكون سبباً في الفقر والعوَز.

لذلك حذّر الإسلام من العجز والكسل، وحثّ على العمل، وأوجب السعي في الأرض لطلب الرزق والبحث عنه، قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ**﴾ [الملك:١٥]، وقال تعالى: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ**﴾[الجمعة:١٠]، وقال تعالى: ﴿**وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾[التوبة:١٠٥]، ويقول الرسول ﷺ: «**مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَامًا قَطُّ خَيْرًا مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ، وَإِنَّ نَبِيَّ اللَّهِ دَاوُدَ كَانَ يَأْكُلُ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ**»[١]، ويقول ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنَ الْمُحْتَرِفَ**»[٢]، وسئل ﷺ: أي الكسب أطيب؟ فقال: «**عَمَلُ الرَّجُلِ بِيَدِهِ، وَكُلُّ بَيْعٍ مَبْرُورٍ**»[٣].

---

(١) رواه البخاري والطبراني والبيهقي عن المقدام بن معديكرب.

(٢) رواه ابن عدي والطبراني في الأوسط عن ابن عمر.

(٣) رواه أحمد في مسنده، والحاكم في المستدرك وصحّحه.

فدلّت هذه الآيات والأحاديث أنّ حصول الرزق مـرتبط بالسـعي والأخـذ بالأسباب، والواجب على الإنسان بذل السبب، واستفراغ الوسع للحصول على الرزق، ومن الخطأ أن يعتقد الإنسان أن رزقه مكتوب، وأنه آتٍ لا محالـة ولـو لم يسعَ لتحصيله؛ لأن ذلك منافٍ للسنن الإلهية في الخلق، وهـي أن لكـلّ معلـول علّة، ولكل مسبَّب سبب.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**التواني مفتاحُ البُؤْس، وبالعجزِ والكسلِ تولّـدتِ الفاقةُ، ونتجتِ الهلكةُ، ومن لم يطلبْ لم يجدْ، وأفضى إلى الفساد**»[1].

ويقول عمر بن الخطاب: «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق، يقـول: اللهـم ارزقني. وقد علم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة، وإن الله يقول: ﴿**فَإِذَا قُضِيَتْ الصَّلاَةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّـهِ**﴾[الجمعة:١٠]».

الـتوكّل

ألهم الله سبحانه الإنسان الوسـائل والأسـاليب المناسـبة للتكسّـب وطلـب الرزق، غير أن تلك الوسـائل والأسـاليب قـد تكـون ناجحـة، بحيـث تـؤدّي غرضها، وتحقّق الغاية المرجوّة منها، وقد تكون فاشلة لسبب من الأسباب.

لذلك كان من الواجب على المؤمن أن لا يتّكل على الأسباب، وإنّما يجب أن يستفرغ الوسع، ويبذل السبب، ثم يكون توكّله على مشيئة الله وإرادته، فيسأل من الله أن يعينـه على تحقيق ما يريد من رزق، أو نجاح، أو نصر، أو نحو ذلك، قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَقُـولَنَّ**

(١) المستطرف للأبشيهي.

لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا * إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّـهُ﴾[الكهف:٢٣-٢٤].

ومعنى ذلك أن على المؤمن أن يفوّض أمره إلى الله، ويستمدّ العون منه، ويعتمد عليه في السعي في الحياة؛ لأنه سبحانه وتعالى هو الإله المدبّر الفعّال لما يشاء، وهو الذي بيده وحده الإعطاء، والمنع، والرزق، والحرمان، قال تعالى: **﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّـهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللَّـهِ فَلْيَتَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾**[التوبة:٥١] .

فإذا توكّل الإنسان على الله التوكّل الصحيح، فسعى في الأرض، وأخذ بالأسباب، ثم وثق في عون الله وتوفيقه، وفوّض أمره إلى خالقه ومدبِّر أمره، فإنه سبحانه وتعالى ييسّر له أمره، ويبلِّغه مطلوبه، ويعينه على تحقيق مراده، قال تعالى: **﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّـهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّـهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّـهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾** [الطلاق:٣].

ويجدر الإشارة هنا إلى أن هذه الآية قد أشارت إلى أنّ مجرّد التوكّل على الله دون الأخذ بالأسباب وتقديم الوسائل المناسبة غير كافٍ لبلوغ الغاية المرجوّة، وتحقيق النتيجة المطلوبة، حيث ختمت الآية بقوله تعالى: **﴿قَدْ جَعَلَ اللَّـهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾**، "بمعنى أن كلّ شيء مقدّر بمقداره، وبزمانه، وبمكانه، وبملابساته، وبنتائجه، وأسبابه، وليس هناك شيء يحدث مصادفة أو يقع جزافاً في هذا الكون كلّه، وفي نفس الإنسان وحياته"[(١)] .

وقد دلّت جملة من الأحاديث النبوية الشريفة على هذا المعنى، ومن ذلك قول الرسول الأعظم ﷺ: «**لَوْ توَكَّلتُم عَلَى اللَّـهِ حَقَّ توَكُّلِهِ لَرَزَقَكُم كما يَرزُقُ**

---

(١)عن كتاب (في ظلال القرآن)، تأليف: سيد قطب، ج٦، "بتصرف يسير".

الطيرَ، تَغدو خِماصاً، وتَـروحُ بِطانـاً»[1]، فقـد أخـبر الحـديث المـذكور أن الطـير (تغدو) أي تسعى لطلب رزقها، فيكون نتيجة هذا السعي أن (تروح بطانـاً) أي تعود إلى أعشاشها وقد شبعت وارتوت .

روي أن الإمام أحمد بن حنبل رأى رجلاً من أهل التصـوّف وقـد قعـد عـن العمل، واشتغل بالذكر والعبادة، فسأله الأمام أحمد عـن سـبب قعـوده، فقـال: نظرت حديث رسول الله ﷺ يقول: «لو توَكّلتُم على الله حَقّ توَكُّلِهِ لَرَزَقَكُم كما يَرزُقُ الطيرَ» فتوكّلت على الذي يرزق الطير، فقال له الإمام أحمد: إنـك لم تفقـه الحديث، فقد ذكر رسول الله ﷺ أن للطير غُدُوًّا ورواحاً في سبيل الرزق، ولـو قعدت في وكناتها[2] ولم تطلب الرزق ما كان يأتيها.

ولله در القائل:

تَوَكَّـلْ عَـلَى الـرَّحمَنِ فِي الأَمْـرِ كُلِّـهِ ... وَلَا تَـرْغَبَنْ فِي العَجْزِ يَومـاً عَنِ الطَّلَـبْ

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ اللَّـهَ قَـالَ لِمَـرْيَم ... وَهُـزِّي إِلَيْـكِ الجِـذْعَ يسَّـاقطِ الرُّطَـبْ

وَلَـوْ شَـاءَ أَدْلَى الجِـذْعَ مِـنْ غَـيْرِ هَـزِّهِ ... إِلَيْهَـا وَلَكِـنْ كُـلُّ شّيْءٍ لَـهُ سَـبَبْ

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة والحاكم عن عمر.

(٢) **وكناتها**: أعشاشها ومخابئها.

الآجال والآلام

قضاء وقدر!!

خلق الله الإنسان على نحو يختلف عن الجمادات والأجسام اللطيفة، كالجن والملائكة ونحوها من المخلوقات، وذلك أن الجسم البشري معرّض للأعراض التي تكون سبباً في الموت والفناء، وفي إصابة الجسم بالأمراض، والآلام، والأسقام، والعاهات، والتشوّهات الخَلْقية وما إلى ذلك.

وما من شك أن الله سبحانه وتعالى خلق الجسم البشري على هذا النحو لحكمة ومصلحة لا تكاد تخفى على المتأمّل العاقل اللبيب؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى استخلف الإنسان في هذه الأرض لإصلاحها وعمارتها، وإنّه لّما كان الإنسان مجبول على حب البقاء، في الوقت الذي هو مخلوق ضعيف معرّض للموت في أي لحظة وبأي سبب، وهو معرض للمرض، والألم، والخطر، والجوع، والعطش، والحرّ، والبرد، وللأسباب المختلفة التي تؤدّي إلى هلاكه، وتلف أعضائه، وإصابته بالعاهات والتشوّهات، وما إلى ذلك.

كل ذلك بالإضافة إلى ما منح الله الإنسان ووهبه من عقل وحكمة، وقوّة إرادة، وقدرة على التفكير والعمل والإبداع، كان ذلك كله سبباً في إصلاح الأرض وعمارتها، وما بُنيت البيوت، وعُمرت المباني، وأُنشئت السدود، وشُقّت الطرق، وصُنعت السفن والطائرات، وأُخترعت المخترعات، وشيدت المصانع والمدارس والمستشفيات، إلى غير ذلك مما يعجز الفكر عن الإحاطة به؛ إلّا لإشباع حاجات الإنسان، وتوفير متطلباته الحياتية، وتأمين حياة الإنسان مما قد

يعتريه من مخاوف نتيجة الأخطار التي قد يتعرّض لها، فهل كان يمكن أن تُعْمر الأرض لو أن سكانها كانوا من الملائكة أوالجن مثلاً، أو كانوا أنواعاً من أنواع المخلوقات التي تنمو وتحيا دون أن تحسّ بألم أو تخشى أي خطر؟!

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الألم ضروري لحياة الإنسان، وذلك لأنه يمثّل جرس إنذار لمواجهة أي خطر يمكن أن يفتك بالجسم ويضرُّ به، فلو لم يشعر الإنسان بالألم من لسعة الثعبان مثلاً لما أدرك الإنسان جريان سم الثعبان في جسمه، فيكون ذلك سبباً في هلاك الجسم وتعرّضه للموت فجأة، غير أن الإنسان لَمَّا أحسّ ألم لسعة الثعبان مثلاً، وأحسّ ببوادر الأمراض المختلفة؛ سارع إلى علاجها والتداوي منها، فكان في ذلك نجاته والحفاظ على حياته.

ومن هنا ندرك سرًّا من أسرار خلق الإنسان على هذه الهيئة وهكذا الشكل الذي يحسّ بالألم، ويمرض، ويموت، ويجوع، ويعطش، ويصاب بالعاهات، وتطرأ عليه التشوّهات، ويصيبه الهمّ، ويعتريه الحزن. .الخ.

وكل تلك الأمور ولا شك واقعة تحت طائلة القضاء والقدر الذي قضاه الله وقدّره على عباده، والذي يجب الإيمان به، والتسليم لله في حكمه، والرضا بقضائه.

وليكن الإنسان على يقين أن في ذلك حكمة ومصلحة؛ لأن الله سبحانه وتعالى لا يفعل القبيح، وهي وإن كانت شرًّا في نظر الناس، فإنها في واقع الأمر ليست شرًّا محضاً؛ لأنّه لا يصدر عن الخالق الحكيم إلّا ما فيه خير العباد وصلاحهم، قال تعالى: ﴿**كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ**﴾[البقرة:٢١٦].

دفع القدر

وإذا كان من الواجب على المسلم الرضى بقضاء الله وقدره، والتسليم لأمره، والنزول عند حكمه، فإن من واجبه كذلك أن يأخذ بالأسباب، وأن يدفع القدر بالقدر، فيدفع قدر الخطر بقدر الاحتماء، ويدفع قدر المرض بقدر التداوي .. وهكذا؛ لأن الإنسان إذا أهمل نفسه من التداوي والاحتماء عرّض نفسه للهلاك.

ولقد حثّ النبي ﷺ على التداوي من الأمراض، والاحتماء من الأخطار في الكثير من أحاديثه ﷺ، ومن ذلك قوله ﷺ : «**إِنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، فَتَدَاوَوْا، وَلاَ تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ**»[1]، وقوله ﷺ: «**تَدَاوَوْا، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَضَعْ دَاءً إِلاَّ وَضَعَ لَهُ دَوَاءً**»[2].

وعن أبي خزامة قال: قلت: يا رسول الله أرأيتَ رُقًى نسترقيها، ودواءً نتداوى به، وتُقاةً نتَّقيها، هل تردّ من قدر الله شيئاً؟ قال: «**هِيَ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ**»[3].

ولقد فهم السلف هذا المقصد الشرعي في وجوب دفع الضرر عن النفس، وتجنّب مواضع الهلكة وأسبابها، فجسّدوه قولاً وعملاً، ومن ذلك ما روي عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام، حتى إذا كان في مكان يقال له (سرغ) لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة ابن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء -أي الطاعون- قد وقع بالشام، فنادى عمر في الناس أن يرجعوا. فقال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟! فقال عمر رضي الله

(١) رواه الطبراني والبيهقي وأبوداود عن أبي الدرداء.

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده، وأخرجه الترمذي والطبراني عن أسامة بن شريك.

(٣) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة عن أبي خزامة.

عنه: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة!! نعم نفرّ من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل فهبطت وادياً له عُدْوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة؛ أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟، فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيّباً، فقال: إن عندي من هذا علماً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ وَأَنْتُمْ بِأَرْضٍ فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ**»[1].

خرْم الأجل

أشرنا في السطور السابقة إلى أنّ من واجب المسلم أن يأخذ بالأسباب، وأن يحترز من الأخطار، وليحذر المسلم أن يكون سبباً في جلب الشرّ ـ أو المكروه إلى نفسه أو إلى غيره؛ لأن إيلام النفس أو الغير والتسبّب في إهلاك النفس أو الغير ليس من القضاء والقدر، بمعنى أن الله قدَّره وأراد فعله، وإنما هو من القضاء والقدر المتعلّق بفعل الإنسان واختياره، قال تعالى: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ**﴾[النساء:٧٩].

فلو أن إنساناً رمى نفسه من شاهق فهلك أو أصابه ألم؛ فهل يقال: إن هلاكه أو إصابته بالألم قضاء وقدر؟ الجواب: لا؛ لأنه لو لم يُلقِ بنفسه إلى التهلكة لما هلك، ولو لم يرم نفسه لما أصابه ألم؛ ولذا أمر الله تعالى بحفظ النفس ووقايتها، فقال تعالى: ﴿**وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ**﴾[البقرة:١٩٥]، وحثّ الرسول ﷺ على تجنب الأخطار والاحتماء منها، ومن ذلك التعرّض للأماكن الموبوءة والتي يكون بها وباء خطير كالطاعون

(١) رواه البخاري ومسلم والبيهقي عن ابن عباس.

ونحوه، حيث يقول الرسول ﷺ: «**إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَدْخُلُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ وَأَنْتُمْ بِأَرْضٍ فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ**»[1].

وكما أرشد النبي ﷺ إلى اتخاذ أسباب الوقاية من الأمراض فقد حذّر ﷺ من الوقوع في الأخطاء التي تكون سبباً في المصائب والآلام، ومن ذلك ما روي عن أبي موسى الأشعري قال: احترق بيت بالمدينة على أهله بالليل، فلما حُدِّث رسول الله ﷺ بشأنهم قال: «**إنَّ هذهِ النارَ عَدوٌّ لكُمْ، فَإذا نمْتُمْ فَأطْفِئُوهَا**»[2].

وقوله ﷺ: «**أَطْفِئُوا الْمَصَابيحَ إذَا رَقَدْتُمْ، وَأَغْلِقُوا الأبْوَابَ، وَأَوْكِئُوا الأَسْقِيَةَ، وَخَمِّرُوا الطعَامَ والشَّرابَ ولو بِعُودٍ تَعْرُضُهُ عَليْهِ**»[3].

ثم نجد أن النبي ﷺ قد حذّر من نوع آخر من المخاطر التي قد تؤدّي إلى نتائج لا تحمد عقباها، وذلك هو المزاح واللعب بالسلاح، فيقول ﷺ: «**لاَ يُشِيرُ أَحَدُكُمْ إِلَى أَخِيهِ بِالسِّلاَحِ، فَإِنَّهُ لاَ يَدْرِى أَحَدُكُمْ لَعَلَّ الشَّيْطَانَ أَنْ يَنْزِعَ فِى يَدِهِ، فَيَقَعُ فِى حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ**»[4].

فدلّت هذه الأحاديث ونحوها أن الإنسان قد يكون هو السبب في هلاك نفسه أوغيره، بقصد وبدون قصد، وبشكل مباشر أو غير مباشر، وكل ذلك لا يعدّ في شيء من القضاء المحتوم، بدليل أن النبي ﷺ لمّا علم بالبيت الذي احترق بالمدينة على أهله لم يُخبر أصحابه أن ذلك قضاء من الله وقدر، على نحو ما نسمع من العامّة من الناس

---

(١) رواه البخاري ومسلم والطبراني عن أسامة بن زيد.

(٢) رواه ابن ماجة وعبدالرزاق الصنعاني عن أبي موسى الأشعري.

(٣)**أوكئوا الأسقية** : اربطوها، و**الأسقية** : جمع سقاء وهو ظرف من الجلد يوضع فيه الماء. والحديث رواه البخاري والنسائي وأبويعلى عن جابر بن عبدالله .

(٤)رواه أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة.

وبعض علماء الدين، وإنما قال لأصحابه: «**إِنَّ هَذِهِ النَّارَ عَدُوٌّ لَكُمْ، فَإِذَا نِمْتُمْ فَأَطْفِئُوهَا**»، يعني بذلك أن إهمالهم وتقصيرهم هو السبب فيما حدث، ولو أنهم أطفئوا المصباح قبل أن يناموا لما حصل لهم ما حصل.

وفي تحذيره ﷺ من المزاح واللعب بالسلاح أخبر ﷺ أن ذلك قد يكون سبباً في إزهاق نفس فيقع المسبّب لذلك في حفرة من النار، أي أنه قد يكون مصير القاتل دخوله النار والخلود فيها؛ لأن الله سبحانه وتعالى حرّم قتل النفس المحرّمة، وتوعّد القاتل بأشد العذاب، قال تعالى: ﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾[النساء:٩٣].

ولقد شرع الإسلام القصاص، لينال القاتل جزاءه في الدنياقبل الآخرة، وليكون ذلك زاجراً لغيره من ارتكاب هذه الجريمة، وأما القتل الخطأ فقد أوجب الله تعالى على القاتل تسليم دية المقتول إلى أهله، وصوم شهرين متتابعين توبة إلى الله على فعله.

فلو أن هلاك الإنسان بفعل نفسه أوغيره -خطأً كان أو عمداً- كان قضاءً محتوماً وقدراً لازماً، قضاه الله وقدّره على النفس الهالكة، لما ترتّب عليه ذاك الجزاء وذلك العقاب، إذ أنّ المتسبّب في القتل سيكون قد أزهق روح من حضر أجله، فيكون بذلك قد نفّذ قضاء الله فيه، وهذا ما لا يقول به عاقل.

وفي ذلك دلالة على أنه لو لم يحصل للنفس التي أزهقت ذلك الشيء الذي كان سبباً في إزهاقها؛ لعاش ذلك الإنسان الذي أزهقت روحه حتى يحين أجله المقدّر له.

"ومن أجل ذلك حرّم الله القتل، وحمّل القاتل مسئولية القتل ظلماً أو خطأً، وحرّم الله الانتحار، كما حرّم كل ذريعة تؤدّي إليه كإلقاء النفس إلى التهلكة،

والتعرّض للأوبئة والأمراض الفتّاكة، وعدم الاحتماء منها"[1].

مما يعني أن هناك فرق بين الموت الطبيعي، والموت غير الطبيعي، فالموت الطبيعي هو انقضاء أجل وانتهائه، وأما الموت غير الطبيعي الذي يكون بالقتل أو بسبب التعرّض للأوبئة والفيروسات القاتلة فهو خرم أجل، بمعنى أنه لو لم يحصل لعاش صاحبه حتى يبلغ أجله الذي سمَّاه رب العزة تبارك وتعالى في كتابه الكريم بالأجل المسمى، قال تعالى: **﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّـهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾**[النحل:٦١]، وقال تعالى على لسان نوح عليه السلام: **﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّـهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ * يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّـهِ إِذَا جَاءَ لاَ يُؤَخَّرُ﴾**[نوح:٣-٤].

فقد أشارت هذه الآيات إلى أن الأجل المسمّى هو الأجل المحتوم الذي إذا جاء لا يؤخَّر، وهو وقت انقضاء العمر بالموت، وفيها أخبر الله سبحانه وتعالى على لسان نبي الله نوح عليه السلام بيان أنّ قوم نوح إن خالفوا شرع الله وعصوا رسوله؛ فقد ينزل عليهم من العذاب ما يهلكهم ويقصم أعمارهم بإهلاكهم قبل حضور آجالهم.

"ومن هنا ندرك سرّ عظمة الشهادة في سبيل الله، ومضاعفة أجر الشهيد أضعافاً كثيرةً؛ ذلك لأن الشهيد قدّم نفسه رخيصة في سبيل الله، وآثر الموت العاجل في سبيل الله على أن يعيش إلى أن يأتيه أجله، فالمجاهد- أو الشهيد- يهب عمره في سبيل الله، هذا العمر الغالي الذي كان يمكن أن يتمتّع به بين أهله، ولكنه آثر الله واليوم الآخر، فاستحقّ أعلى درجات الكرامة؛ لأنه قدّم لله أغلى ما يملك"[2].

---

(١) عن كتاب (الزيدية نظريّة وتطبيق) للسيد علي عبد الكريم الفضيل "بتصرف يسير".

(٢) عن كتاب (أصول دين الإسلام) للأستاذ/ عبد الله محمد إسماعيل "بتصرف يسير".

وبالمقابل ندرك أيضاً عِظَم أجر إنقاذ النفس من الهلاك، وذلك بمساعدة إنسان في الأوقات الصعبة، وإغاثة الملهوف في المواقف الحرجة، كإنقاذ الغريق، ومساعدة المريض على العلاج والاستشفاء، وإسعاف من يتعرّضون للحوادث، والعفو عن القاتل المحكوم عليه بالقصاص، ونحو ذلك؛ لأنّ من يفعل ذلك يكون قد وهب غيره أغلى ما في الوجود ألا وهو الحياة، إذ لولاه لانخرم أجله، وسار إلى حتفه، وانقضت أيام عمره، ومن حقّ من يفعل ذلك أن يكون أجره عند الله كبيراً، وجزاؤه عظيماً لا يعلم قدره إلّا الله تعالى، يقول الله تعالى: ﴿**مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا**﴾[المائدة:٣٢].

تنبيه:

سبق وأن أشرنا في الجزء الأول من هذا الكتاب في قسم العدل إلى أنّه لا يصح أن ينسب إلى الله تعالى من الأفعال إلا الأفعال الحسنة، وأما الأفعال القبيحة وما تكرهه النفس وتستخبثه فلا يجوز نسبته إلى الله تعالى، وذلك على نحو قول إبراهيم صلوات الله عليه وعلى آله فيما حكاه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ**﴾[الفرقان:٧٨-٨١]، فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام نسب الخلق، والهداية، والإطعام، والإسقاء، والشفاء، والإماتة، والإحياء، إلى الله تعالى، ونسب المرض إلى نفسه تأدباً مع ربه.

وما حكاه الله تعالى عن نبي الله أيوب عليه السلام، وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ**﴾[ص:٤١]، حيث

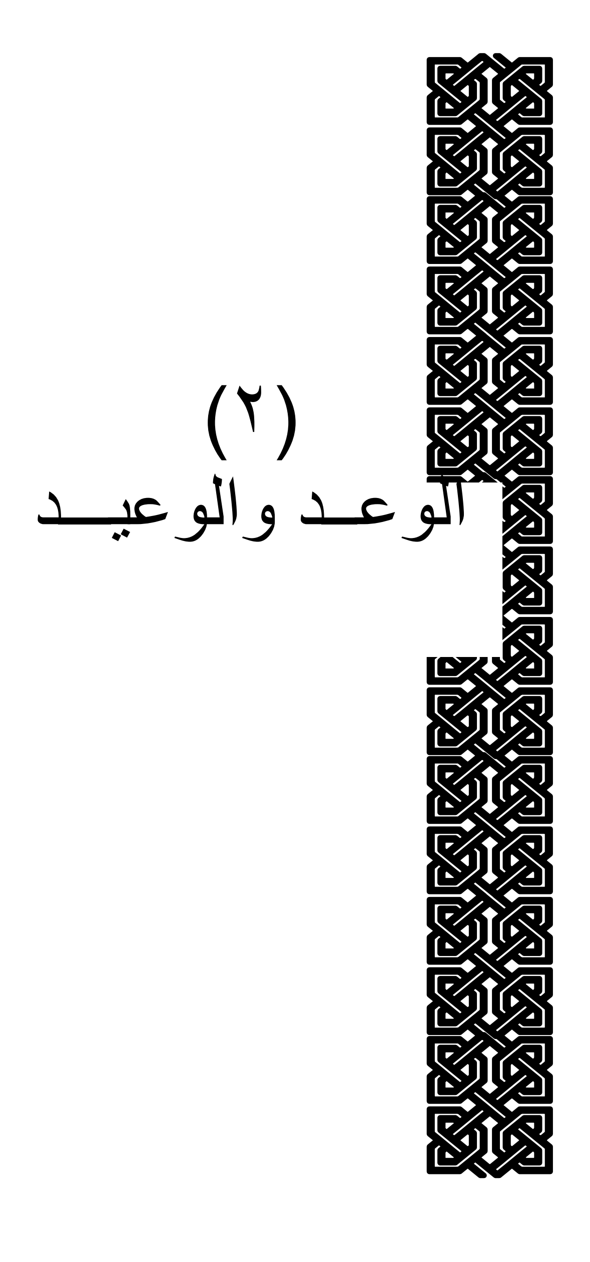
نسب ما أصيب به من المرض والابتلاء إلى الشيطان .

وفي ذلك يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ**﴾[النساء:٧٩]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾[الروم:٤١]، ويعني ذلك أنّ الله سبحانه وتعالى لم يرد للإنسان إلاّ الخير، فإذا ما أصاب الإنسان شر فهو من فعل الإنسان وبسببه، وإذا ما أصابه خير فهو من فعل الله وتقديره.

فمثلاً إذا تناول الإنسان طعاماً ملوّثاً أدّى إلى إصابته بمرضٍ ما، فإصابته هذه هي ولا شك من فعل الإنسان والمتسبّب فيها[1]، فإذا تناول الإنسان دواءً كان سبباً في شفائه فإنّ ذلك إنما هو من فعل الله وتقديره، حيث ألهمه إلى الدواء وأقدره على استعماله، وهو تعالى صاحب الفضل والمن، حيث خلق الدواء، وخلق الإنسان على نحو يقبل الدواء وينتفع به.

---

(١) وكذلك العقوبات الإلهيّة التي تصيب الناس بسبب مخالفتهم لشرع الله ومنهجه هي أيضاً من فعل الناس وهم المتسبّبون فيها، قال تعالى: ﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ**﴾[الروم:٤١].



(٢)
الوعــد والوعيـــد

الإيـــمان

الإيمان

من مقاصد الإسلام التسامي بالإنسان إلى أعلى درجات الكمال، ولن يكـون ذلك إلا بسعة آفاق معرفته وعلمه، ومعلوم أنّ الإنسـان يتميّـز عـن غـيره مـن المخلوقات بقدرته على إدراك المحسـوس وغـير المحسـوس، ولـذلك اسـتطاع الإنسان أن يستفيد من نواميس الكون والقوانين الطبيعية للوجود، وأن يسخّرها لخدمته، الأمر الذي يجعلنا ندرك سرّ تكليف الإنسـان واسـتخلافه في الأرض، وحمله للأمانة التي لم تستطع حملها السماوات والأرض، قال تعالى: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً**﴾ [الأحزاب:٧٢].

وحتى يكون الإنسان قادراً على حمل الأمانـة وأدائهـا عـلى النحـو المطلـوب أرسل الله الرسل، وأنزل الكتب لهداية البشرية وإخبارهم بـما وراء المحسـوس، وهو عالم الغيب المطلق، وعلمنا بواسطة الرسل أن خالق هذا الكـون وموجـده وصانعه هو الله تعالى وأنه لا إله سواه، وأن العبادة لا تكون إلا له وحده.

وعلمنا بواسطة الرسل أن بعد هذه الحياة بعثاً، ونشوراً، وحسـاباً، وجـزاءً، وأن هناك جنّة وناراً، وأن لله ملائكة يعبدونه، ويطيعون أمره، ويبلّغـون وحيـه، وينفذون في خلقه مراده، وبذلك قامت عـلى الإنسـان الحجّـة، ولـزم المكلّفـين

الإيمان بما جاء به الأنبياء، والتصديق بما أخبروا به، قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾[النساء:١٦٥] .

ولقد اقتضت الحكمة الإلهيّة أن يكون الإيمان بذلك والتصديق به إيماناً بالغيب المطلق الذي لا يُحسّ ولا يُشاهد، وذلك من قبيل الابتلاء والاختبار، ذلك لأن الإيمان بغير المحسوس يحتاج إلى الدلائل العقليّة التي لا مجال إلى إنكارها، وهذا هو التكليف بعينه الذي استحقّ عليه المؤمنون الجزاء الأوفى من ربّهم تبارك وتعالى؛ وهو دخول الجنّة والخلود فيها.

أما الإيمان بالمُشاهَد والمحسوس فإنه أسرع وأقرب إلى النفس من الإيمان بما لا يُشاهد ولا يحسّ؛ بل لا يمكن أن يوجد على وجه الأرض من ينكره أو يكذّب به، وإلى ذلك أشارت الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ * إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنْ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾[الفرقان:٣-٤].

فالتكليف بالإيمان بالغيب قد ميّز بين صنفين من الناس:

الصنف الأول: هم أهل الكِبر والعناد الذين كذّبوا الرسل، ورفضوا الإيمان بما جاءوا به، وهؤلاء قد أخبر الله عنهم أنهم إنّما منعهم من الإيمان جحودهم، وعنادهم، قال تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[الأنعام:٣٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ* وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٣-١٤].

الصنف الثاني: وهم أهل الإيمان الذين شاهدوا الدلائل والمعجزات فما وسعهم إلّا الإيمان والتصديق، قائلين: ﴿**رَّبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا**﴾[آل عمران:١٩٣]، فهؤلاء آمنوا بما جاءهم من عند الله تعالى، لمجرّد أنها وحي من الله بواسطة رسله، وذلك هو الإيمان الصادق الذي يريده الله ويرضاه؛ لأنهم آمنوا بربّهم دون أن يروه، وعبدوه دون أن يشعروا به، وصدّقوا بما جاء به الرسل والأنبياء دون أن تدركه حواسّهم.

الإيمان والإسلام

الإيمان: هو الإقرار والتصديق بالقلب واللسان، ومن التعريفات الجامعة لمعنى الإيمان أنه: قول باللسان، واعتقاد بالجَنان، وعمل بالأركان.

وأما الإسلام فيأتي في الشرع على ثلاثة معانٍ:

المعنى الأول: الإستسلامُ لله، والإنقيادُ له بالطاعة والعبادة:

والإسلام بهذا المعنى مرادف لمعنى الإيمان، وهو لفظ مشترك بين سائر الأديان والشرائع التي أنزلها الله عز وجل على أنبيائه ورسله، ابتداءً بأبينا آدم وانتهاء بسيدنا محمد صلوات الله عليه وسلامه عليهم أجمعين، قال تعالى: ﴿**وَقَالَ مُوسَى يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ**﴾[يونس:٨٤]، وقال تعالى على لسان نبي الله نوح عليه السلام: ﴿**وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾[يونس:٧٢]، وقال تعالى حاكياً عن الحواريين من قوم عيسى: ﴿**وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُواْ بِي وَبِرَسُولِي قَالُوَاْ آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا**

مُسْلِمُونَ﴾[المائدة:١١١] ، وقال تعالى حاكياً عن الملكة بلقيس: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[النمل:٤٤].

المعنى الثاني: الدّين كلّه الذي جاء به سيدنا محمد ﷺ من العقائد والأحكام، قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلاَمُ﴾[آل عمران:١٩]، وقال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾[المائدة:٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[آل عمران:٨٥].

المعنى الثالث: الأعمال الظاهرة الدالّة بحسب الظاهر على التسليم لأمر الله والانقياد له، على نحو ما جاء في حديث جبريل عليه السلام، وفيه: قال: يا محمد؛ أخبرني عن الإسلام؟ فقال رسول الله ﷺ: «الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلاً»(١).

ويظهر من جملة هذه المعاني أنّه لا فرق بين الإيمان والإسلام؛ باعتبار أنّ كل أعمال الإسلام وشعائره هي من الإيمان، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ * الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾[الأنفال:٢-٤]، وقال ﷺ: «الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ -أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ- شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الإِيمَانِ»(٢).

---

(١) رواه مسلم والترمذي عن عمر.

(٢) رواه مسلم والنسائي والترمذي وابن ماجة وأبوداود عن أبي هريرة.

وقد دلّت الآيات القرآنيّة والأحاديث النبويّة على أنّ الإيمان والإسلام لفظان مترادفان، وأنهما بمعنى واحد، ومن ذلك قوله تعالى في سياق ذكر قوم لوط: ﴿**فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾[الذاريات:٣٥-٣٦].

والإيمان والإسلام وإن كان معناهما واحداً إلّا أن الإيمان أعمّ من الإسلام، فكلّ مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً، بدليل قوله تعالى: ﴿**قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**﴾[الحجرات:١٤]، ويفهم من ذلك أنه لا يكون المسلم مؤمناً كامل الإيمان إلّا إذا اجتمع فيه الاعتقاد بالقلب، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان.

فإن كان ممن أقرّ بلسانه ولم يعتقد بقلبه فهو منافق، وإن كان ممن اعتقد بقلبه وأقرّ بلسانه فقط فهو فاسق، ومن انعدمت فيه تلك الصفات فهو كافر.

ولكلٍّ من الكفر والفسق والنفاق أحكام تخصّه، فالفاسق والمنافق ليسا من أهل الإيمان، غير أنه تجري عليهما أحكام الإسلام، ويتمتّعان بنفس الحقوق التي يتمتّع بها كل من يستظلّ بظلّ الإسلام، بعكس الكفّار وأهل الذمّة، وفي ذلك يقول الرسول ﷺ: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ، فَإِذَا فَعَلُوا ذَلِكَ عَصَمُوا مِنِّي دِمَاءَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ**»[1]، وفي رواية: «**أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؛ فَإِذَا قَالُوهَا، وَصَلَّوْا**

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن أبي هريرة وعبدالله بن عمر.

صَلاتَنَا، وَاسْتَقْبَلُوا قِبْلَتَنَا، وَذَبَحُوا ذَبِيحَتَنَا، فَقَدْ حَرُمَتْ عَلَيْنَا دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ إِلَّا بِحَقِّهَا، وَحِسَابُهُمْ عَلَى اللَّهِ»[1].

ويدلّ ذلك على أن أهل الفسق والنفاق وإن كانت تجري عليهم في الدنيا أحكام الإسلام، ويتمتّعون بالحقوق الواجبة للمسلم، حيث تكون دماؤهم معصومة، وحقوقهم مكفولة، وأموالهم محفوظة، وأعراضهم مُصانة، وتنفّذ فيهم الحدود الشرعية على حكم القرآن والسنة، إلا أنهم ليسوا مؤمنين، وحكمهم عند الله -إن لم يتوبوا- حكم الكفّار المستحقّين لدخول النار والخلود فيها، قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا**﴾ [النساء:١٤٠]، وقال تعالى: ﴿**أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لاَ يَسْتَوُونَ * أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**﴾[السجدة:١٨-٢٠].

---

(١) رواه البخاري والترمذي والطبراني عن أنس.

صدق الوعـد والوعيد

صدق الوعـد

يجب على المسلم الإيمان بصدق ما وعد الله به المؤمنين من الثواب في الآخرة، وهو أن كل مؤمن مات على إيمانه مؤدّياً للواجبات، عـاملاً للصـالحات، مجتنبـاً للكبائر والموبقات، تائباً عـن المعـاصي والسـيئات، فـإن مصـيره دخـول الجنّـة والخلود فيها، خلوداً دائماً لا أمد له ولا انقطاع، مصداقاً لقول الحق جل وعـلا: **﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّـهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْـهُ جَنَّـاتٍ تَجْـرِي مِـنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾**[التغـابن:٩]، وقوله تعـالى: **﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَـا لاَ يَبْغُـونَ عَنْهَـا حِـوَلاً﴾**[الكهـف:١٠٧-١٠٨]، ونحـو ذلـك مـن الآيـات القرآنيـة والأحاديث النبوية الشريفة التي لا سبيل إلى حصرها، والتي تدل دلالة واضحة على صدق وعد الله تعالى لعباده المؤمنين.

ويترتّب على الإيمان بصدق وعد الله تعالى مايلي:

١- **الإيمان بأن مصير المؤمن الذي يموت عـلى إيمانـه مؤدّيـاً للواجبـات، مجتنبـاً للمحرمات، تائباً عن المعاصي والسيئات، فإن مصيره الجنّة قطعاً**؛ إذا علم الله إخلاصه وصدق إيمانه، وأنه لا يمكن بأيّ حال من الأحـوال أن يُصـيِّره الله إلى النار ويدخله فيها؛ لأن ذلـك منـافٍ لعـدل الله وحكمتـه، والله تعـالى لا يصدر عنه إلا ما هو عدل وحكمة .

٢- **الإيمان بأن أهل الجنّة في الجنّة خالدون مخلّدون فيها أبداً، لا نهاية لمقامهم فيها ولا انقطاع**؛ مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ..﴾ إلى قوله: ﴿لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾[الحجر:٤٥-٤٨]، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ * ادْخُلُوا الجنّة أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ * يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾[الزخرف:٦٩-٧١]، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [النساء:١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّـهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّـهُ لَهُ رِزْقًا﴾[الطلاق:١١]، ونحو ذلك من الآيات.

٣- **الإيمان بأن الجنّة دار نعيم ليس فيها شيء من الأكدار والمنغّصات**؛ بدلالة الآيات المذكورة وغيرها، ومنها قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجنّة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [يونس:٢٦]، وقوله تعالى: ﴿فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[السجدة:١٧]، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا الحَمْدُ للَّـهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ [فاطر:٣٣-٣٥].

٤- **الإيمان بأن الجنّة دار أنبياء الله، وأوليائه المخلصين، وعباده المتقين، والشهداء من عباده والصالحين، وأنه لا مكان فيها لكافر، ولا لمشرك، ولا لمنافق، ولا لظالم، ولا لفاسق، ولا لفاجر**؛ مصداقاً لقول الحق جل وعلا: ﴿تِلْكَ الجنّة الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾[مريم:٦٣].

صدق الوعيـد

يجب على المسلم كذلك أن يؤمن بصدق وعيد الله عز وجل، وهو مـا توعّـد الله به المشركين، والكافرين، والمنافقين، والعصاة، والمعاندين، ومن في حكمهم؛ من العذاب في الآخرة .

ويترتّب على الإيمان بصدق الوعيد ما يلي:

١- **الإيمان بأنّ من مات مشركاً، أو كافراً، أو منافقاً، أو فاسقاً، أو فـاجراً، أو ظالمـاً، أو مصرًّـا عـلى كبـيرة مـن كبـائر المعـاصي، أو تاركـاً للواجبـات والفرائض التي افترضها الله على عباده، غير تائب عن شيء من ذلك؛ فـإن مصيره دخول النار والخلود فيها؛** مصداقاً لقول الحق تبـارك وتعـالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّـهِ وَالْمَلآئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَـنْهُمُ الْعَـذَابُ وَلاَ هُـمْ يُنظَـرُونَ**﴾[البقرة:١٦١-١٦٢]، وقوله تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّـهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِـدِينَ فِيهَـا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّـهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ**﴾[التوبة:٦٨]، وقوله تعـالى: ﴿**وَمَـن يَعْصِ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَـا وَلَـهُ عَـذَابٌ مُّهِـينٌ**﴾ [النساء:١٤]، وقوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّـهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُـونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّـهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِـكَ يَلْـقَ أَثَامًـا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا**﴾[الفرقان:٦٨-٦٩]، ونحو ذلك من الآيات والأحاديث التي لا مجال لذكرها ولا سبيل إلى حصرها.

٢- **الإيمان بأن أهل النار في النار خالدون مخلّدون فيها أبـداً لا نهايـة لمقـامهم**

فيها ولا انقطاع؛ يستوي في ذلك الكفّار ومن استحق النار من عصاة المسلمين وفُسّاقهم ومنافقيهم، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَعَدَ الله الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ**﴾[التوبة:٦٨]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ**﴾[الزخرف:٧٤-٧٥]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا**﴾[الجن:٢٣]، وقوله تعالى: ﴿**كَذَلِكَ يُرِيهِمْ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْ النَّارِ**﴾[البقرة:١٦٧]، وقوله تعالى: ﴿**يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنْ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ**﴾[المائدة:٣٧].

٣- **الإيمان بأن ذلك العذاب هو جزاء الله العادل في المشركين، والكافرين، والعصاة، والمجرمين، والظلمة، والمنافقين، ومن في حكمهم**؛ لأنهم ما استحقوا ذلك إلا لسوء فعلهم بعد أن بلغتهم الحجّة بإرسال الرسل وإنزال الكتب، مع ما وهبهم الله من العقل الذي يميّزون به بين الحق والباطل، والخير والشر، والهدى والضلال، ومنحهم حريّة الاختيار، فاختاروا الضلال على الهدى، وجحدوا آيات الله، وكذّبوا رسله، فكان دخولهم النار وخلودهم فيها هو جزاء الله العادل فيهم، مصداقاً لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿**إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ * وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمْ الظَّالِمِينَ**﴾[الزخرف:٧٤-٧٦]، وقوله تعالى: ﴿**وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾[آل عمران:١٨١-١٨٢]، وقوله تعالى: ﴿**وَمِنْ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ**

وَلاَ هُدًى وَلاَ كِتَابٍ مُنِيرٍ * ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّـهِ لَـهُ فِي الـدُّنْيَا خِـزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّـهَ لَـيْسَ بِظَـلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾[الحج:٨-١٠]، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْـدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [يونس:٥٢]، وقوله تعـالى: ﴿فَلَنُـذِيقَنَّ الَّـذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ * ذَلِكَ جَـزَاءُ أَعْـدَاءِ اللَّـهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت:٢٧-٢٨].

٤- **الإيمان بأنّ من كان من أهل النار لا يُصيِّره الله إلى الجنّة، ولا تناله من أحد شفاعة**؛ ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَـاعُ﴾ [غـافر:١٨]، وقوله تعالى: ﴿إِلاَّ أَصْحَابَ الْيَمِـينِ * فِي جَنَّـاتٍ يَتَسَـاءَلُونَ * عَـنْ الْمُجْرِمِينَ * مَا سَلَكَكُمْ فِي سَـقَرَ * قَـالُوا لَمْ نَـكُ مِـنَ الْمُصَـلِّينَ * وَلَمْ نَـكُ نُطْعِـمُ الْمِسْكِينَ * وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ * وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الـدِّينِ * حَتَّـى أَتَانَـا الْيَقِينُ * فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾[المدثر:٣٩-٤٨]، وقولـه تعـالى: ﴿وَاتَّقُـوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَـلُ مِنْهَـا شَـفَاعَةٌ﴾[البقـرة:٤٨]، وقولـه تعالى: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُـوهُ مِـنْ قَبْـلُ قَـدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّـذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾[الأعراف:٥٣].

الإيمان قول وعمل

جاءت الآيات القرآنية لتؤكّد أنّ الإيمان طريق إلى الجنّة، وأن من آمن بالله ووحّـده فقد استحق دخول الجنّة والخلود فيها، قال تعالى: ﴿وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّـهُ الْمُـؤْمِنِينَ أَجْـرًا

عَظِيمًا﴾[النساء:١٤٦]، وقال تعالى: ﴿**فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا**﴾[النساء:١٧٥]، وقال تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنْ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ**﴾[التوبة:٧٢].

فهذه الآيات ونحوها تدلّ دلالة واضحة على أنّ دخول الجنّة والخلود فيها مترتّب على الإيمان بالله وتوحيده، ومعنى ذلك أنّ عبادات الإنسان وأعماله الصالحة لا تكون مقبولة، ولا يترتب عليها جزاء إلاّ مع الإيمان، ولا يعني ذلك بأي حال أن الإيمان وحده كافٍ لدخول الجنّة والخلود فيها، ويدلّ على ذلك مايلي:

١- **أنّ غاية خلق الإنسان وسرّ وجوده ليس هو الإيمان فحسب، وإنما الإيمان المقرون بالعمل**، وهو العبادة والطاعة، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ**﴾[الذاريات:٥٦]، مما يعني أن الإيمان ما هو إلّا وسيلة لإصلاح النفس البشريّة وتهذيب سلوكها، لينتج عن ذلك تحقيق الهدف أو الغاية الذي من أجله خلق الإنسان؛ ألا وهو عبادة الله تعالى وطاعته وتنفيذ أمره.

٢- **أنّ دعوة الرسل جميعاً -وفي مقدّمتها رسالة الإسلام- لم تكن دعوة إلى مجرّد الإيمان فحسب**؛ وإنما كانت دعوة إلى طاعة الله تعالى وعبادته، بأداء ما افترضه، واجتناب ما نهى عنه، قال تعالى: ﴿**وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[الأنعام:٤٨].

٣- **أنّ العمل الصالح يرتبط بالإيمان ارتباطاً وثيقاً**؛ فما نكاد نجد في كتاب الله تعالى ذكراً للإيمان إلّا واقترن بعمل الصالحات أو اجتناب المحرمات، ولا

نكاد نجد ذكر الجزاء الحسن في الآخرة المبشّر بـالمغفرة، وبـالفوز والفـلاح، ودخول الجنّة، والأمان من أهوال يوم القيامة وعـذاب النـار وسـعيرها؛ إلّا مترتّباً على العمل الصالح المقرون بالإيمان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً﴾[الكهف:١٠٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الجنّة وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾[النساء:١٢٤]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التغابن:٩]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الجنّة خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[الأحقاف:١٣-١٤].

٤- **أنه قد ورد في كتاب الله تعالى وعلى لسان رسوله ﷺ الوعيد الشديد لأهل الكبائر وذوي المعاصي، ولم يشفع لهم استحقاقهم لوعيد الله تعالى أنهم مؤمنون موحّدون**؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا * وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ [النساء:٢٩-٣٠]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾[النساء:١٠]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[النساء:٩٣]، وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمْ الأَدْبَارَ*وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ

مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللَّـهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال:١٥-١٦].

ومن الأحاديث الواردة في ذلك قول الرسول ﷺ: «**مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ حَرَّمَ اللَّـهُ عَلَيْهِ الجنّة، وَأَوْجَبَ لَهُ النَّارَ**» قال رجل من القوم: يا رسول الله وإن كان شيئاً يسيراً؟ قال: «**وَإِنْ كَانَ سِوَاكًا مِنْ أَرَاكٍ**»، وفي رواية: «**وَإِنْ كَانَ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ**»[١] .

وقوله ﷺ: «**أربعٌ حقٌّ على اللَّـهِ أن لا يدخلَهم الجنّة ولا يُذِيقَهم نعيمَها: مُدْمِنُ خَمْرٍ، وَآكِلُ الرِّبَا، وَآكِلُ مالِ اليتيمِ بغيرِ حقٍّ، وَالعَاقُّ لِوَالِدَيْه**»[٢] .

ونحو ذلك من الآيات والأحاديث الدالّة على استحقاق أهل الفسوق والعصيان نار جهنم والخلود فيها، وهي في مجملها دالّة على العموم، ولم تفصّل بين كون مرتكب المعصية مؤمناً أو غير مؤمن، ولم يرد الاستثناء إلا لأهل التوبة، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّـهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّـهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا * يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا * إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّـهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّـهُ غَفُورًا رَحِيمًا**﴾[الفرقان:٦٨-٧٠].

ومن هنا ندرك أن العمل الصالح لا ينفك عن الإيمان فهما قرينان لا يغني أحدهما عن الآخر، فالعمل لا ينفع شيئاً بدون الإيمان، والإيمان لا يغني شيئاً

---

(١) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة وابن حبان عن أبي أمامة .

(٢) رواه الحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن أبي هريرة .

بدون العمل، قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾[الزلزلة:٧-٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَى * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَى﴾[النجم:٣٩-٤١]، وقال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ * وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[النمل:٨٩-٩٠].

وما ورد من الأحاديث النبوية التي يدل ظاهرها على خلاف ذلك كحديث: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**»، وحديث: «**من قال لا إله إلا الله دخل الجنة**» قيل: وإن زنا وإن سرق؟ قال: «**وإن زنا وإن سرق**»، ونحوها من الأحاديث فإنها لاتصحّ، لمخالفتها لصريح آيات القرآن الكريم، ومعارضتها للصحيح من الأحاديث النبوية الشريفة، والتي هي غير خافية على من له أدنى معرفة.

وعلى فرض صحّة مثل تلك الأحاديث –وهذا بعيد– فإن الحديث الأول مؤوّل بما يخصّ أهل التوبة، والمعنى أن أهل الكبائر من أمة محمد ﷺ إنما تقبل توبتهم وترفع درجتهم بشفاعة الرسول ﷺ لهم.

والحديث الثاني مؤوّل بما أشرنا إليه من أنّ الإيمان شرط أساس في قبول الأعمال والجزاء على الطاعات، وما مثَل الشهادتين في كونها سبب لقبول العمل ودخول المسلم الجنّة بها إلاّ مثل مفتاح السيّارة، فإنّ تشغيل السيّارة وتحريكها لا يتمّ إلاّ بمفتاحها، ولكن لا يتاتّى ذلك إلاّ إذا كانت السيارة سليمة من الأعطال، خالية من العيوب التي تمنع تشغيلها وتُوقف تحرّكها.

هذا وللشيخ محمد الغزالي–رحمه الله– بحث قيّم سطّره في كتابه (عقيدة المسلم) عن ارتباط الإيمان بالعمل وعلاقة كلٍّ منهما بالآخر، قال في آخره:

«ونحبّ أن ننبّه هنا إلى تلاعب طائفة من أدعياء العلم بالنصوص الواردة، وخبثهم في فصل العلاقة بين العمل وجزائه، والاحتيال على تحقير مظهر الخير في العمل الطيب، ومظهر الشر في العمل الفاسد، والحيلةُ التي يتوسّلون بها إلى ذلك إيهامُ الناس أن الجزاء مرتبط بالمشيئة العليا لا بعمل الإنسان، وأنّ الفسقة قد ينالهم العفو مهما ارتكبوا، وينشد شاعرهم:

وإنّي وإن أوْعدتُه أو وَعدتُه لَمُخْلفُ إيعادي ومُنجِزُ موعدي

وأنّه يجوز أن يدخل القانتون العابدون نار جهنم!! لأن الله لا يُسأل عما يفعل!! وهذا كلام يخالف الحقائق المقرّرة في دين الله، والغرض منه - كما أسلفنا- إسقاط قيم الأعمال، فلا يرهب أحد ذنباً، ولا يرجو مؤمن حسنة، وهذه الفلسفة الحقيرة أدّت عملها في إفساد الأمة، وتلويث المجتمع، وإهانة الدين وتعاليمه، والله سبحانه وتعالى يكذّب ذلك بأسلوب صريح، يقول الله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ**﴾[الجاثية:٢١]، ويقول جل وعلا: ﴿**أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ * كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ**﴾[ص:٢٨-٢٩]» [١].

(١) الشيخ محمد الغزالي، (عقيدة المسلم) ص٢٢٥.

التَّوبَة

شؤم المعصية

خلق الله تعالى الخلق وأوجدهم دون حاجة إليهم، وإنما خلقهم لحكمة أرادها، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾[الذاريات:٥٦].

وهو تعالى حين خلق الخلق لعبادته، وأمرهم بطاعته، ونهاهم عن معصيته؛ غني عنهم، لا تنفعه طاعة من أطاعه، ولا تضره معصية من عصاه، غير أنه تعالى فرض على الخلق طاعته، وحذّرهم من معصيته؛ إختباراً لهم وابتلاءً، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك:١-٢].

وما ذلك الاختبار والابتلاء إلاّ لمصلحة الناس أنفسهم، في حياتهم الدنيا ليصلح شأنهم وتستقيم حياتهم، وفي حياتهم الأخرى لينالوا ما عند الله من الثواب الجزيل والأجر العظيم الذي لا يساويه أجر ولا يعدل به جزاء، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءكُمُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَاْ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ﴾[يونس:١٠٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[فاطر:١٨].

ومن هنا ندرك أن معصية الله تعالى، ومخالفة أمره، والاستكبار عن عبادته وطاعته؛ هي في حقيقتها خسارة عظمى، وخسران ما بعده خسران، قال تعالى: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ* قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾[الزمر:١٤-١٥].

وما من شك أنّ معصية الله، ومخالفة أمره، والتعدّي على حدوده؛ هي ولا شك من أعظم الأسباب الموجبة لغضب الله تعالى ونقمته، ففي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «إِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَإِنَّ الْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ، لَا يَعْلَمُهُنَّ كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ، فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ، كَالرَّاعِي يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يَقَعَ فِيهِ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلَا وَإِنَّ حِمَى اللَّهِ مَحَارِمُهُ»[1].

فقد ضرب الرسول ﷺ في هذا الحديث مثلاً للمعاصي والمحرّمات بالحِمى المتعارف عليه بين الناس، فكما أن لكل ملك حمى يحميه من الناس، ويمنعهم من دخوله والاقتراب منه، ويعاقب من فعل ذلك، فلا يجرؤ أحد على الاقتراب منه رهبةً وخوفاً من العقوبة، فكذلك الحال فيما حرّم الله ونهى عنه، فإن حمى الله تعالى هي محارمه التي حرّمها الله على عباده ونهاهم عنها، وحذّرهم من اقترابها والوقوع فيها، وهي أولى بالبُعد عنها والتنزّه منها، وأجدر ألاّ يقربها الناس، لأنها تمثّل حمى الله، من دخله وارتكب شيئاً منها كان موضع غضب الله وعذابه، قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ

(١) رواه البخاري ومسلم عن النعمان بن بشير.

عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء:١٤]، وقال تعالى: **﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّـهِ فَلاَ تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّـهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾** [البقرة:٢٢٩].

فتعدّي حدود الله بارتكاب المعاصي والسيئات لهو الظلم الذي ما بعده ظلم، إنه ظلم النفس الذي يوردها الهلاك، ويوقعها في الخسران، ذلك لأن المعصية هي ولا شك من أعظم الأمراض وأخطرها على بني الإنسان، وذلك لما لها من أضرار ونتائج سيّئة على الفرد والمجتمع، فهي أساس كل بلاء، وسبب كل فتنة، ومفتاح كل شر، وإن الأمّة لا تصاب في أخلاقها، ولا في إقتصادها، ولا في شأن من شئونها؛ بمثل ما تصاب بذنوبها ومعاصيها، ولا تتوالى على الأفراد والمجتمعات الأزمات والمصائب والنكبات إلاّ بسبب الذنوب والمعاصي، قال تعالى: **﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾**[الروم:٤١].

وهل وقع في الأرض آفات مجحفة، وحروب مهلكة، وزلازل وفتن وشدائد عظيمة إلاّ كان سببها ارتكاب الجرائم، واقتراف السيئات، وارتكاب الذنوب والمعاصي؟قال تعالى: **﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَاهَا عَذَابًا نُّكْرًا * فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾**[الطلاق:٨-٩]، وقال تعالى: **﴿وَضَرَبَ اللَّـهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّـهِ فَأَذَاقَهَا اللَّـهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾**[النحل:١١٢].

وإذا كان هذا هو عاقبة المعصية ونتيجتها الحتميّة في الدنيا، فما أعدّ الله للعصاة والمجرمين في الآخرة لهو أشدّ وأعظم، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ [السجدة:٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾[الزخرف:٧٤-٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [النساء:١٤] .

لهذا كان من رحمة الله تعالى بعباده أن فتح للعصاة والمذنبين باب التوبة، ووعدهم بقبول توبة العاصين، وغفران ذنوب التائبين، قال تعالى: ﴿فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[المائدة:٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرْ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[النساء:١١٠]، وقال عزّ من قائل: ﴿قُلْ يَاعِبَادِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لاَ تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الزمر:٥٣].

وبالتوبة تتغيّر حال الإنسان، فيُوفَّق لفعل الحسنات بدلاً عن السيئات، ويمحو الله سيآت التائب بتوبته، ويكتب له مكانها صالحات أعماله وطاعاته، وهو ما أشار إليه رب العزة تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِلاَّ مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلاً صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[الفرقان:٧٠].

التوبة النصوح

امتنّ الله على عباده بأن فتح لهم باب التوبة وهداهم إليها، فقال تبارك وتعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا * يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٢٦-٢٨]، وحثّ رب العزة تبارك وتعالى عباده المؤمنين على التوبة والاستغفار في كل الظروف والأحوال، في الكثير من سور القرآن وآياته، قال تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[النور:٣١].

وإذا كان الله سبحانه قد خاطب بها نبيّه محمداً صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، وهو الذي غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر، فهي على غيره ألزم وأوجب، حيث يقول تعالى: ﴿وَاسْتَغْفِرْ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾[النساء:١٠٦]، ويقول تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالإِبْكَارِ﴾[غافر:٥٥]، ويقول جلّ وعلا: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾[محمد:١٩].

لذا فإنّ من الواجب على المؤمن التوبة إلى الله والاستغفار من الذنوب في سائر أوقاته على الدوام والاستمرار؛ لأن الإنسان لا يأمن الوقوع في الخطأ بقصد وبدون قصد، وفي الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «كُلُّ ابْنِ آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[١].

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة والحاكم والبيهقي عن أنس .

وقد دلّت الآيات التي سبق ذكرها ونحوها من الآيات أنّ من تاب إلى الله سبحانه فإنّ الله يقبل توبته، ويغفر ذنبه، ويكفّر عنه معاصيه وسيئاته التي فعلها وتاب منها، فيثيب التائب على توبته ثواباً جزيلاً، ويعطيه أجراً عظيماً.

غير أن التوبة التي يريدها الله عز وجل ويقبلها، والتي يستحق التائب عليها ذلك الأجر والثواب هي التوبة النصوح، قال تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾[التحريم:٨].

والتوبة النصوح هي التوبة الصادقة التي تكون مكتملة الأركان والشروط، وذلك على النحو التالي:

١- **أن تكون التوبة عقيب فعل المعصية والتلبّس بها**؛ لأنّ تأجيل التوبة والتسويف فيها يعد إصراراً على المعصية، والإصرار على المعصية معصية، قال تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[آل عمران:١٣٥]، لذلك فإن توبة المضطر حال النزع، و من علم من نفسه أنه سيموت لا محالة، كالتوبة حال غرق السفينة، أو سقوط الطائرة، أو احتراق بيت هو في داخله، أو نحو ذلك؛ فإنّها ولاشك توبة غير مقبولة، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُوْلَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا * وَلَيْسَتْ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمْ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلاَ الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُوْلَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا**﴾ [النساء:١٧-١٨].

٢- **أن يندم على فعله، ويتأسّف على خطيئته، ويتحسّر على ذنبه وتجرئـه عـلى عصيان الله ومخالفة أمره.**

٣- **أن يعقد العزم على مفارقة فعل المعاصي، والابتعاد عن ارتكاب السيئات بقية عمره**؛ لأنه إن نوى ترك المعاصي والابتعاد عنها مدّة شهر رمضان مثلاً، أو مدّة مرضه، أو مدّة بقائه في السجن، أو نحـو ذلـك، كـأن يـترك المعصـية بسبب فقره، أو عجزه عن فعلها، أو ينوي ترك بعض المعـاصي دون بعـض، أو نوى الانتقال من معصية إلى معصية، كأن يترك الربا ويأخـذ الرشـوة، أو يترك الخمر ويتناول المخدرات، ونحو ذلك، فإنه في جميـع هـذه الحـالات لا يسمى تائباً، ولا تقبل منه توبة.

٤- **أن يُكثر من الاستغفار، ويستزيد مـن العمـل الصـالح ومـن النوافـل والطاعات**؛ قال تعالى: ﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَـدَى**﴾ [طه:٨٢] وقال تعالى: ﴿**وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّـنَ اللَّيْـلِ إِنَّ الْحَسَـنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ**﴾[يونس:١١٤].

٥- **أن يُصلح ما أفسد بفعله للمعصية**؛ فإذا كان قد حارب الدين وصـدّ عـن الإسلام فيصلح ذلك بالجهاد في سبيل الله، والعمل على نشر الإسلام، ونحو ذلك، وإذا كان قد نشر دعايات مضـلّلة، أو أخبـار كاذبـة ضـد شـخص أو جماعة، مثل أن يشهد الزور، أو ينشر عبر الصحف والمجلات أخبـاراً كاذبـة تسيء إلى سمعة شخص أو جماعة، أو تلصق بهم تهمـة؛ فـإن مـن واجبـه أن يُكذِّب تلك الأخبـار، ويبـيّن خطأهـا، ويصـحح مفهومهـا، أو يـذهب إلى المحكمة للاعتراف بأن شهادته كانت شهادة كاذبة، أو نحو ذلك، يقـول الله

تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُوْلَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[البقرة:١٦٠]، وقال تعالى: ﴿إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[النور:٥]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة:٣٩].

٦- **أن يُرجِع الحقوق إلى أهلها، أو يستسمح منهم**؛ إذا كانت التوبة مما هو متعلّق بحقوق المخلوقين وأعراضهم؛ كالغيبة، والنميمة، والسرقة، والغصب، والأروش، والجنايات، ونحو ذلك، ولا فرق في ذلك بين أن يكون الحقّ لمسلم أو كافر ذمّي أو مشرك، فالتوبة من هذا النوع من المعاصي تكون بإرجاع كل حق إلى صاحبه، فإن كان صاحب الحق قد مات فليرجعه إلى ورثته، فإن كانوا قد انقرضوا، أو كان لا يعلم صاحباً لذلك المال أرجعه إلى بيت مال المسلمين.

وأما التوبة من الأروش والجنايات ومنها القتل فتكون بالاعتراف وتسليم النفس للقصاص إن كان عمداً[1]، أو تسليم الدية إن كان خطأً، مع صوم

(١) وقد ذهب ابن عباس ووافقه غير واحد من أهل العلم إلى أنه لا توبة لقاتل العمد لقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣]، ولما روي عن النبيﷺ أنه قال: «**لا يزال الرجل في فسحة من دينه ما لم يسفك دماً حراماً**» وقال ﷺ: «**من سفك دماً حراماً لقي الله ومكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله**»، وفي رواية: «**من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة لقي الله عز وجل مكتوب بين عينيه آيس من رحمة الله**»، ونحو ذلك من الأحاديث والأخبار.

ولعل السبب في عدم قبول توبة قاتل العمد هو أنّ في القتل ثلاثة حقوق: حقّ لله، وحقّ للمقتول، وحقّ لأولياء الدم، فحق أولياء الدم القصاص، أو أخذ الدية، أو العفو عن القصاص والدية، قال تعالى: ﴿وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا﴾[النساء:٩٢]، أي بالعفو، وأما الحقّ الذي لله تعالى فهو أن القاتل تعدّى حداً من حدود الله، وانتهك حرمة من الحرمات، وارتكب معصية من كبائر المعاصي، فلزمه لذلك التوبة والاستغفار بشروطها

شهرين متتابعين، وبتسليم أرش الجناية إن كانت الجناية دون القتل.

وقد جمع هذه الشروط الستّة المذكورة أمير المؤمنين عليه السلام، فيما روي عنه أنه سمع رجلاً يستغفر في حضرته، فقال عليه السلام: «ثَكِلَتْكَ أُمُّكَ!! أَتَدْرِي مَا الاِسْتِغْفَارُ؟ الاِسْتِغْفَارُ دَرَجَةُ الْعِلِّيِّينَ، وَهُوَ اسْمٌ وَاقِعٌ عَلَى سِتَّةِ مَعَانٍ: **أَوَّلُهَا**: النَّدَمُ عَلَى مَا مَضَى، **وَالثَّانِي**: الْعَزْمُ عَلَى تَرْكِ الْعَوْدِ إِلَيْهِ أَبَداً، **وَالثَّالِثُ**: أَنْ تُؤَدِّيَ إِلَى الْمَخْلُوقِينَ حُقُوقَهُمْ حَتَّى تَلْقَى اللَّهَ أَمْلَسَ لَيْسَ عَلَيْكَ تَبِعَةٌ، **وَالرَّابِعُ**: أَنْ تَعْمِدَ إِلَى كُلِّ فَرِيضَةٍ عَلَيْكَ ضَيَّعْتَهَا فَتُؤَدِّيَ حَقَّهَا، **وَالْخَامِسُ**: أَنْ تَعْمِدَ إِلَى اللَّحْمِ الَّذِي نَبَتَ عَلَى السُّحْتِ فَتُذِيبَهُ بِالْأَحْزَانِ حَتَّى تُلْصِقَ الْجِلْدَ بِالْعَظْمِ وَيَنْشَأَ بَيْنَهُمَا لَحْمٌ جَدِيدٌ، **وَالسَّادِسُ**: أَنْ تُذِيقَ الْجِسْمَ أَلَمَ الطَّاعَةِ كَمَا أَذَقْتَهُ حَلَاوَةَ الْمَعْصِيَةِ، فَعِنْدَ ذَلِكَ تَقُولُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ».

ويترتّب على قبول توبة التائب إذا توافرت فيها تلك الشروط أن يغفر الله تعالى للتائب ذنب المعصية -أو ذنوب المعاصي- التي تاب منها، ويكفّر الله عنه ما ترتّب عليها من السيّئات، ويكون في ذلك نجاته من دخول النار والخلود فيها، ومن عذاب الله الذي كان سيقع عليه لو لم يتب، إضافة إلى أن الله سبحانه وتعالى يجزي التائب أحسن الجزاء، ويؤجره أعظم الأجر، ويكون ذلك سبباً في استحقاقه شفاعة النبي صلى الله عليه وآله، ودخول الجنّة، وعلوّ منزلته فيها.

المذكورة، ولن يتأتّى له ذلك؛ لأنه لا قبول لتوبته إلا بأن يستسمح ممن وقع عليه الظلم وهو المقتول، ولمّا كان ذلك متعذّراً فالتوبة أيضاً متعذّرة، ولذلك توعّد الله القاتل بأغلظ العقوبات وأشدّها، والله تعالى أعلم.

اليوم الآخر

اليوم الموعود

اتفقت سائر الأديان والرسالات السماوية أن هناك حياة أخرى، وأنه سيأتي اليوم الذي ينتهي فيه هذا العالم، ويصير كل شيء في هذا الكون إلى الدمار والفناء، ولقد أكّد القرآن الكريم هذه الحقيقة في الكثير من الآيات التي لا سبيل إلى حصرها، يقول الله تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ * وَخَسَفَ الْقَمَرُ * وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ * يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ المَفَرُّ﴾[القيامة:٧-١٠]، ويقول تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ * وَإِذَا الجِبَالُ سُيِّرَتْ * وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ * وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ * وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ﴾ [التكوير:١-٧]، وقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ﴾ [الانفطار:١-٤].

فقد اشتملت هذه الآيات على الوصف الدقيق لأهوال يوم القيامة وشدائده، فأخبر سبحانه وتعالى أن السماء تتشقّق، وأنها تنفطر انفطاراً عظيماً، فيختل نظامها، وتتصادم كواكبها، وتتناثر الأجرام السماوية، وتنصهر جميع مجراتها حتى تصير كالنحاس المذاب، وأخبر أن الشمس تزول من مكانها، وتصطدم بغيرها من الكواكب، فتتحطّم، وتنطفئ، وينمحي ضوؤها، ويذهب نورها، وأنّ الجبال تندك فتصير تراباً، ثم تصير في الهواء هباءً منثوراً، وتصبح كالصوف المتناثر المتطاير لا وجود لها ولا أثر، وأن البحار تغيض وتستعر وتضطرم،

فتتفجر منها البراكين وتخرج منها النيران.

إلى غير ذلك من الأمور المهولة، والوقائع العظيمة التي تجعل الإنسان يفقد صوابه، ويطيش عقله لشدة الهول والفزع، فإذا هو مذعور مرعوب، هائم كالفراش، متخبط كالسكران، يبحث لنفسه عن ملجأ يلجأ إليه ووسيلة تمكنه من الفرار والنجاة.

ومما يدل على عظم يوم القيامة وشدة أهواله؛ أن الله سبحانه وتعالى أطلق على يوم القيامة أسماء كثيرة، ووصفه بأوصاف متعدّدة، ومن تلك الأسماء والأوصاف: الحاقّة، القارعة، الطامّة، الصاخّة، الغاشية، الواقعة، يوم الآزفة، يوم الوعيد، يوم الحسرة، يوم الحساب، يوم عسير، يوم عظيم، يوم يجعل الولدان شيباً، يوم تشخص فيه الأبصار، يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار.. الخ.

وكل تلك الأسماء والصفات تدل على أن هول يوم القيامة فوق كل وصف ووراء كل تشبيه؛ الأمر الذي يجعل الإنسان المؤمن مستعدًّا لمثل ذلك اليوم الذي لا نجاة فيه إلّا للمتقين، ولا أمان فيه إلا للمؤمنين الصادقين، قال تعالى: ﴿**وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ**﴾. إلى قوله: ﴿**مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ**﴾ [النمل:٨٧-٨٩]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾ [الأنبياء:١٠١-١٠٣]، نسأل الله تعالى أن يجعلنا منهم وفي زمرتهم، آمين اللهم آمين.

حتميّة البعث

تكرّر في كتاب الله ذكر الآخرة، واقترن الإيمان بالآخرة بالإيمان بالله تعالى في الكثير من الآيات القرآنيّة والأحاديث النبوية الشريفة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾[البقرة:١٧٧]، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[البقرة:٢٣٢]، وقوله: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾[النساء:٥٩].

ومن الأحاديث النبوية الشريفة قول الرسول ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُحْسِنْ إِلَى جَارِهِ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْلِيَصْمُتْ»[١]، وفي رواية: «مَن كانَ يُؤمِنُ باللَّهِ واليومِ الآخِرِ فلا يُؤذِ جَارَهُ ..» الحديث، وفي رواية: «مَن كَانَ يُؤمِنُ باللَّهِ واليومِ الآخِرِ فليَصِل رَحِمَه..» الحديث، إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث.

وإن دلّ ذلك على شيء فإنّما يدلّ على أهميّة الإيمان بالآخرة ومكانته بين سائر أركان الإيمان، باعتبار أنه ركن من أركان الإيمان لا يتمّ الإيمان إلّا به؛ ذلك لأنه إيمان بقدرة الله تعالى وحكمته وعدله ورحمته، وتصديق لله تعالى ورسله وكتبه، ولذلك نجد أن القرآن الكريم قد اعتنى بإثبات الآخرة، كما اعتنى بإثبات وجود الله ووحدانيّته.

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجة عن أبي هريرة .

وما من شك أن العقل الحكيم والفطرة السليمة لا تتعارض مع البعث والنشور، والحساب والجزاء؛ لأنّه من غير المعقول أن يكون وجود هذا الخلق عبثاً، وأن تكون حياة الإنسان التي لا تتجاوز بضع عشرات من السنين أن تكون هي نهاية المطاف، وأن يكون مصير الإنسان كمصير الدوابّ والأنعام، وغيرها من المخلوقات التي تفنى بموتها، وينتهي أمرها بموتها وفنائها.

" فإذا كان مصير الإنسان أن تأكله الدود في بطن الأرض فأيّ حكمة في خلقه؟ وأيّ عدل في وجوده؟ كيف يسيغ العقل أن ينْفَضَّ سوق هذه الحياة، وقد نهب فيها من نهب، وسرق فيها من سرق، وقتل فيها من قتل، وبغى فيها من بغى، وتجبر فيها من تجبّر، ولم يأخذ أحد من هؤلاء عقابه، بل تستّر وأفلت ونجا، أو تمكّن من إخضاع الناس له بسبب القهر والجبروت؟!.

وفي الجانب الآخر: كم أحسن قوم وضَحّوا وجاهدوا ولم ينالوا جزاء ما قدّموا، إمّا لأنّهم كانوا جنوداً مجهولين، أو لأنّ الحسد والحقد جعل الناس يتنكرون لهم بدل أن يعرفوا فضلهم، أو لأنّ الموت عاجلهم قبل أن ينعموا بثمرة ما عملوا من خير!! وكم من قوم دعوا إلى الحق، واستمسكوا به، ودافعوا عنه، فوقف الظالمون في طريقهم، وأُوذوا، وعُذّبوا، واُضطِهدوا، وشُرّدوا، وسقطوا صرعى في سبيله، وأعداؤهم الطغاة في أمن وعافية، بل في ترف ونعيم، ألا يسيغ العقل الذي يؤمن بعدالة الإله الواحد -بل يُغلِّب- أن توجد دار أخرى يُجزى فيها المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته؟!

هذا ما تنطق به الحكمة السارية في كل ذرّة في السماوات والأرض"[1]، لأنه إذا كان موت الناس ومصيرهم إلى العدم هو نهاية المطاف فلن يكون خلق الناس وحركتهم في الحياة إلّا من قبيل العبث، لا يقل ذلك شأناً عن المسرحيّة التي يتسلّى الجمهور بمشاهدتها بعض الوقت، وتنتهي بإسدال الستار وكأنّ شيئاً لم يكن!! وهذا يتعارض مع حكمة الخالق جلّ وعلا وعدالته المطلقة.

ومن أجل ذلك كان لا بدّ أن تكون هناك حياة أخرى بعد هذه الحياة، يجني فيها كل إنسان ما غرس، ويجد جزاء ما قدّم، قال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ النَّارِ * أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ**﴾[ص:٢٧-٢٨]، وقال تعالى: ﴿**وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ * مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ * إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [الدخان:٣٨-٤٠]، وقال جل وعلا: ﴿**أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**﴾[الجاثية:٢١-٢٢].

حقيقة البعث

إننا قد لا نتصور أن هذا العالم سيفنى وينتهي، ولكننا نلاحظ أن كل ما على الأرض من أحياء، وجمادات، وأشجار، وزروع، ونحوها؛ تموت وتفنى، في

(١) عن كتاب (الإيمان والحياة) للدكتور يوسف القرضاوي.

الوقت الذي نجد أن كل جديد يبلى، وكل حديث يتقادم، وكل خير يتناقص، وفي ذلك دليل على أن مصير هذا العالم هو الفناء لا محالة، لاسيّما مع وجود المخاطر الكثيرة التي تهدّد هذا الوجود بالدمار والانهيار.

ولقد أخبرنا القرآن الكريم أنه في الوقت الذي تحين فيه ساعة الصفر من عمر هذه الدنيا يأذن الله سبحانه وتعالى بقيام الساعة، فتحدث صيحة عظيمة تكون إيذاناً بانتهاء هذا العالم ودمار هذا الكون وخرابه، فيفنى كل شيء ويزول، وتتغيّر أحوال هذا العالم وتتبدّل، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ**﴾ [إبراهيم:٤٨]، ثم بعد ذلك يأذن الله عز وجل ببعث الموتى، وحشر الناس وماشاء الله من المخلوقات ونشرهم، فتحدث صيحة كالصيحة الأولى تكون إيذاناً بالبعث.

ويقصد بالبعث: إعادة الناس- أو ماشاء الله من المخلوقات- روحاً وجسداً كما كانوا في الدنيا، حيث يعيد رب العزة تبارك وتعالى أجساد الموتى على حالتها التي كانت قبل الموت، ثم تردّ الأرواح إلى أجسادها.

ويرى بعض أهل العلم أن الأرواح لا تعود إلى أجسادها التي كانت حالَّة فيها في الدنيا، وإنما يعيد الله الخلق على أشكال مختلفة اختلافاً كبيراً عما كانت عليه، وذلك حسب أعمالهم، فالذين صلحت عقائدهم وزكت نفوسهم يكونون أكمل أجساداً وأرواحاً، والذين خبثت أعمالهم وفسدت عقائدهم يكونون أنقص أجساداً وأرواحاً، ودليل ذلك ما رواه الترمذي عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلَاثَةَ أَصْنَافٍ: صِنْفٌ مُشَاةٌ، وَصِنْفٌ رُكْبَانٌ، وَصِنْفٌ عَلَى وُجُوهِهِمْ**»، قيل: يا رسول الله كيف يمشون على

وجوههم؟، قال: «**إِنَّ الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَرْجُلِهِمْ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ، أَمَا إِنَّهُمْ يَتَّقُونَ بِوُجُوهِهِمْ كُلَّ حَدَبٍ وَشَوْكٍ**»[1]، وما روي كذلك عن عن الرسول ﷺ أنه قال: «**يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ**»[2]، وفي رواية: «**يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ الجَبَّارُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُوَرِ الذَّرِّ يَطَؤُهُمُ النَّاسُ لِهَوَانِهِمْ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ**»[3].

وإنه مع صحة مثل هذه الروايات فقد يكون الأمر كذلك، إلاّ أنها -من وجهة نظرنا- تتعارض مع ما أخبر به القرآن الكريم من أن أعضاء الإنسان ستشهد عليه يوم القيامة، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ**﴾ [النور:٢٤].

وهذا يدل على أن الأرواح تعاد إلى أجسادها التي كانت حالّة فيها في الدنيا بعد أن يعيد الجسد كما كان في الدنيا، وأن يرد كل روح إلى جسدها الذي كانت فيه دون أن يحصل أي اختلاف بين الأرواح والأجساد؛ لأنّ ذلك الأمر متعلّق بقدرة الله تعالى، وهو القائل جل وعلا: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [يس:٨٢].

وأمّا الحديث الثاني وهو قول الرسول ﷺ: «**يُحْشَرُ المُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ**»، فيمكن حمله على المجاز وتأويله بما يكونون عليه

---

(١) رواه أحمد والترمذي عن أبي هريرة .

(٢) رواه أحمد والترمذي والنسائي عن عمرو بن شعيب عن أبيه .

(٣) رواه ابن أبي الدنيا في التواضع والخمول عن أبي هريرة .

من الحقارة والذل والمهانة، ومثله قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾[الإسراء:٩٧]، فالآية هنا واردة في وصف حال أهل النار من أنهم يوم القيامة يلقون من الذل والهوان والفزع والخوف ما يجعلهم يهيمون على وجوههم، ويفقدون صوابهم، فلا يستطيعون جواباً ولا يملكون حجة، قال تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾[الإسراء:٧٢]، والله تعالى أعلم.

دليل البعث

"لعل حجّة المنكرين للبعث في هذا العصر -وفي غيره من العصور- هي عين حجّة المنكرين في زمن نزول القرآن على عهد الرسول ﷺ، وخلاصتها أن الحياة بعد الموت أمر لا يقبله العقل والقياس، إذ كيف لنا أن نؤمن بأن الذين قد ماتوا وتحولوا إلى عظام ورفات، وبليت أجزاء أجسادهم أو تبعثرت في الفضاء والتراب والماء سيرزقون الحياة مرّة جديدة؟"[١].

وقد ردّ القرآن على هؤلاء المنكرين والجاحدين بما لم يبق معه مجال لردّه أو نكاره، فمرّة يأتي الاستدلال على إمكان البعث بالإشارة إلى مظاهر قدرة الله في الإنسان والحيوان والنبات، يقول تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنْ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ

(١) عن كتاب (الإسلام) لسعيد حوّى، نقلاً عن أبي الأعلى المودودي "بتصرف".

لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلاَ يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لاَ رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾[الحج:٥-٧].

ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلاَلَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٣-١٦]، ويقول تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى * أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى * ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى * فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالأُنثَى * أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾[القيامة:٣٦-٤٠].

ومرّة نجد القرآن الكريم يخاطب العقل، ويثير دفائن العقول، ويلفت نظر الإنسان إلى أن إعادته من جديد لن يكون أصعب من خلقه من العدم، فإن الذي بنى البناء وأقامه غير عاجز أن يهدمه ويعيده كما كان بل وأحسن مما كان.

وصانع الآلة لا يعجز عن إعادة تركيبها بعد تفكيك أجزائها قطعة قطعة، فكيف يمكن أن يقال إن الله عاجز عن إعادة خلق الإنسان وبعثه من جديد بعد موته وفنائه؟! يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ* قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت:١٩-٢٠]، ويقول تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي

يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[الروم:٢٧]، ويقول جل وعلا: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ * وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ* قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ * أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ * إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ * فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[يس:٧٧-٨٣].

ولقد ذكر الحق تبارك وتعالى في كتابه الكريم بعض الأمثلة الحيّة الدالّة على قدرة الله تعالى في إحياء الموتى وبعثهم، ومن ذلك ما حكاه القرآن من الأمثلة والشواهد الحيّة الدالّة على قدرة الله على بعث الخلق ونشرهم، ففي سورة البقرة وحدها ورد ذكر أربعة أمثلة:

المثال الأول: قصة بني إسرائيل حين طلبوا من موسى أن يخبرهم عمن قتل رجلاً منهم فأمرهم الله أن يذبحوا بقرة وأن يضربوا المقتول بجزء منها فعادت إليه الحياة وأخبرهم عن قاتله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[البقرة:٧٢-٧٣].

المثال الثاني: قصّة قوم من بني إسرائيل فرّوا من قريتهم بعد أن انتشر فيها الطاعون وقد مات الكثير من أهلها، ولمّا نظروا إلى من مات من أهلها تساءلوا في أنفسهم: هل يقدر الله على بعث أولئك الموتى؟! فأماتهم الله ثم

أحياهم، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُواْ ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ﴾[البقرة:٢٤٣].

المثال الثالث: هو قصّة عزير الذي أماته الله مائة عام ثم أحياه وأراه كيفية إحياء الموتى بإحياء حماره الذي صار رميماً، يقول الله تعالى:﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[البقرة:٢٥٩] .

المثال الرابع: هو قصّة نبي الله إبراهيم عليه وعلى نبينا وآلهما أفضل الصلاة والتسليم، حيث طلب من ربه تبارك وتعالى أن يريه آية دالّة على كيفيّة إحياء الموتى، فأمره رب العزة تبارك وتعالى أن يأخذ أربعة أنواع مختلفة من الطيور، ثم يذبحها جميعاً ويجعل أجزاءها مفرّقة في رؤوس الجبال، وأراه رب العزة تبارك وتعالى كيف تجمّعت أجزاء كل طير إلى بعضها حتى عاد كما كان بإذن الله، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنْ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[البقرة:٢٦٠].

ومن الأمثلة كذلك ما حكاه الله من قصّة أهل الكهف الذين آووا إلى الكهف وناموا فيه فما أيقظهم الله إلاّ بعد ثلاثمائة عام، وقد ختمت قصّتهم ببيان الهدف من سردها وإيرادها، فقال عزّ من قائل: ﴿**وَكَذَلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لاَ رَيْبَ فِيهَا**﴾[الكهف:٢١]، وفي نفس سورة الكهف ذكر القرآن مثلاً آخر على إحياء الموتى، وذلك بما حكاه الله تعالى من قصة موسى وحوته العجيب الذي كان يحمله معه في سلّته، وعند أن وصل إلى البحر ردّت إليه الروح ورجعت إليه الحياة، ﴿**وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا**﴾[الكهف:٦٣].

الصيحة والنفخ في الصور

ورد في القرآن الكريم ذكر الصيحة والنفخ في الصور بمعنى واحد، حيث أخبر الله سبحانه وتعالى أن الصيحة أو النفخ في الصور نفختان، أو صيحتان: نفخة -أو صيحة- تميت الخلق وتفنيهم، ونفخة -أو صيحة- تعيدهم وتحييهم، قال الله تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ**﴾[الزمر:٦٨]، وقال تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ * فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ * وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنْ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ * إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ**﴾[يس:٤٨-٥٣].

والذي يظهر من ذلك أن الصيحة هي نفسها النفخ في الصور، وذلك أنه ينفخ في الصور فيحدث صيحة شديدة مدويّة يصعق لها من في السماوات ومن في الأرض فلا يبقى على هذا الوجود شيء إلا الله تعالى ومن شاء من الملائكة، فإذا أذن الله ببعث الناس وحشرهم أمر تعالى الملك الموكّل بالنفخ في الصور، فينفخ فيه النفخة الثانية فتحدث صيحة تبعث الناس من قبورهم وتسوقهم إلى أرض المحشر، قال تعالى: ﴿**فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ * فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ**﴾ [النازعات:١٣-١٤]، أي أرض المحشر الواسعة، وهذا قول من أقوال أهل العلم ولعلّه الأقرب إلى الصواب.

وهناك من أهل العلم من قال بأن الصيحة غير النفخ في الصور، وهو أن النفخ الأول في الصور يكون لفناء ذوات الأرواح من الإنس والجن والملائكة وغيرهم إلّا من شاء الله، وتكون الصيحة بعدها لإفناء جميع المخلوقات بما في ذلك الأرض والشمس والقمر والكواكب والنجوم والمجرات ونحوها، والنفخ الثاني يكون لبعث الموتى وعودة الحياة للأجساد، ثم تكون الصيحة الثانية فتسوق الناس إلى أرض المحشر، قال تعالى: ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنْ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ * قَالُوا يَاوَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَانُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ * إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ**﴾[يس:٥١-٥٣].

وهناك قول ثالث وهو للإمام الهادي يحيى بن الحسين عليه السلام حيث فسّر النفخ في الصُّوْر بالنفخ في الصُّوَر والأبدان، مرّة لإفنائها، ومرّة لإعادة الحياة في الصور

والأبدان الممزّقة البالية[1]. والله تعالى أعلم.

حياة البرزخ

البرزخ هو الباب الأول بعد الموت الذي يدخل الإنسان منه إلى عالم الآخرة، وقد ثبت بالأدلّة الصحيحة ما يدل على أن الإنسان إذا جاءه أجله وفارقت الروح الجسد فلا تعود إليه إلّا بعد النفخ في الصور، غير أن من حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل الموت موتاً للجسد وليس للروح، ذلك لأن الجسد مخلوق من الطين، فهو من الطين وإلى الطين يعود، أما الروح فهي من الله وإلى الله تعود، فهي خالدة بخلود الله تعالى، قال تعالى: ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الرُّوحِ قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾[الإسراء:٨٥].

وما حالة الموت إلا حالة مفارقة الروح للجسد، لكنّها باقية بأمر الله تعالى، وقد ضرب الله مثلاً لذلك بحالة النوم، وسمّى الله سبحانه وتعالى النوم موتاً، فقال عز من قائل: ﴿**اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى**﴾[الزمر:٤٢]، وفي ذلك إشارة إلى أن النوم موت أصغر، أو بمعنى أصحّ صورة مصغّرة للموت.

والموت في الحقيقة ليس فناءً محضاً، بل هو انتقال من حياة إلى حياة، من حياة يتّحد فيها الروح والجسد، إلى حياة بالروح فقط دون الجسد.

وممّا يدل على ذلك أن الله سبحانه وتعالى أخبر عن الشهداء أنهم أحياء، يقول

(١) أنظر: مجموع الإمام الهادي يحيى بن الحسين، تحقيق الأستاذ العلامة/ عبد الله الشاذلي.

الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّـهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّـهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[آل عمران:١٦٩-١٧٠]، فقد أخبر تعالى عن الشهداء أنهم: أحياء - يرزقون - يفرحون بفضل الله - يستبشرون بمن قدم عليهم من إخوانهم ويبشّرونهم بفضل الله ورحمته.

وإذا كنّا نعلم بالضرورة أن أجساد الشهداء تفنى كما تفنى سائر الأجساد، بل إن من الشهداء من لم يدفن وإنما صار جسده طعاماً للهوام والسباع، أو أحرق حتى صار رماداً، أو تناثرت أشلاؤه واحترقت، فدلّ ذلك على أن الحياة التي أخبر عنها رب العزة تبارك هي حياة البرزخ.

وإذا صحّ ما روي عن رسول الله ﷺ أنه مرّ على قتلى بدر من المشركين فجعل يناديهم بأسمائهم ويقول: «**يَا أَبَا جَهْلِ بْنَ هِشَام، وَيَا شَيْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، وَيَا عُتْبَةُ بْنَ رَبِيعَةَ، وَيَا أُمَيَّةُ بْنَ خَلَفٍ، هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ فَإِنِّي وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِي رَبِّي حَقًّا**»، فقالوا: يا رسول الله؛ أوتنادي قوماً قد جيفوا؟! فقال: «**مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُمْ، وَلَكِنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يُجِيبُوا**»[(١)]، فإنّ في ذلك دليل صريح على أنّ حياة البرزخ لا تقتصر على الشهداء فحسب، وإنما هي عامّة في سائر الأموات من بني الإنسان.

فالرسول ﷺ هنا يخاطب الأموات من المشركين، ويخبر عنهم أنهم أحياء، وأنّهم يسمعون نداءه ويفهمون خطابه، غير أنهم لا يستطيعون الجواب، وكما

---

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائي وأبوداود عن أنس .

أخبر تعالى عن الشهداء أنهم ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ فإن الرسول ﷺ هنا سأل قتلى بدر من المشركين بقوله: «هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا؟»، وفي ذلك دليل أيضاً على أن حياة البرزخ هي أول مراحل الجزاء الأخروي.

عذاب القبر ونعيمه

دلّت بعض آيات القرآن الكريم أن جزاء الإنسان يبدأ من أول لحظة يرحل فيها إلى عالم الآخرة، يقول الله تعالى في شأن أهل الكفر والضلال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[الأنعام:٩٣]، ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾[الأنفال:٥٠].

وقد ورد في عذاب القبر ونعيمه روايات صحيحة تدل على حتميّة وقوع عذاب القبر ونعيمه، يستوي في ذلك من دفن في قبره مع من أكلته السباع، أو غرق في الماء، أو ابتلعه الحوت، أو أحرق جسده حتى صار رماداً، فذلك كلّه لا ينجي الإنسان من عذاب البرزخ، ولا يحرمه من نعيمه، ولكن لمّا كان الغالب على من مات من الناس هو دفنهم في القبور؛ فقد ارتبطت الأحاديث الواردة في هذا الشأن بالقبر، ومن ذلك قول الرسول ﷺ: «الْقَبْرُ رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الجنّة

أَوْ حُفْرَةٌ مِنْ حُفَرِ النَّارِ»[1].

وعن ابن عباس أن النبي ﷺ مرّ بقبرين فقال: «**إنهما لَيُعَذبانِ وما يُعَذّبانِ في كَبيرٍ؛ أمَّا أحَدُهما فَكانَ لا يَسْتَنْزِهُ مِنَ البَوْلِ، وأمَّا الآخَرُ فكانَ يَمْشِي بالنَّمِيمَةِ**»[2].

وعن زيد بن ثابت أنّ رسول الله ﷺ كان في حائط- أي بستان- لبني النجار، فإذا أقبُر ستة أو خمسة أو أربعة، فسأل عن أصحابها، فقيل له: ماتوا في الإشراك -أي في عصر الجاهلية- فقال: «**إنّ هذه الأُمَّةَ تُبْتَلَى في قُبُورِها، فلَوْلا أنْ لا تَدَافَنُوا لَدَعَوْتُ الله أن يُسْمِعَكمْ مِنْ عَذابِ القَبْرِ الّذِي أَسْمَعُ مِنْهُ**»[3].

وكان من دعائه ﷺ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ عَذَابِ النَّارِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَحْيَا وَالمَمَاتِ، وَمِنْ فِتْنَةِ المَسِيحِ الدَّجَّالِ**»[4].

وعلى العموم فالأحاديث الواردة في عذاب القبر هي في الغالب أحاديث صحيحة لا سبيل إلى ردّها أو إنكارها.

ومن ناحية ثانية فإنّه غير مستبعد عقلاً باعتباره مظهراً من مظاهر قدرة الله تعالى الذي لا يعجزه شيء، وإذا كنّا قد قلنا إن النوم صورة مصغّرة للموت،

---

(١) رواه الترمذي عن أبي سعيد الخدري، والطبراني عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن ابن عباس.

(٣) تمام الحديث: قال: ثم أقبل علينا بوجهه، فقال: «**تَعَوَّذُوا بالله مِنْ عذابِ النَّارِ**»، قالوا: نعوذ بالله من عذاب النار، قال: «**تَعَوَّذوا بالله مِنْ عَذابِ القَبْرِ**»، قالوا: نعوذ بالله من عذاب القبر. رواه أحمد ومسلم وابن حبان عن أبي سعيد.

(٤) رواه البخاري ومسلم والنسائي عن أبي هريرة.

فليس ببعيد أن تكون الرؤيا المناميّة صورة مصغّرة للحياة البرزخيّة، إذ أن الواحد منّا يرى في منامه ما يشبه حالة اليقظة، ويحصل للإنسان من الشعور بالخوف والألم واللذّة، والحزن والفرح، وغير ذلك، كما لو كان في اليقظة، مما يدل على أنه يحصل للروح من التلذّذ بالنعيم والفرح به، أو التألّم من المكروه والخوف منه؛ مثلما يحصل للجسد وربما أعظم.

وإذا كنّا قد أيقنّا بوقوع نعيم البرزخ للشهداء ونحوهم، فما المانع من وقوع عذاب البرزخ لأهل الظلم والبغي، ولأهل الكفر والجحود؟.

وإذا كان الله عز وجل قد حكى ذلك عن قوم فرعون لما كانوا عليه من الظلم والطغيان، فقال: ﴿**النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ**﴾[غافر:٤٦]، فما المانع من أن ينال غيرهم من أمثالهم ما نالوه، وقد علمنا أنّ هناك من غيرهم من هو أظلم منهم وأطغى؟!.

هذا علاوة على أنّ عذاب القبر محسوس مُشاهد، وقد تواترت الأخبار على سماعه ومشاهدته لمن أذن الله لهم في ذلك، من غير نكير عليهم ولا ردّ لرواياتهم، الأمر الذي يوجب الإيمان به، والتصديق بوقوعه، لا على أنه عذاب محسوس للجسد، ولكنه عذاب للروح دون الجسد، فهو يختلف عن عذاب الآخرة الذي هو عذاب للروح والجسد معاً.

وأمّا ماروي من الأحاديث في أن الروح تردّ للجسد في القبر، وعن سؤال منكر ونكير، ونحو ذلك، فإنها أحاديث واردة في باب الترغيب والترهيب، وهي على كل حال لا تخلو من الضعف، بل لا يكاد يصح من ذلك شيء، والله تعالى أعلم.

مواقف الآخرة

العرض

أخبر رب العزة تبارك وتعالى في كتابه الكريم أن أعمال الإنسان مسجّلة عليه في كتاب يُحصي كل دقيقة، ويحيط بكل صغيرة وكبيرة، قال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ كِتَابًا﴾[النبأ:٢٩]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾[الانفطار:١٠-١٢]، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ * إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنْ الْيَمِينِ وَعَنْ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٦-١٨].

وقد أخبر تعالى أن هذا الكتاب يعرض على الإنسان يوم أن يقف الإنسان بين يدي ربه في أرض المحشر، حيث يقف الإنسان في محكمة العدل الإلهي التي يكون الإنسان فيها هو المتهم، ورب العزة تبارك وتعالى هو الخصم والحكَم، والكرام الكاتبين من الملائكة هم الشهود، فيكون ذلك الكتاب هو عريضة الدعوى، وقائمة الاتّهامات التي يتعرف الإنسان من خلالها على جميع أعماله التي عملها في الدنيا، صغيرها وكبيرها، خيرها وشرّها، حسنها وسيّئها، حتى أن الإنسان ليرى من خلال ذلك الكتاب كل عمل من أعماله حاضراً أمام عينيه يشاهده ويراه، يقول الله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الجاثية:٢٨-٢٩].

ويقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[الإسراء:١٣-١٤]، ويقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران:٣٠] .

وقد أخبر القرآن الكريم أن الناس لن يكونوا على سواء في تلقِّي كتب الأعمال وصحائفها، وإنما هم فريقان: فريق تكون كتبهم مرقومة مختومة يظهر عليها البشارة بالفوز والفلاح، وهؤلاء هم أهل الإيمان والعمل الصالح من الأنبياء، والصدِّيقين، والشهداء، والصالحين، وهؤلاء لا حساب عليهم ولا عقاب .

وفريق آخر تكون كتبهم مرقومة مختومة يظهر عليها الشؤم، وتنذر صاحبها بالخسران والهلاك، وهؤلاء هم أهل الشرك والكفر والنفاق، والمتلبّسون بالظلم والطغيان، والفسوق والعصيان، ومن على شاكلتهم، قال الله تعالى: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلاَّ كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ * كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ * كِتَابٌ مَرْقُومٌ * يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾[المطففين:١٠-٢١].

ويقول تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَه * إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاَقٍ حِسَابِيَه * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ *

كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيه * وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيه * يَالَيْتَهَا كَانَتْ الْقَاضِيَةَ﴾[الحاقة:١٩-٢٧].

ويقول تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ * فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا * وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا * وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا * وَيَصْلَى سَعِيرًا﴾ [الانشقاق:٦-١٢].

ونفهم من جملة الآيات المذكورة أن الإنسان سيقف بين يدي الله تعالى للمساءلة والحساب، فتعرض عليه جميع أعماله، وتنكشف له كل أسراره، ويُخْبَر العبد في ذلك الموقف بما عمل من خير أو شر، وبما قدّم من الطاعات والحسنات، وبما اقترف من المعاصي والسيئات، يقول الله تعالى: ﴿يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ﴾ [القيامة:١٣]، ويقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء:١٣-١٤]، ويقول تعالى: ﴿وَقُلْ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]، ويقول تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمْ اللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[المجادلة:٦]، ويقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾[الزلزلة:٦-٨].

وهذه الآيات وغيرها تؤكّد بما لايدع مجالاً للشك أن الإنسان سيرى أعماله يوم القيامة ماثلة أمام عينيه في مشاهد حقيقية لا تختلف عن الواقع في شيء، بمعنى أن الإنسان سيرى من خلال ذلك الكتاب كل عمل من أعماله حاضراً

أمام عينيه يشاهده ويراه كما نشاهد اليوم الصور والأحداث في شاشات التلفاز، وأجهزة الكمبيوتر، وأجهزة الاتصالات المرئية، عبر شرائح صغيرة متناهية في الصغر، يقول الله تعالى: ﴿وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ * هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[الجاثية:٢٨-٢٩]، ويقول تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾[الإسراء:١٣-١٤].

وقد يكون ذلك هو المعنى المراد من الآيات التي أخبر فيها الحق تبارك وتعالى أن أعضاء الإنسان وجوارحه ستكون شاهدة عليه يوم القيامة، فتكون شهادتها بلسان الحال، وليس بلسان المقال، يقول الله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [يس:٦٥]، ويقول تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾[النور:٢٤].

ويقول تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلاَ أَبْصَارُكُمْ وَلاَ جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لاَ يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ﴾[فصلت:١٩-٢٣].

وعلى كلٍّ فليس هناك ما يمنع من أن تنطق الجلود والأيدي والأرجل وغيرها من الأعضاء وتتكلّم بلسان المقال؛ لأن أمر الآخرة لا يُقاس على أمر

الدنيا في شيء، وليس من الضروري أن يكون نطق تلك الأشياء بلغة تشبه نطق الإنسان وكلامه، إذ أن لكل مخلوق من مخلوقات الله لغته الخاصة به، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لاَ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[الإسراء:٤٤]، وقد روي في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُقَاتِلَ الْمُسْلِمُونَ الْيَهُودَ، حَتَّى يَخْتَبِئَ الْيَهُودِيُّ مِنْ وَرَاءِ الْحَجَرِ وَالشَّجَرِ فَيَقُولُ الْحَجَرُ وَالشَّجَرُ: يَا مُسْلِمُ هذَا يَهُودِيٌّ خَلْفِي تَعَالَ فَاقْتُلْهُ**»[1]، فإنه لا يعني ذلك بالطبع أن الحجر والشجر سيتكلم وينطق، وإنما قد يكون ذلك من باب إخبار النبي ﷺ بما سيوجد في آخر الزمان من اختراعات وأجهزة استكشاف وتنصُّت، بحيث يوضع هذا الجهاز على الشجر أو الحجر فيعطي الإشارة التي يفهم منها أن وراءها إنساناً أو نحوه. والله تعالى أعلم.

الميزان

خلق الله الإنسان في هذه الحياة وابتلاه بالتكليفات الشرعية التي أمر عباده بأدائها أو تركها واجتنابها حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، ويقول تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾[الملك:١-٢]، ويقول تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً﴾[الكهف:٧]، فاقتضى ذلك الابتلاء والتكليف أن يكون هناك حياة أخرى يتم فيها الجزاء على القيام بتلك التكاليف إن خيراً فخير وإن

---

(١) أخرجه مسلم وأحمد في مسنده عن أبي هريرة.

شراً فشر؛ لذلك اقتضت الحكمة الإلهية إحياء الخلق وبعثهم بعد الموت، ليجازي المحسن على إحسانه، والمسيء على إساءته .

ولكن لمّا كان ذلك الجزاء عظيماً، والحاكم عادلاً، فقد شاءت إرادة الله واقتضت مشيئته أن لا يجازي الإنسان على عمله -خيراً كان أو شرًّا- إلّا بعد أن يعرض على محكمة العدل الإلهي ليرى أعماله، ويقرّ بنفسه على أخطائه وسيئاته، يقول الله تعالى: ﴿**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**﴾ [الإسراء:١٣-١٤]، ويقول تعالى: ﴿**يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ * بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ * وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ**﴾[القيامة:١٣-١٥].

فإذا ما قرأ الإنسان كتابه، واستعرض صحيفته، وأحاط علمه بسيئاته وحسناته، عند ذلك تُقتَصّ المظالم، فيؤخذ من حسنات الظالم وتعطى للمظلوم تعويضاً له عن مظلمته، فإن لم يكن للظالم حسنات أخذ من سيئات المظلوم فأضيفت إلى سيئات الظالم، مصداقاً لما روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟**» قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع. قال: «**إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاَةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِى النَّارِ**»[1]، ويقول ﷺ: «**مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ مَظْلَمَةٌ لأَخِيهِ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ مَالِهِ؛ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَيْهِ، قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ لاَ يُقْبَلُ فِيهِ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ،**

(١) رواه مسلم والبيهقي وابن حبان عن أبي هريرة .

إنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ وَأُعْطِيَ صَاحِبُهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَتْ عَلَيْهِ»[1].

وبعد أن يحاسب الإنسان وتُقتصّ المظالم توزن الأعمال بميزان العدل الإلهي، فمن زادت حسناته على سيئاته كان من الناجين الفائزين برضاء الله رب العالمين، المستحقّين لدخول الجنّة والخلود في دار النعيم، ومن رجّحت سيئاته على حسناته كان من الهالكين الخاسرين المستحقّين لدخول النار والخلود فيها، إلاّ أن يتغمّده الله بفضل رحمته، يقول الله تعالى: ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:٨-٩]، ويقول تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلاَ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ * فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون:١٠١-١٠٣]، ويقول تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾[الأنبياء:٤٧].

ولقد تكرّر في القرآن الكريم ذكر هذا النوع من الوزن، وذلك بالمقارنة بين أهل النار وأهل الجنّة، في مواضع كثيرة من كتاب الله الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لاَ يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الجنّة أَصْحَابُ الجنّة هُمْ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر:٢٠]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنْ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ * هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾[آل عمران:١٦٢-١٦٣].

---

(١) رواه البخاري والترمذي وابن حبان عن أبي هريرة .

ويقول تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ * وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾[الجاثية:٢١-٢٢].

وهكذا نجد أن ميزان العدل الإلهي لا يظلم مثقال الذرّة، فإذا ما دخل أهل النار النار علموا أن دخولهم النار إنما كان عين العدل، حيث أن الله سبحانه وتعالى قد جعل الحسنة بعشر أمثالها والسيئة بسيئة واحدة، فإذا لم تكن حسنات الإنسان راجحة على سيئاته بعد أن تفضّل الله على العباد بهذا الفضل الكبير، فلا شكّ أن دخولهم النار عدل وحكمة، كما أن دخول أهل الإيمان الجنّة هو عين العدل والحكمة .

ولا يعني ذلك أن هناك ميزان على الحقيقة توضع عليه الأعمال وتوزن فيه، وإنما يُقصد بالميزان هنا الترجيح بين حسنات العبد وسيئاته، على نحو قول عمر رضي الله عنه: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم»، يعني بذلك: اعرضوا أعمالكم على عقولكم، فإن كانت حسناتكم أكثر من سيئاتكم فبها ونعمت، وإن كانت السيئات أكثر من الحسنات فشمّروا إلى الطاعات، وتوبوا إلى الله من المعاصي والسيئات، حتى لا تلقوا ربكم وأنتم على هذا الحال، فتوزن يوم العرض على الله بميزان العدل الإلهي، فتكون سبباً في الهلاك والخسران والعياذ بالله.

وقد يراد بالميزان في مثل قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ * فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ * فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة:٦-٩]، بما يكون عليه المؤمنون يوم القيامة من مكانة ورفعة، وما يكون عليه غيرهم من انحطاط وضِعَة، فهو تعبير عن مكانة كل إنسان يوم القيامة عند الله تعالى، وذلك أن أهل الطاعات يكون مقامهم عالياً وقدرهم رفيعاً، وأن أهل الكفر والمعاصي -ومعظمهم ممن كانوا في الدنيا من ذوي الجاه والسلطان- يكونون يوم القيامة حثالة لا وزن لهم ولا قيمة، فهم لا يساوون عند الله شيئاً، وإلى ذلك أشار النبي ﷺ بقوله: «**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ**»[1]، والله تعالى أعلم .

الحوض

الحوض هو -على ما يروى- نهر على باب الجنّة، أو أنه نهر من أنهارها يسقي منه النبي ﷺ المؤمنين من أمته، ومما روي في وصفه قوله ﷺ في الحديث الذي رواه أبو ذر قال: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ؛ لآنِيَتُهُ أَكْثَرُ مِنْ عَدَدِ نُجُومِ السَّمَاءِ وَكَوَاكِبِهَا فِي اللَّيْلَةِ الْمُظْلِمَةِ الْمُصْحِيَةِ، آنِيَةُ الجنّة، مَنْ شَرِبَ مِنْهَا لَمْ يَظْمَأْ، آخِرَ مَا عَلَيْهِ يَشْخُبُ فِيهِ مِيزَابَانِ مِنَ الجنّة، مَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ، عَرْضُهُ مِثْلُ طُولِهِ، مَا بَيْنَ عَمَّانَ إِلَى أَيْلَةَ، مَاؤُهُ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ**»[2] .

وعن أنس بن مالك قال: أغفى رسول الله ﷺ إغفاءة فرفع رأسه مبتسماً فقالوا له: يا رسول الله لم ضحكت؟! قال: «آية نزلت علي آنفاً»، وقرأ: ﴿**بِسمِ**

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي عن عمرو بن شعيب عن أبيه .

(٢) أخرجه أحمد ومسلم والترمذي وابن أبي شيبة عن أبي ذر .

اللَّـهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَـوْثَرَ﴾. . حتـى ختمهـا، ثـم قـال: «**هَـلْ تَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ ؟**»، قالوا: الله ورسوله أعلم!! قال: «**فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيـهِ رَبِّي عَـزَّ وَجَلَّ فِي الجنّة وَعَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ عَلَيْهِ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ آنِيَتُـهُ عَـدَدُ الْكَوَاكِبِ**»[1].

وعن ابن عمر أنه لما نزل قوله تعالى: ﴿**إِنَّـا أَعْطَيْنَـاكَ الْكَـوْثَرَ**﴾ قـال رسـول الله ﷺ : «**هو نَهْرٌ فِي الجَنَّةِ، حَافَتَاهُ مِنْ ذَهَبٍ، وَمجْرَاهُ عَلى الْيَاقُوتِ والـدُّرِّ، تُرْبَتُـهُ أَطْيَبُ مِنَ المِسْكِ، ماؤُهُ أحْلَى مِنَ العَسَلِ، وأَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ الثَّلْجِ**»[2].

وقد روي من الأحاديث غير ذلك، وذكر في بعضها ما يـدل عـلى أن الإمـام علياً عليه السلام هو الذي يسقي الناس من حوض الرسول ﷺ، وقـد جمـع العلامـة محمد بن علي الفرّان رحمـه الله الأحاديـث الـواردة في ذلـك في رسـالة أسـماها: (**النص الجلي في ساقي الحوض علي**)، وعزا بعض تلـك الأحاديـث إلى العلامـة محمد بن إسماعيل الأمير الصنعاني في شرحه للتحفة العلوية عند قوله:

ثُـمَّ قُـلْ مَـنْ يَسْـقِي الخَلْـقِ إذَا   وَرَدُوا فِي الحَشْـرِ حَـوْضـاً كَوْثَرِيَّـا

الصراط

أما الصراط فيروى أنه جسر ممدود على متن النار، أحـدُّ مـن السـيف، وأدقُّ من الشعرة.

---

(١) رواه أحمد، ومسلم، وأبو داود، والنسائي عن أنس .

(٢) رواه الترمذي، والدارمي في مسنده عن ابن عمر .

ولم يرد في القرآن الكريم ما يدل على صفة الصراط بهذا المعنى، سوى أنه قد وردت في ذلك روايات منسوبة إلى النبي ﷺ، ومن ما روي عنه ﷺ أنه قال: «**وَيُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ مِنَ الرَّسُلِ بِأُمَّتِهِ..**» الحديث[1].

وعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «**يُعْرَضُ النَّاسُ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ، وَعَلَيْهِ حَسَكٌ وَكَلالِيبُ، وَخَطَاطِيفُ تَخْطَفُ النَّاسَ، فَيَمُرُّ النَّاسُ مِثْلَ الْبَرْقِ، وَآخَرُونَ مِثْلَ الرِّيحِ، وَآخَرُونَ مِثْلَ الْفَرَسِ الْمُجِرَي وَآخَرُونَ يَسْعَوْنَ سَعْيًا، وَآخَرُونَ يَمْشُونَ مَشْيًا، وَآخَرُونَ يَحْبُونَ حَبْوًا، وَآخَرُونَ يَزْحَفُونَ زَحْفًا..**»[2].

وفي رواية من حديث طويل عن ابن مسعود، وفيه ذكر مرور المؤمنين على الصراط على قدر نورهم، قال: «**فَيَمُرُّونَ عَلَى قَدْرِ نُورِهِمْ، مِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَطَرْفَةِ الْعَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالْبَرْقِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالسَّحَابِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَالرِّيحِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الْفَرَسِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمُرُّ كَشَدِّ الرَّجُلِ، حَتَّى يَمُرَّ الَّذِي يُعْطَى نُورَهُ عَلَى ظَهْرِ قَدَمَيْهِ، يَجْثُو عَلَى وَجْهِهِ وَيَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، تَخِرُّ يَدٌ وَتَعْلَقُ يَدٌ، وَتَخِرُّ رِجْلٌ وَتَعْلَقُ رِجْلٌ، وَتُصِيبُ جَوَانِبَهُ النَّارُ...**» الحديث[3].

لعلّ هذه هي أهم المرويّات الواردة في صفة الصراط، وهي على كل حال تحتاج إلى بحث في سندها ومتنها، ونكاد نجزم بعدم صحّة هذه الأحاديث ونحوها[4]، وذلك لأنها من ناحية تدل على أن جسر الصراط ممدود بين ظهراني

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأحمد عن أبي هريرة وأبي سعيد .

(٢) رواه أحمد والنسائي وابن حبان عن أبي سعيد الخدري .

(٣) رواه الطبراني والحاكم وابن عدي عن عبدالله بن مسعود .

(٤) كتب الأخ العلامة أحمد بن محمد الوشلي تعليقاً على ما ورد في البحث، قال فيه ما لفظه: بالنسبة للصراط فقد صح به السمع وثبت فيه الأثر، ولا داعي للنظر بعد ثبوت الأثر عن النبي ﷺ، وأمير المؤمنين، وزين العابدين

جنهم -يعني بين طرفيها- التي هي في السعة والحجم كعرض السماء والأرض، على نحو ما أخبر به تعالى عن الجنّة في قوله تعالى: ﴿**سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ**﴾ [الحديد:٢١]، ولنا أن نتساءل ما الحكمة في أن يخلق الله تعالى جسراً على متن جهنم بهذه المسافة الرهيبة التي لا تعقل يكون أدقّ من الشعرة وأحدّ من السيف يمرّ عليه أهل الجنّة إلى الجنّة؟!

ومن ناحية أخرى فقد أشارت أحاديث الصراط إلى أنه لا يخطئه أحد حتى الأنبياء، وهذا يعني أن دخول الجنّة سيكون بشكل فردي يدخل إليها الأول فالأول، في حين أن الله سبحانه وتعالى قد أخبر عن أهل الجنّة أنهم يساقون إلى الجنّة زُمَراً أي جماعات متتابعة، وأنهم يُزفّون إلى الجنّة وتتلقاهم الملائكة بالحفاوة والترحاب، قال تعالى: ﴿**وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الجنّة زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ**﴾[الزمر:٧٣]، ويقول تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُوْلَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ * لاَ يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ * لاَ يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ**﴾[الأنبياء:١٠١-١٠٣] .

فقد أخبر رب العزة تبارك وتعالى في هذه الآيات أن أهل الجنّة من عباد الله المؤمنين يوم القيامة: مبعدون عن النار، لا يسمعون حسيسها (أي صوتها الخفي الناتج عن

وغيرهم من المعصومين المطهّرين، والصراط من الأمور الغيبية التي تعبّدنا الله تعالى بالتصديق بها، ولا تنافي بينها وبين ثوابت العقيدة واليقين، وقد قال تعالى: ﴿**والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا اولو الألباب**﴾، وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «**واعلم أن الراسخين في العلم الذين أغناهم الله عن اقتحام السدد المضروبة دونه الغيوب؛ الإقرار بجملة ما جهلوا تفسيره من الغيب المحجوب**» فسمى اعترافهم بالعجز عن ذلك رسوخاً، فالصراط من الأمور المتشابهة التي لا تقبل التأويل، كاللوح وغيره، وكفانا أن نقول آمنا بالله وبما ذكر الله تعالى في كتابه وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وآله. انتهى. **قلت**: ونحن نؤيّد ما قاله أستاذنا الجليل حفظه الله، وكلامنا ليس في الصراط وإنما في الأحاديث المرويّة فيه لما فيها من الإشكالات فيلاحظ ذلك. والله أعلم.

توقّدها)، لا يحزنهم الفزع الأكبر، تتلقّاهم الملائكة (يعني بالإكرام والترحيب).

ومجرّد مقارنة بين ما أشارت إليه الآيات من كتاب الله تعالى وبين ما هو مذكور في أحاديث الصراط؛ ندرك بوضوح التعارض والتناقض الذي يجعلنا نجزم أن أحاديث الصراط ضعيفة إن لم تكن موضوعة، إذ ليس في كتاب الله تعالى ما يؤيّد مثل تلك الأحاديث ويدعمها، سوى تعسّف بعض أهل العلم في تأويل بعض الآيات، كقوله تعالى: ﴿**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا**﴾ [مريم:٧١]، وقوله تعالى: ﴿**فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ**﴾[الصافات:٢٣]، وقوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنْ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ**﴾ [المؤمنون:٧٤].

والحقيقة أن هذه الآيات لا تدل بأي حال على ما دلّت عليه أحاديث الصراط، لأن قوله تعالى: ﴿**وَإِنْ مِنْكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا**﴾ ليس فيه ما يدل على معنى المرور عليها، وإنما المراد -والله أعلم- أنه ليس هناك أحد من أهل المحشر إلا ويرى النار ويشاهد أهوالها، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿**وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ**﴾[الفجر:٢٣]، لأن الورود على الشيء في لغة العرب يعني حضوره والاقتراب منه، ومنه قوله تعالى -في حكايته عن موسى عليه السلام : ﴿**وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ**﴾ [القصص:٢٣]، أي حضر إليه ووقف عنده.

وأمّا الآية الثانية وهي قوله تعالى: ﴿**فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ**﴾ [الصافات:٢٣]، فالمقصود بالصراط هنا الطريق، وصراط الجحيم طريق الضلال، ومثله قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنْ الصِّرَاطِ لَنَاكِبُونَ**﴾ [المؤمنون:٧٤]؛ أي منحرفون مائلون عن طريق الهداية وطريق الحق.

فالصراط في جميع الآيات القرآنية إنما يقصد به الطريق؛ إمّا طريق الضلال كما

في الآية المذكورة، أو طريق الهداية؛ في مثل قوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ**﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّـهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَـذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ**﴾[مريم:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿**اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ**﴾ [الفاتحة:٦-٧].

وهكذا فإن من يتتبّع الآيات الواردة في ذكر الصراط؛ يجد أن الصراط لايقصد به في آيات القرآن إلاّ أمر معنوي يُعبَّر به عن الهداية واتباع الحق، فإن المتبع لمنهج الله المتمسّك بشريعته كالماشي في طريق مستقيم واضح، لا يخشى ميلاً ولا ضياعاً، بعكس أولئك الذين تتجاذبهم الأهواء والأفكار المنحرفة والمذاهب الضالّة، فإنهم في حقيقة أمرهم كمن يتنكّب الطريق، فيمشي مرّة هنا، ومرّة هنا، حتى يتيه ويضل رشده، فلا يأمن أن تزل قدمه في حفرة، أو يقع في هاوية، وقد بيّن النبي ﷺ ذلك لأصحابه في بيان عملي فيما رواه ابن مسعود وغيره، قال: خطّ رسول الله ﷺ خطاًّ مستقيماً، وخطّ يميناً وشمالاً، وقال: «**هَذَا سَبِيلُ اللَّـهِ، وَهَذِهِ سُبُلٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ**»[1].

ووصف الصراط أنه أدقُّ من الشعرة وأحدُّ من السيف، وأن حوله حسك، وكلاليب، وخطاطيف تخطف الناس يميناً وشمالاً؛ فيه وصف لما يكون عليه طريق الحق، على نحو قول النبي ﷺ: «**حُفَّتِ الجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ**»[2]، ولولا أنه كذلك لما كان أهل الحق قلّة وأهل الباطل كثرة في سائر سائر الأزمنة والعصور، والله تعالى أعلم.

---

(١) رواه أحمد والنسائي والحاكم وابن حبان وابن ماجة عن عبدالله بن مسعود.

(٢) رواه وأبو داود والترمذي عن أنس. وأحمد ومسلم وابن حبان عن أبي هريرة.

الشفاعة

وردت في الشفاعة أحاديث كثيرة تدلّ على ثبوتها للنبي ﷺ، وهي على معنى طلب عفو الله تعالى عمّن قَصُرـ به عمله لا من أثقلته أوزاره، حيث يقول الرسول ﷺ: «**أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ وَلَا فَخْرَ...**»الحديث[1].

وقوله ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ يَدْعُوهَا، فَأُرِيدُ أَنْ أَخْتَبِئَ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2]، وغير ذلك من الأحاديث.

وذكر جملة من المفسرين أنّ المراد بقوله تعالى: ﴿**عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا**﴾[الإسراء:٧٩]، أنه مقام الشفاعة.

وقد ورد في بعض الأحاديث أن الشفاعة قد تكون لغير النبي ﷺ، ومن ذلك قوله ﷺ: «**يَشْفَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلاثَةٌ : الأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْعُلَمَاءُ، ثُمَّ الشُّهَدَاءُ**»[3]، وقوله ﷺ: «**يُشَفَّعُ الشَّهِيدُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِهِ**»[4].

والشفاعة إنما تعني سؤال الخير للمشفوع له، فهي نوع من أنواع الدعاء المستجاب، ولا تعني بأي حال من الأحوال إسقاط العذاب عن أحد من العصاة والمجرمين، وإلا

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة عن أبي سعيد الخدري .

(٢) رواه أحمد والبخاري ومسلم عن أبي هريرة .

(٣) رواه ابن ماجة عن عثمان بن عفان .

(٤) رواه أبوداود والبيهقي عن أبي الدرداء .

كان ذلك إخلالاً بميزان العدل، فهي كرامة يعطيها الله سبحانه وتعالى لرسله، أو لملائكته، أو لأي أحد من الناس لعلو شأنهم ورفعة مكانتهم .

وإنما تكون الشفاعة للمؤمنين دون غيرهم من الفسّاق والمجرمين، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلاَ يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ﴾[الأنبياء:٢٨]، وقوله تعالى: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾[غافر:١٨]، وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لاَ تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ﴾ [البقرة:٤٨]، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾[الزمر:١٩]، ونحو ذلك من الآيات.

وفي الشفاعة للمؤمنين زيادة تشريف لهم، ورفع لدرجتهم في الجنّة، وحطّ لبعض خطاياهم التي كانت سبباً في إحباط ثواب طاعاتهم، وقد تكون لمن استوت حسناته وسيئاته، فيدخله الله الجنّة بفضل الشفاعة ممن كانت.

ومما يدل على وقوع الشفاعة ما ورد في فضائل بعض الأعمال أنها تكون سبباً في استحقاق فاعلها الشفاعة، ومن ذلك قراءة القرآن، والصلاة على رسول الله ﷺ، والدعاء له بالوسيلة بعد كل أذان؛ حيث يقول النبي ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلاَةِ الْقَائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوَسِيلَةَ وَالْفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ الَّذِي وَعَدْتَهُ إِنَّكَ لاَ تُخْلِفُ الْمِيعَادَ؛ إِلاَّ حَلَّتْ لَهُ شَفَاعَتِي»[(١)].

ومن ذلك: حسن الخلق، وقول الصدق، والتواضع، وأداء الأمانة، حيث

---

(١) رواه ابن حبان والبيهقي عن عبدالله بن عمرو، وأخرجه أحمد والبخاري عن جابر .

يقول ﷺ: «**إِنَّ أَقْـرَبَكُمْ مِنِّـي غَـداً وَأَوْجَـبَكُمْ عَـلَيَّ شَـفَاعَةً؛ أَصْـدَقُكُمْ لِسَـاناً، وَأَحْسَنُكُمْ خُلُقاً، وَأَدَّاكُمْ لِلأَمَانَةِ، وَأَقْرَبُكُمْ مِنْ النَّاسِ**»[1].

ولعلّ ما أخبر به الرسول ﷺ من شفاعة العلماء والشهداء لأهلهم أو لجيرانهم؛ إنما هو لما يكون للأهل والجيران من دور في ذلك.

فأما العالم فإنه لولا تشجيع أهله وجيرانه له، وإنفاقهم عليه، ووقوفهم إلى جانبه؛ لما كان عالماً، فاستحقوا بذلك أن ينالوا شفاعة العالم إذا ما أذن الله له بالشفاعة.

وكذلك الشهيد؛ فإن الشهيد لا ينال الشهادة إلّا لما يجد من أهله وجيرانه وأصدقائه من تشجيع له على خوض المعركة، وتدريبه على القتال، وصبرهم على فقده، وإعانتهم لأهله، ورعايتهم لأولاده، ونحو ذلك من الأمور التي تكون سبباً في استحقاقهم لشفاعته، فإذا ما أذن الله للشهيد بالشفاعة شفع لهم جزاء ما قدّموا له من خير وتعاون حتى نال الشهادة.

وبالتالي فإنّ شفاعة العالم أو الشهيد أو غيرهما لمن يشفع لهم، إنما هو جزاء عملهم وليس تفضُّلاً منه عليهم، والله تعالى أعلم.

وأمّا حديث: «**شَفَاعَتِي لأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي**» فهو أوهى من بيت العنكبوت في الاحتجاج به، لمخالفته لنصوص القرآن الكريم القاطعة بنفي الشفاعة عن العصاة والفساق، على نحو ما سبق ذكره في صدق الوعيد.

"وعلى فرض صحّة نسبة الحديث إلى رسول الله ﷺ؛ فيمكن حمله على ثبوت الشفاعة لهم بعد التوبة، وفائدة ذلك أنّ فعل الكبيرة قد أحبط ما كان لهم

---

(١) رواه الإمام زيد وأبو طالب في أماليه عن علي عليه السلام.

من ثواب قبل التوبة، فلا يكون لهم إلاّ ثـواب التوبـة ومـا يعقبهـا مـن العمـل، فيشفع لهم النبي ﷺ حتى يقارب ثوابهم ثواب أهل الطاعة.

وإنّما خصّهم بالذكر في الحديث؛ لأنه قد يتوهّم أنه لا حظّ لهم في الشفاعة؛ لأن فيها نوع تعظيم للمشفوع له، وينال بها درجات عالية ومنـافع كبـيرة، وهـم لا يسـتحقون التعظيم، ولا تلك الدرجات والمنافع؛ لوقوع المعصية منهم، وإن كانوا قد تابوا، فـدفع هذا الوهم ببيان أنهم قد صاروا بعد التوبة كغيرهم من المؤمنين في أهلّيّتهم للشفاعة لهم، وتعظيمهم بها، ونيل المراتب الزائدة بسببها "[1] .

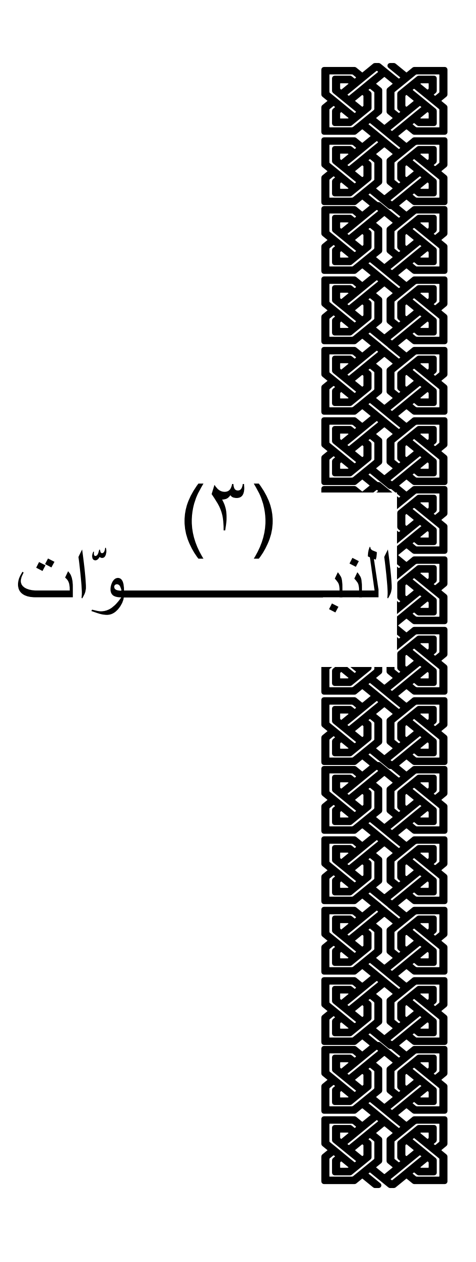
وبالمناسبة فلعلّ فكرة الخروج من النار والشفاعة لأهل الكبائر مـن العصـاة والفسّاق هي في أصلها من انتحال أهل الكتاب، لما يعتقـدون مـن اسـتحقاقهم لها، بدليل قوله تعالى: ﴿**وَقَالُواْ لَـن تَمَسَّـنَا النَّـارُ إِلاَّ أَيَّامـاً مَّعْـدُودَةً**﴾[البقرة:٨٠]، وكانت نتيجة تظاهر بعض أحبار أهل الكتاب بالإسلام سبباً في بث هذه العقائد في نفوس المسلمين، فرويت فيها الأخبار والروايات وتناقلتها الأجيال جيلاً بعد جيل حتى صارت جزءاً من عقيدة المسلمين وثقافتهم.

ومن ذلك مـاروي عـن النبـي ﷺ أنـه قـال: «**كُـلُّ نَبِـيٍّ قَـدْ أُعْطِـيَ عَطِيَّـةً وَيُنْجِزُهَا، وَإِنِّي خَبَّأْتُ عَطِيَّتِي شَفَاعَةً لأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَوُضِعَتِ المَوَازِينُ وَأُذِنَ فِي الشَّفَاعَةِ، فَأُعْطِيَ كُلُّ مَلَكٍ، أَوْ نَبِيٌّ، أَوْ صِدِّيقٌ، أَوْ شَهِيدٌ شَفَاعَتَهُ حَتَّى يَرْضَى، فَقَالَ لَهُمْ رَبُّهُمْ: أَقَدْ رَضِيتُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ قَدْ رَضِينَا رَبَّنَا، قَالَ: أَنَـا أَرْحَـمُ بِخَلْقِـي مِنْكُمْ: أَخْرِجُوا مِنْ النَّار مَنْ كَانَ فِي قَلْبه مِثْقَال ذَرَّة مِنْ إِيمَان، فَـأُخْرِجَ مِـنْ ذَلِـكَ**

(١) عن كتاب (الفتاوى) للعلامة الحجة علي بن محمد العجري رحمه الله "بتصرف يسير" .

شَيء لاَ يَعْلَمُ بِعَدَدِهِ إِلاَّ اللَّـهُ»، وفي رواية: «**أَخْرِجُوا مِنْ النَّارِ مَـنْ قَـالَ لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّـهُ، مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الخَـيْرِ مَـا يَـزِنُ بُرَّةً، مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الخَيْرِ مَا يَزِنُ ذَرَّةً** »، وفي رواية: «**يَقُولُ اللَّــهُ عَـزَّ وَجَـلَّ: أَخْرِجُوا مِنَ النَّارِ مَنْ ذَكَرَنِي، أَوْ خَافَنِي فِي مَقَامٍ**».

وروى ابن مردويه عن عبد الرحمن بن ميمون أن كعب الأحبار دخل يوماً على عمر بن الخطاب -يعني في خلافته- فقال له عمر: حدّثني إلى ما تنتهي شفاعة محمدﷺ يوم القيامة؟ فقال كعب: قد أخبرك الله في القرآن، إن الله يقول: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ﴾، إلى قوله: ﴿اليَقِينُ﴾، قال كعب: فيشفع يومئذ حتى تبلغ من لم يُصلِّ صلاة قط!! ولم يؤمن ببعث قط!! فإذا بلغت هؤلاء لم يبلغ أحداً فيه خير!!



(٣)
النبـــــــــوّات

الرسُل والرسَالات

المهمّة الصعبة

النبوّة هي ولا شك منحة من الله تعالى، يختصّ بها من يختاره من خلقه، ويتفضّل بها على من يصطفيه من عباده ليقوم بهذه المهمّة، حيث يتولّى الله حفظه، ويشمله برعايته منذ مولده إلى وفاته.

ويدلّ على ذلك ما حكاه رب العزة تبارك وتعالى من قصّة نبي الله موسى عليه السلام ،كيف أنّ الله تعالى حفظه من أن يناله سوء من فرعون وجنوده، وكيف أنّ الله سبحانه وتعالى غرس في قلب فرعون محبّته، فنشأ في بيته، وارتعى في كنفه، ثم إنه بعد ذلك وقد نشأ في بيت فرعون بين أهل فرعون وعشيرته، وعند غلمانه وجواريه، كيف أحاطته عناية الله فنشأ على الطهر والعفاف، وعلى التقوى والفضيلة، حتى جاءه الوحي، وأُمر بتبليغ الرسالة، ثم كان ما كان من حفظ الله تعالى له ورعايته حتى أكمل رسالته، ولحق بربّه، ومثل ذلك ما حصل ليوسف عليه السلام كما هو معروف من قصّته، وما حصل للنبي ﷺ على نحو ما هو مشهور من سيرته.

وما من شك أن مهمّة النبوّة هي من أصعب المهمّات على الإطلاق، وذلك لما يكتنف هذه المهمّة من أعمال ووظائف شاقّة يمكن تلخيصها فيما يلي:

١- تلقّي الوحي والعلم عن الله تعالى.

٢- تبليغ رسالات الله وشريعته التي تلقّاها بالوحي إلى الناس.

٣- تبيين ما أبهم من كتب الله المنزّلة عليهم، وأوامره الموجّهه إليهم.

٤- تنفيذ أوامر الله تعالى وأحكامه، وتطبيقها بدقّة على أنفسهم وعلى غيرهم، ليكونوا قدوة لغيرهم.

٥- مناقشة من أرسلوا إليهم، ومجادلتهم بالحجّة، لإقناعهم وإبطال شبههم ودعاواهم.

٦- تربية أتباعهم تربية ربّانيّة، وإعدادهم لتحمّل الأمانة، وإيصالها إلى غيرهم، وتوريثها للأجيال التي بعدهم.

وكل تلك المهام والوظائف يشترك فيها النبي والرسول، إذ لا فرق في ذلك بين النبي والرسول، باعتبار أن الله تعالى ما بعث الأنبياء وأرسل الرسل إلاّ لتبليغ وحيه، وإقامة دينه، وإنّما يتميّز الرسول عن النبي في أن الرسول يبعث بشريعة جديدة، في حين أنّ النبي إنّما يبلّغ شريعة من قبله -أو من كان في زمنه- من الرسل، لذا فكلُّ رسول نبيّ، وليس كلُّ نبيٍّ رسولاً .

ولذا فالرسول ولا شك أرفع منزلة من النبي، وبعض الرسل أفضل من بعض، كما أن بعض الأنبياء أفضل من بعض، قال تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ**﴾[البقرة: ٢٥٣]، وأفضل الرسل هم أولو العزم، لقوله تعالى: ﴿**فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ**

الرُّسُلِ﴾[الأحقاف:٣٥]، وأولو العزم من الرسل خمسة، أفضلهم مكانـة، وأعلاهـم منزلة؛ هو سيّد الخلق محمد بن عبـدالله ﷺ، ثـم إبـراهيم، وموسـى، وعيسـى، ونوح، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وسُمُّوا أولو العزم لما هو مشهور من شدّة عزيمتهم، وقوّة صبرهم على أذى قومهم، وكثرة تحمّلهم المشاق والمتاعـب في سبيل تبليغ الرسالة أكثـر مـن غـيرهم، وقـد يكـون ذلـك اصـطفاء مـن الله واختيار، قال تعالى: **﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّـهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾**[الروم:٦٨] .

الحكمة من إرسال الرسل

لم يكن ربّ العزة تبارك وتعالى ليخلق الإنسان على هذا الخلق العجيب، ويركّب فيه أدوات العلم والإدراك؛ وهي: السمع والبصروالعقل، ثـم يتركـه يهـيم عـلى وجهـه، ويتخبّط في الظلمات على غير هـدى ولا بصـيرة، لا يـدري مـن أيـن جـاء، ولا أيـن سيذهب، ولا ما هي الغاية من خلقه، ولا الهدف من وجوده.

وإنّه لمّا كان خلق الإنسان لهدف أسمى وغاية عظمى هي عبادة الخالق جـل وعلا واتّباع أمره، ثم مرجع الإنسـان إلى الله وإعـادة خلقـه بعـد موتـه وفنائـه، ومجازاته على أعماله، إن خيراً فخير وإن شرًّا فشرّ، لذلك اقتضت الحكمة الإلهيّـة والمشيئة الربانيّة أن يرسل الله إلى خلقه رسلاً يكونون واسطة بينـه وبـين خلقـه، يبلّغون أوامره ونواهيه، ويرشدون الناس إلى ما ينفعهم وما يضرّـهم في دنيـاهم وآخرتهم، وينشرون فيهم الخير والسعادة، ويبشّرونهم بالفوز والفلاح في دنياهم

وآخرتهم؛ إذا اتبعوا هدى الله وأطاعوا أمره، وينذرونهم بالعقاب في الدنيا، والعذاب في الآخرة؛ إذا أعرضوا عن أوامر الله، واتّبعوا أهواءهم، وانقادوا لشهواتهم، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾[الأنعام:٤٨-٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلاً لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا * رُّسُلاً مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾[النساء:١٦٤-١٦٥].

ولأن الإنسان لا يهتدي إلى كلّ ذلك بواسطة العقل ولا الحواس، ولا بما وهبه الله من ملكات وقوى مختلفة؛ كان من الضروري إرسال الرسل، وهداية الناس بطريق الوحي، لتصحيح خطأ العقول، ونفي وهْم الحواس، بعد أن غرق الإنسان في الفلسفات والاعتقادات الباطلة التي جعلت الإنسان يتيه في غياهب الحيرة والضلال، حتى صار يعبد النجوم والأفلاك، ويقدّس النار والأحجار، وينقاد لوسوسة الشيطان، وأهواء النفس وشهواتها، ويجعل من صاحب القوّة والمُلك، وذوي المال والسلطة؛ إلهاً تخضع له رقاب العباد، وتستسلم لأمره وتنقاد.

فهدى الله عباده بوحيه ورسالاته إلى ما فيه سعادتهم في دنياهم وآخرتهم، وأخرجهم بفضله من عبادة المخلوقات إلى عبادة رب الأرض والسماوات، ومن عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، فكانت رسالات الأنبياء وما جاءوا به من وحي وشرع من أجَلّ نعم الله على عباده، ومن أعظم مننه على خلقه، قال تعالى: ﴿كَانَ

النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّـهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمْ الكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيـهِ إِلاَّ الَّـذِينَ أُوتُـوهُ مِـنْ بَعْـدِ مَـا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِـنْ الْحَـقِّ بِإِذْنِـهِ وَاللَّـهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة:٢١٣]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّـهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمْ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران:١٦٤].

ولقد اقتضت سنّة الله أن يرسل إلى كلّ أمة رسولاً منهم؛ فجعـل الرسـل إلى الناس بشراً مثلهم ﴿يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الأَسْوَاقِ﴾، ولم يجعل الله الرسل من غير البشر -كالملائكة مثلاً- على مقتضى طلب المشركين الجاحدين لرسالات الأنبياء، ولقد أشار القرآن في عدّة مواضع من كتاب الله الكريم إلى بيان الحكمة من ذلك، وهي:

١- **عدم قدرة البشر على التخاطب مع الملائكة لأنهم أجسام لطيفـة لا تـرى**؛ ولو خلق الله الرسل من الملائكة فلا بدّ أن يكونوا على صورة البشر، فيكـون ذلك أدعى إلى تكذيبهم وعدم الإيمان بهم؛ قال تعـالى: ﴿وَقَـالُوا لَـوْلاَ أُنـزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ * وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام:٨-٩].

٢- **ليكون الرسل قدوة لمن أرسلوا إليهم من البشر**؛ ومعلوم أن الرسـول إنـما كان قدوة للمؤمنين في أفعاله وأقواله وأخلاقه ومعاملاته؛ لأنه بشر مـثلهم، ولو لم يكن كذلك لما استطاعوا أن يقتدوا به، وسيكون للناس عـذر في عـدم

اقتدائهم به وتأسِّيهم بأفعاله.

٣- **الإشارة إلى أن الرسل ليسوا آلهة، ولا شركاء لله، ولا أبناء؛** كما ادّعى ذلك اليهود في عزير، والنصارى في عيسى؛ وبالتالي فإن الرسل إنّما جاءوا لدعوة الناس إلى عبادة الله وحده، وعدم الإشراك في عبادته أحداً سواه، حتى لو كان من أنبيائه وخاصة رسله، قال تعالى: ﴿**قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾ [الكهف:١١٠]، وقال تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَاعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ * مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ..**﴾[المائدة:١١٦-١١٧].

العصمة

يسوقنا الكلام حول بشريّة الرسل إلى الحديث عن عصمة الأنبياء عليهم السلام، وما إذا كانت العصمة تخرج الرسول عن كونه بشراً عادياًّ أم لا؟.

فنقول: يجوز في حق الأنبياء والرسل كل الأعراض البشريّة التي لا تؤدّي إلى نقص مراتبهم ومكانتهم، فالرسل والأنبياء رجال من البشر فيهم جميع خواص البشرية، ولا يمتازون في هذه الناحية عن غيرهم بشيء سوى أنهم رسل اختارهم الله لوحيه، وهداية من شاء من خلقه، ففيهم جميع الأعراض التي

تصيب البشر ولا تُخِلّ بالرسالة.

أما الأعراض التي تُخِلّ بالرسالة مثل وقوع السحر عليهم، والخطأ والنسيان فيما يتصل بأمر الشرع، وإصابتهم بالأمراض التي تعجزهم عن أداء رسالتهم أو تنفّر الناس منهم، فإنّ كل ذلك ممتنع عليهم.

ويستثنى من ذلك السهو والنسيان اليسير، كالسهو في الصلاة، أو نسيانه لوعد مثلاً، وأمّا النسيان من جانب الشيطان فمستحيل على النبي إذ ليس للشيطان عليه سبيل.

والذي نعتقده ونؤمن به أنّ العصمة لا تعني أن الرسول يكون مسلوب الإرادة في فعل المعصية، ولا أنّ دواعيها تكون معدومة عنده كما هو الحال في الملائكة مثلاً، بدليل ما أخبر به تعالى عن يوسف عليه السلام، في قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ**﴾ [يوسف:٢٤]، فهمّ يوسف هنا إنما كان همّ الطباع البشرية الذي لا يتعدّى الخاطر، والأنبياء لا يؤاخذون على ما يخطر في النفس، وإنما يؤاخذون على القصد والإرادة؛ فقوله تعالى: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ دليل على أن يوسف عليه السلام لم يكن مسلوب الإرادة، ولم تكن دواعي فعل المعصية معدومة عنده، غير أن برهان ربه الذي نبض في ضميره وقلبه بعد لحظة الضعف الطارئة عادت به إلى الاعتصام والامتناع عن إجابة امرأة العزيز إلى مرادها، وهذه هي العصمة التي أشار إليها الحق تبارك وتعالى في بقيّة الآية بقوله: ﴿**كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ**﴾ [يوسف:٢٤].

وفي نفس الوقت كان يوسف عليه السلام يدرك ضعفه البشري، ويسأل من الله أن

يمنحه اللطف الذي يمنعه من إرتكاب الإثـم، ويجنبـه الوقـوع في معصـية الله، يقول الله تعالى: ﴿**قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلاَّ تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنْ الجَاهِلِينَ * فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ [يوسف:٣٢-٣٤].

لذا يمكن القول أن العصـمة تعنـي: إحاطـة الرسـول أو النبـي بتوفيـق الله ولطفه، إحاطة تحفظ ظاهره وباطنه مـن التلـبّس بمعصـية، وتمنعـه مـن السـهو والغلط فيما أُمر بتبليغه، فيكون بذلك معصوماً عن الكذب والخيانة، وعن فعـل القبائح قبل النبوّة وبعدها، ومعصوماً من الصغائر التي تخدش مقام النبوّة، وعن الخطأ والنسيان فيما أمر بتبليغه إلى الناس.

وما مـن شـك أنّ العصـمة للأنبيـاء والرسـل بهـذا المعنـى ضروريّـة لعـدّة اعتبارات، منها:

١ - أنّ وقوع النبي أو الرسول في معصية أو نقيصة من النقائص قبل أو بعـد تكليفه بالتبليغ يحطّ من شأنه، لكونه سيتساوى مع سائر الناس، في حـين أنّه يجب أن يكون للأنبياء من الصـفات والخصـائص مـا يجعلهـم فـوق مستوى غيرهم من البشر.

٢ - أنّ وقوع الأنبياء و الرسل في معصية أو ذنب أو نقيصة من النقائص أثناء التبليـغ للرسـالة يتنـاقض مـع جـلال رسـالتهم، ووجـوب اتّبـاعهم، والاقتداء بهم.

٣- أنّه لو وجد في حياة الرسل والأنبياء شيئاً من الذنوب والنقائص لسقطت معها أقوى حجّة في مواجهة الخصوم والمعاندين.

ولذلك كان لا بدّ وأن ننزّه الأنبياء والرسل عن كل ما من شأنه الإساءة إليهم، والحطّ من شأنهم، وأيّما رواية مما رواه القصّاصون، والمحدِّثون، وكُتّاب السير والتأريخ تضمّنت شيئاً من ذلك؛ وجب ردّها، وعدم العمل بها، ومن ذلك على سبيل المثال:

١- **ماروي في حقّ نبي الله داود** عليه السلام من أنه كانت لديه تسعة وتسعون زوجة، وأنه اطّلع من شرفة قصره فرآى امرأة قائد جنده أوريا عارية تغتسل، فأحبها وأراد أن يتزوّجها، فأرسل أوريا في معركة فقتل فيها فتزوج بامرأته وأكمل بها المائة.

٢- **ماروي في شأن سليمان** عليه السلام أنه قال: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة ـ وفي رواية تسعين امرأة، وفي رواية مائة امرأةـ تلد كل امرأة منهن غلاماً يقاتل في سبيل الله، فقيل له: قل إن شاء الله، فلم يقل. فطاف بهن فلم تلد منهن إلا امرأة واحدة ولدت نصف رجل.

٣- **ماروي من قصة الغرانيق**، قيل: إن سبب نزول قوله تعالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ**﴾[الحج:٥٢]، هوأن النَّبي صلى الله عليه وآله قرأ سورة النجم بمكة، فلمّا بلغ: ﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى**﴾ [النجم:١٩-٢٠]، ألقى الشيطان على لسانه: (تلك

الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى).

فكل هذه الروايات وما شابهها وإن صحّت من حيث السند، فإنها لاتصح من حيث المتن على الإطلاق، لكون ما أشارت إليه هذه الروايات مما يمتنع نسبته إلى الأنبياء سلام الله عليهم، علاوة على أن بعضها يخالف الواقع، وينكرها العقل والنقل، فأنّى لرجل كائناً من كان أن يطوف في ليلة واحدة على سبع نساء، فكيف إذا كنّ سبعين إمرأة أو أكثر؟! هذا على فرض كون ذلك من سائر الناس، أما أن يكون من الأنبياء فهم أجلّ وأكرم من أن يضيّعوا ساعات الليل الثمينة في غير مناجاة مولاهم والتضرّع إليه والوقوف بين يديه، قال تعالى: ﴿**كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ * وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ**﴾[الذاريات:١٧-١٨].

ولا نشك في أنّ مثل هذه الروايات إنّما هي من الإسرائيليات، ومن دسائس أهل الكتاب، وتلبيسهم على أمة الإسلام، فهي روايات عارية عن الصحّة، ولا يليق بمؤمن أن يقبل شيئاً منها.

وأمّا ما ورد في كتاب الله تعالى ممّا ظاهره نسبة شيء من ذلك إلي الأنبياء فالواجب تأويله على المعنى الذي يتّفق مع عصمتهم عن كل ما من شأنه أن يخدش مقام النبوّة، أويشكّك في سلامة تبليغ الرسالة على نحو لا يريده الله تعالى ولا يرضاه، ومن ذلك:

أ- ماورد في حقّ آدم عليه السلام من مخالفته لأمر الله ووقوعه في معصيته؛ فإن ذلك ولا شك لم يكن معصية مخالفة وعصيان لله عزّ وجل عن عمد وقصد، وإنما

هو نسيان من آدم واغترار منه بخداع إبليس وتزيينه، قال تعالى: ﴿**وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾[طه:١١٥].

ب- ما ورد في يوسف عليه السلام من الهم المذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:٢٤]؛ **فهمّ يوسف هنا إنما كان همّ** الطباع البشرية الذي لا يتعدّى الخاطر، كما سبق الإشارة إلى ذلك، ثم إنه جاء بعد قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ قوله: ﴿ لَوْلاَ أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ﴾، ويُقصد به اليقين والإيمان وشدّة مراقبته لله عزّ وجل، والمعنى: أنه لولم يكن منه ذلك لفتن ووقع في الفاحشة.

ج- ما حصل من موسى في قتله للقبطي؛ وذلك أنّه لم يرد بالوكزة قتل القبطي، وكان موقفه موقف دفاع لا أكثر، ولقد شاء الله لوكزة موسى تلك أن تقضي على القبطي لتكون سبباً في هجرته إلى مدين، وكان من أمره ماكان.

دين الإســـلام

عالميّة الإسلام

الدين كلمة جامعة تعني مجمل ما جاء به الرسول من عند الله تعـالى، لهدايـة الناس، وإرشادهم إلى مافيه تنظيم حياتهم، وصلاح أمرهم في دنياهم وآخرتهم، ولقد شاءت إرادة الله عز وجل أن يبعث في عباده من بني البشر الأنبياء والرسل مبشرين ومنذرين؛ لتوجيه العباد إلى عبادة الله تعالى وحده وعـدم الإشراك بـه، ولتقويم سلوك البشر التقويم الأمثل الذي يحقّق الغاية من خلق الإنسان وإيجاده على ظهر هذه البسيطة، وذلك بإصلاحها وعمارتها، وتحقيق ما تصبو إليه النفس البشريّة والفطرة السويّة من الحياة الكريمة التـي يتحقـق للإنسـان فيهـا العـدل والمساواة، وتنشر في ربوع الأرض الأمن والسلام.

ولقد ظلّت رسالات الله تتوالى على الناس وتفيض على الخلق بالرحمة الإلهيّة الواسعة جيلاً بعد جيل، وأمّة بعد أمّـة، إلاّ أنّ الرسـالات السـماويّة في أغلبهـا أخفقت في تحقيق هدفها المنشود وغايتها المرجوّة، بسبب ما كانت توجه به تلـك الرسالات من كفر وجحود وطغيان، وإن حققت رسالة مـا غايتهـا في إصـلاح النفس البشريّة وتقويم سلوكها، فإنما يكون ذلك في إطار جغرافي معـيّن، ولمـدّة محدودة من الزمن، ثم ما تلبث النفوس المريضة والأيادي العابثة مـن أن تعمـل عملها في الإفساد والإضـلال بشـتى الطـرق والوسـائل، بـدءاً مـن محاولات التخلّص من رجال الدعوة وحملة الرسالاة ودعاة الإصلاح، وانتهـاءً بتحريـف

الكتب السماويّة، وطمس الحقائق وتزييفها، والتحايل على نصوص الوحي وتشريعاته حسبما تمليه عليه شهواتهم، وبما يحقق رغباتهم، وتقتضيه مصالحهم، حتى شاء الله عزّ وجل أن يختم تلك الرسالات بمبعث الرسول الأعظم ﷺ، الذي جاء برسالة الإسلام، فكانت هذه الرسالة أوفى الرسالات السماوية وأكملها، لأنها خاتمة الشرائع والأديان.

وبذلك غدا الإسلام دينا كاملاً في تشريعه، سديداً في أحكامه، بالغ الهداية، عظيم الأثر في إصلاح الحياة واستقرارها، وتزكية النفوس واستقامتها.

ومن هنا ندرك سر عظمة الإسلام الخالد الذي أكمل الله به دينه، وأتم به نعمته على الناس، وجعله خاتمة الأديان والرسالات، وما ذلك إلاّ لجملة الخصائص والمميزات التي امتاز بها هذا الدين من نواحي متعدّدة، بعضها تتعلّق بشخصية الرسول -ﷺ، والبعض الآخر يتعلّق برسالة الإسلام ودعوته التي جاء بها، والتي نفصّلها فيما يأتي:

١- أنّها رسالة خاتمة لما سبقها من الرسالات والأديان، أكمل الله بها دينه، وأتم بها نعمته، فاستغنى الناس بها عما سواها، وصاروا غير محتاجين إلى دين جديد وشريعة جديدة.

٢- أنّها رسالة خالدة باقية إلى يوم الدين، تكفّل الله بحفظها، وضمن بقاءها وسلامتها من التحريف والتبديل الذي أصاب ما قبلها من الأديان، وذلك بحفظ الله تعالى لكتابه الكريم الذي هو مصدر التشريع، قال تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر:٩].

٣- أنّها رسالة صالحة لكل زمان ومكان، كفيلة بما فيها من تشريعات وتعاليم وآداب بإسعاد البشريّة وحل مشاكلها.

٤- أنّها جاءت كاملة مشتملة على كل ما يحتاج إليه الناس في مختلف جوانب الحياة في العقائد والعبادات والأخلاق والمعاملات، قال تعالى: ﴿**مَا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ**﴾ [الأنعام:٣٨]، وقال تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ [النحل:٨٩].

٥- أنّها تتلاءم مع الفطرة السليمة غير معارضة لها؛ فعقائد الإسلام وتشريعاته وأحكامه جميعها تتوافق مع الفطرة السليمة، ويؤيدها العقل السليم، قال تعالى: ﴿**فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾[الروم:٣٠]، وفي الحديث عن رسول الله -ﷺ أنه قال: «**كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، وَيُمَجِّسَانِهِ**»[(١)].

٦- أنّها رسالة وسطيّة معتدلة كفيلة بتحقيق السعادة للإنسان في الدنيا والآخرة؛ وذلك لأن تشريعات الإسلام تجمع بين متطلبات الروح ومتطلبات الجسد، فالسعي لتحصيل الرزق والكسب الحلال، والعمل المثمر الذي من شأنه عمارة الأرض وإحداث التطوّر الذي يخدم البشريّة ويحقّق مصالحها؛ هو في نظر الإسلام عمل مقدّس لا يقل شأناً عن الصلاة والصيام وغيرهما من الفرائض والعبادات الواجبة، قال الله تعالى: ﴿**وَقُلِ اعْمَلُواْ فَسَيَرَى اللَّهُ**

(١) رواه أحمد، ومسلم، وابن حبان، والبيهقي، وأبويعلى، عن أبي هريرة.

عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]، وقال جل وعلا: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص:٧٧].

هذه هي بعض المميّزات والخصائص المتعلّقة برسالة الإسلام الخالدة، وأما المميّزات والخصائص المتعلّقة بالرسول الأعظم ﷺ فسيأتي ذكرها قريباً إن شاء الله.

مقامات الدين

يرتكز دين الإسلام على ثلاث مراتب أومقامات تشكّل في مجموعها روح الإسلام وحقيقته، وهي التي أشار إليها حديث جبريل عليه السلام المروي عن عمر بن الخطاب قال: «**بينما نحن جلوس عند رسول الله ﷺ ذات يوم إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر ، لا يُرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي ﷺ، فأسند ركبته إلى ركبتيه، ووضع كفّيه على فخذيه ، وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟، قال: «الإِسْلاَمُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وتُقِيمَ الصَّلاَةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيْلاً»، قال: صدقت. فعجبنا له؛ يسأله ويصدّقه! ، قال: أخبرني عن الإيمان؟، قال: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلاَئِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَالْقَدَرِ كُلِّهِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» قال: صدقت ، قال: فأخبرني عن الإحسان؟ ، قال: «الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ**

تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»[1].

فقد اشتمل هذا الحديث على ذكر مقامات الدين الثلاثة، وهي:

(١) مقام الإيمان:

ويقصد به ما يستقر في القلب من الاعتقاد الجازم بوجود الله تعالى ووحدانيته، والإيمان بأسمائه وصفاته، وتنزيهه عن النقائص وعن مشابهة المخلوقات، وما يتبع ذلك من الإيمان بالملائكة، والرسل، والكتب المنزّلة على أنبيائه ورسله، والإيمان باليوم الآخر ومافيه من البعث، والنشور، والحساب، والجنّة، والنار، والإيمان بالقضاء والقدر خيره وشرّه.

وكل تلك المباحث الإيمانيّة، والقضايا الاعتقاديّة، هي المباحث المتعلقة بعلم الكلام، أو علم أصول الدين، أو علم التوحيد، أو نحو ذلك من المسمّيات، وهي المباحث التي اشتمل عليها هذا الكتاب بجزأيه الأول والثاني.

(٢) مقام الإسلام:

ويقصد به الأعمال الظاهرة الدالّة على الإيمان، المتعلّقة بالعبادات من صلاة وصيام وحج وزكاة، والمتعلّقة كذلك بالأحكام الشرعية المنظّمة لعلاقات الناس ببعضهم، على نحو ما هومفصّل في كتب الفقه بشقّيه: فقه العبادات، وفقه المعاملات.

---

(١) تمام الحديث: قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: «مَا الْمَسْئُولُ بِأَعْلَمَ بِهَا مِنَ السَّائِلِ»، قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: «أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ» ثم انطلق، فلبثت مليًّا ثم قال: «يَا عُمَرُ مَا تَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «ذَاكَ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ» رواه مسلم والترمذي والنسائي وأبوداود، ورواه الإمام أبو طالب بنحوه دون ذكر جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٣) مقام الإحسان:

ويعني به الإنفعالات الباطنة التي هي محل مراقبة الله تعالى والاتصال به، والمتمثلة في الأعمال القلبيّة التعبّديّة التي من شأنها تطهير النفس وتزكيتها، والتي منها: الإخلاص، والزهد، والذكر، والدعاء، والمحبّة، والمراقبة، والمحاسبة، والتوبة، والرضا، والشكر، والصبر، والخوف، والرجاء.

وهذه المباحث ونحوها متعلّقة بعلم السلوك، أوعلم الأخلاق، أو علم الباطن، أو علم التصوّف، وهي ولا شك مرتبطة ارتباطاً كبيراً بأصول الدين، وحرِيٌّ بطالب العلم أن لا يقتصر على دراسة علم أصول الدين أو مايسمّى بعلم الكلام والتعمّق فيه دون أن يكون له معرفة واطلاع بمباحث علم السلوك، إذ هي في حقيقتها تمثل التطبيق العملي لمباحث علم أصول الدين، والدليل الفعلي على قوّة الإيمان، وصدق المعرفة، وسلامة الاعتقاد وصحّته.

الوحي

الوحي -في اللغة- هو كل كلام ألقيته إلى غيرك سرًّا، ومنه قوله تعالى حكاية عن زكريا عليه السلام: ﴿**فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنْ المِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا**﴾[مريم:١١]، ومنه أيضاً قوله تعالى: ﴿**وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَى أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ**﴾[الأنعام:١٢١]، وقوله: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا**﴾[الأنعام:١١٢].

والوحي بمعناه الاصطلاحي: هو كلام الله تعالى المنزّل على نبيٍّ من أنبيائه.

وقد أشار القرآن الكريم إلى كيفيّة إرسال الوحي بقوله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلاَّ وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ**﴾[الشورى:٥١].

أما كيفيّة تلقِّي الرسول ﷺ للوحي فقد ذكر العلماء أربع صور للتلقِّي وهي:

(١) **الوحي بواسطة الرسول من الملائكة وهو جبريل** عليه السلام؛ وله صورتان:

الأولى: أن يأتيه مثل صلصلة الجرس بحيث لا يسمعه إلا الرسول ﷺ، فإذا نزل الوحي بهذه الصورة نزل عليه وهو مستجمع القوى الإدراكيّة لتلقِّيه وحفظه وفهمه، وكانت هذه هي الأشدّ على رسول الله ﷺ؛ لما روي عنه ﷺ أنه سئل كيف يأتيه الوحي فقال: «**أَحْيَانًا يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَهُوَ اشَدُّهُ عَلَيَّ، فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ، وَاحْيَانًا يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**»[1]، وروت عائشة ما كان يصيب رسول الله ﷺ من شدّة عند نزول الوحي فقالت: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنّ جبينه ليتفصّد عرقاً.

الثانية: أن يتمثّل له الملَك رجلاً ويأتيه في صورة بشر: والمراد بذلك أن جبريل عليه السلام كان يظهر على تلك الصورة البشريّة أُنساً للرسول ﷺ، وهذه الحالة هي عكس الحالة السابقة، فالحالة السابقة هي حالة اتصال الرسول ﷺ بجبريل عليه السلام، وهو في حالته الملائكية الروحانية، مما يعني الانسلاخ من

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والترمذي والنسائي عن عائشة .

البشريّة الجسمانيّة والاتصال بالملائكيّة الروحانيّة، أمّا هذه الحالة فهي تعني انتقال المَلَك من الروحانية المحضة إلى البشريّة الجسمانيّة؛ ولذلك كانت هذه الحالة أخف من سابقتها، حيث يكون التناسب بين المتكلم -وهو جبريل عليه السلام- والسامع -وهو رسول الله ﷺ- فيأنس عند سماعه، ويطمئنّ إليه اطمئنان الإنسان لأخيه الإنسان.

(٢) الوحي من الله تعالى إلى الرسول مباشرة من وراء حجاب:

وذلك بواسطة خلق الكلام على النحو الذي يشاؤه الله عزّ وجل، كما كان الوحي إلى نبي الله موسى عليه السلام؛ قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِي الأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنْ الشَّجَرَةِ أَنْ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص:٣٠].

(٣) الوحي بواسطة الرؤيا الصادقة:

وهي أول ما بدأ به الوحي؛ لما روي عن عائشة أنها قالت : أول ما بدأ به ﷺ الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.

وقد اتّفق العلماء على أن رؤيا الأنبياء وحي يجب اتباعه؛ بدليل ما جاء في قصّة إبراهيم صلوات الله عليه وعلى آله، ووحي الله إليه عن طريق الرؤيا أن يذبح ولده إسماعيل؛ وذلك في قوله تعالى: **﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلاَمٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَابُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَاأَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَاإِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾**[الصافات:١٠١-١٠٥].

فلو لم تكن هذه الرؤيا وحياً يجب اتباعه لما أقدم إبـراهيم صـلوات الله عليـه وعلى آله على ذبح ولده، ومعنى قوله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ أي قد عزمت عزماً صادقاً على تنفيذ ما أوحينا به إليك في المنام.

(٤) النفث في الرَّوعْ:

وهو يشبه الإلهام، غير أن هناك فرق بينه وبين الإلهام، وذلك بأن الوحي إليه يعرف مصدر ذلك النفث بعكس الإلهام.

مثال الإلهام: قوله تعالى: ﴿**وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ**﴾[القصص:٧]. **وأماالنفث في الرَّوع**: فقد ورد في قـول الرسـول ﷺ: «**إِنَّ رُوحَ الْقُدُسِ نَفَثَ فِي رَوْعِي أَنَّ نَفْسًا لَنْ تَمُـوتَ حَتَّـى تَسْـتَكْمِلَ رِزْقَهَـا، أَلا فَاتَّقُوا اللَّـهَ، وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ**»[1].

وعلى كلٍّ فمن الواجب على المكلّف الإيمان بكتب الله تعالى المنزّلة على أنبيائه جملة، لاسيّما الكتب الإلهيّة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وهي:

١ - **القرآن الكريم** المنزّل على نبينا محمد صلى عليه وعلى آله وسلم .

٢ - **التوراة** المنزّلة على سيدنا موسى (عليه السلام) .

٣- **الإنجيل** المنزّل على سيدنا عيسى (عليه السلام) .

٤ - **الصحف** المنزّلة على سيدنا إبراهيم (عليه السلام) .

٥ - **الزبور** المنزّل على سيدنا داود (عليه السلام).

---

(١) أخرجه البغوي في شرح السنة من حديث عبدالله بن مسعود .

وحسب علمنا أنه لم يبق من زبور داود وصحف إبراهيم شيء يذكر، وأما التوراة والإنجيل فهي اليوم تَوَرَات وأناجيل، وليس كل ما فيها صحيحاً؛ بل إنّ معظمها باطل مكذوب على الله تعالى وعلى أنبيائه، والحق منها ما وافق القرآن، وما خالفه فهو باطل؛ قال تعالى: ﴿**وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَـذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ**﴾[البقرة:٧٨-٧٩]، وقال تعالى: ﴿**وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنْ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنْ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾[آل عمران:٧٨].

وأما القرآن فهو كتاب الله المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يتمّ إيمان المؤمن إلّا بالإيمان به أنه منزّل من عند الله، والتصديق بكل ما فيه من أوامرٍ، ونواهٍ، وأخبار، ووعد، ووعيد، وأنّه ناسخ لسائر الكتب السماويّة السابقة، كما أن دين الإسلام ناسخ لسائر الأديان، قال تعالى: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ**﴾ [المائدة:٤٨].

المعجزة

معنىٰ المعجزة

لّما كان الرسل بشراً لا يختلفون عن سائر الناس؛ احتاج الناس إلى براهين وأدلّة عقلية تثبت صدق دعواهم أنّهم يتلقّون الوحي من الله تعالى ويبلّغون أوامره ونواهيه، لذلك أيَّد الله سبحانه وتعالى أنبيائه بمعجزات دالّة على صدق نبوءاتهم.

والمعجزة في حقيقتها كما يعرفها علماء الأصول: هي أمر خارق للعادة، يعجز البشرعن فعل مثله في وقته، يظهره الله على يد الرسول أو بواسطته تأييداً له في دعواه، ودليلاً على صدق نبوّته.

ومن التعريف المذكور يتبيّن لنا أنّ حصول ما هو خارق للعادة على يد أحد من الناس لا يُعتبر معجزة؛ إلاّ إذا توافرت فيه الشروط التالية:

١- **وقوع الفعل الخارق على يد الرسول أو بواسطته**؛ وإنّما اشترط علماء الأصول في المعجزة أن يكون وقوعها على يد نبي أو رسول لأنّه قد يقع على يد إنسان مّا ما هو خارق للعادة، ولكنّه لا يرقى إلى درجة المعجزة؛ لأنّ الأمر الخارق إن حصل على يد غير الرسول؛ فهو إمّا **سحر**؛ وهو الذي يكون على أيدي السحرة، أو **خداع**؛ وهو الذي يكون على أيدي المشعوذين والدجّالين، أو **كرامة**؛ وهي التي يجريها الله على أيدي الأنبياء، أو على أيدي

الأولياء والصالحين.

ومن السهل التفريق بين المعجزة التي تحدث على أيدي الأنبياء والرسل، وبين غيرها من الخوارق التي قد تحدث على يد غير النبي والرسول، سواءً ادّعى النبوّة أم لا.

٢- **أن يكون القصد من الفعل الخارق الذي يكون على يد الرسول أو بواسطته أو بناء على طلبه هو تقديم الدليل المقنع على صدق نبوّته**؛ وذلك لأنّ الفعل الخارق قد يظهر على يد الرسول، ولكن لا يُقصد به ما يُقصد بالمعجزة، وهو تقديم الدليل المقنع على صدق نبوّته، ويسمّى الفعل الخارق في هذه الحالة كرامة، ومن أمثلة ذلك: نبع الماء من أصابع النبي ﷺ، وتكثيره، وتكثير الطعام القليل، وحنّ الجذع إليه، وسماعه تسبيح الحصى، وتكليم الناقة واللحم المسموم له، ونحو ذلك، فهذه الأمور -وإن كانت من نوع المعجزات- إلّا أنّها في واقع الأمر لا تعدو أن تكون من الكرامات؛ لأنّها إنّما حصلت في محضر المسلمين من صحابة رسول الله ﷺ، فلم يكن فيها عنصر التحدّي للمشركين، ولا قُصِد من وقوعها تقديم الدليل المقنع على صدق نبوّته حتى يقال إنّها معجزات.

٣- **أن يكون الفعل الخارق ممّا لا قدرة للبشر على فعل مثله في وقته**؛ أي في زمن الرسول الذي بعث فيه، وذلك لأن بعض المعجزات قد يقدر البشر على محاكاتها وفعل مثلها، ولكن ليس في زمن الرسول، وإنما بعده بمئات السنين بحسب تطور العلم، وبما مكّن الله سبحانه وتعالى الإنسان من الاكتشافات

التي هي في الأصل استغلال لقوانين الطبيعة ونواميس الكون.

ولقد رأينا في عصرنا الحاضر كثيراً من المخترعات التي لو حدثت في الماضي لكانت معجزة، غير أنها أصبحت اليوم حقيقة بعد أن كان التفكير فيها بالأمس ضرباً من الخيال الذي لا يمكن تصوّر حدوثه.

معجزات الرسول (ص)

للرسول ﷺ معجزات كثيرة، غير أن معجزات الرسول ﷺ كانت ذات طابع خاص، وهو أنها لا تلامس الحواس، وإنما تخاطب العقل، وتلامس الشعور والوجدان.

ولقد حدث أن طلب المشركون من رسول الله ﷺ معجزة ماديّة كتلك التي وقعت للأنبياء في الأمم السابقة، فتحدّوا الرسول ﷺ أن يكون له بساتين وحدائق مثمرة تتفجر فيها الأنهار من كل جانب، أو يأتيهم بما توعّدهم من العذاب فيُنزّل عليهم السماء قطعة قطعة، أو يكون له قصر مُشيَّد يكون من أجمل القصور وأعلاها، أو يرقى أمامهم إلى السماء فلا ينزل إلا ومعه كتاب من الله تعالى يشهد له أنه صعد إليه -لاعتقادهم أن الله يحل في السماء- فأمر الله نبيه ﷺ أن يجيبهم بقوله: ﴿**قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَسُولاً**﴾.

نعم؛ إن الله سبحانه وتعالى لا يعجزه أمر، وهو سبحانه قادر على أن يؤيد عبده محمداً ﷺ بالآيات والمعجزات التي تحمل الناس على الإيمان به واتباع

شرعه، لكن مشيئة الله اقتضت غير ذلك؛ قال تعالى: ﴿**وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلاَ تَكُونَنَّ مِنْ الجَاهِلِينَ**﴾ [الأنعام:٣٥].

ولمّا لم تحدث للنبي ﷺ المعجزة الدالّة على نبوّته على نحو ما طلبه المشركون؛ شاء الله عزّ وجلّ أن تكون معجزة الرسول ﷺ في أمرين[١]:

الأول: الإسراء والمعراج .

والثاني: إنزال القرآن الكريم على نحو معجز.

وسنتكلم عن هاتين المعجزتين بشيء من التفصيل فيما يأتي.

الإسراء والمعراج

معجزة الإسراء والمعراج معجزة ذات شقّين: **الإسراء** من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، **والمعراج** من الأرض إلى السماء.

أمّا الإسراء فقد ورد ذكره في كتاب الله الكريم بالنص الصريح الواضح، يقول الله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾[الإسراء:١] .

(١) يتوسّع كتّاب السيرة وغيرهم في ذكر معجزات الرسول ﷺ، ويذكروا من ذلك نبع الماء من أصابعه، وتكثيره، وتكثير الطعام القليل... إلى آخر الأمور التي سبق ذكرها قريباً، وهذه الأمور وغيرها هي في اعتقادنا إنما هي من الكرامات؛ إذ لم يقصد بها التحدّي للمشركين حتى يقال إنها من المعجزات. والله أعلم.

ودلّت الشواهد على وقوعه بالروح والجسد، بدليل ما حصل من تعجّب كفّار قريش عند سماعهم بالخبر، وإنكارهم على الرسول ﷺ، ولو أن الرسول ﷺ كان قد أخبرهم أن الإسراء كان بالروح فقط في يقظة أو في منام، لما تعجبوا من ذلك وأنكروا عليه.

وأمّا المعراج فالظاهر أنّه قد وقع للنبي ﷺ بالروح والجسد، وأنّه لا سبيل إلى إنكار وقوعه لا من جهة العقل ولا من جهة النقل.

أما من جهة العقل فلأن هذا الحدث هو مظهر من مظاهر قدرة الله تعالى، وإذا كان الإنسان قد توصّل بما وهبه الله تعالى من العلم إلى اختراع الوسائل التي أوصلته إلى القمر والمرّيخ، فكيف بقدرة الله المطلقة التي لا يمنعها شئ ولا يعيقها عائق؟!، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**﴾ [يس:٨٢].

وأمّا من ناحية النقل فقد تواترت الأخبار بوقوعه، وورد ذكر المعراج في كتاب الله تعالى بالإشارة والتلميح كما في آيات سورة النجم، وهي قوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى**﴾ [النجم:١٣-١٨]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ**﴾ [الإسراء:٦٠]، قيل هي رؤيا عين رآها الرسول ﷺ ليلة المعراج.

وعلى كلٍّ فإنّ الإسراء والمعراج من الأمور المنقولة إلينا بطريق التواتر المعنوي الذي لا سبيل إلى إنكاره.

والذي نعتقده أنّ الإيمان بالإسراء والتصديق بوقوعه واجب شرعاً، لدلالة الآيات القرآنية في مطلع سورة الإسراء عليه بالنص الصريح الواضح.

وأمّا المعراج فلا يُكفَّر من أنكر وقوعه، إذ أن هذه المعجزة لم تكن معجزة ماديّة على النحو الذي طلبه المشركون حين طلبوا من النبي ﷺ أن يرقى في السماء، ولم يخبرنا ربنا تبارك وتعالى في كتابه أو على لسان نبيِّه ﷺ أن المعراج كان ردًّا على ذلك التحدّي الذي تحدّى به المشركون رسول الله صلوات الله عليه وعلى آله، وإنّما أخبر تعالى أنه تكريم لعبده ونبيه محمد ﷺ ليُطلعه على الآيات الكبرى، وليكون الإسراء والمعراج معجزة إلهيّة، لا لإرغام الجاحدين على الإيمان بنبوّته، ولكن لتكريم النبي صلوات الله عليه وعلى آله، وتثبيت قلوب المؤمنين به على الإيمان.

وأمّا الأخبار الواردة في الإسراء والمعراج المشتملة على ذكر بعض التفصيلات لتلك الرحلة ففيها نظر، ولا يجب الإيمان بها ولا ببعضها، والذي نعتقده أنّه لم يصح منها إلاّ القليل النادر، والكثير من تلك الروايات تتعارض مع العقل والنقل، ومن ذلك:

١- **ماروي أن الرسول ﷺ صلّى بالأنبياء في بيت المقدس**؛ فذلك مما لا يصح، لأنه يلزم من ذلك أنّ أرواحهم رُدّت إلى أجسادهم لحضور هذه الصلاة، وهذا مما لا يقول به عاقل.

٢- **ما روي أن جبريل عليه السلام قدّم إلى الرسول ﷺ عند رحلته إناء فيه ماء، وإناء فيه خمر، وإناء فيه لبن، فأخذ الرسول صلوات الله عليه وعلى آله إناء اللبن فشرب منه، فقال له جبريل: هُديتَ وهُدِيَتْ أمّتُك**؛ فإنه يفهم من ذلك أن

هداية هذه الأمّة إنما كانت صدفة، أو أنهـا كانـت بسـبب شرب النبـي ﷺ للّبن، ولو شرب غيره لضلّت.

٣- **ما روي في شأن فرض الصلاة**؛ وذلك أن الله تعالى فرض على أمّة محمد ﷺ خمسين صلاة في اليوم والليلة، فرجع، فمرّ على موسى عليه السلام، فأخبره، فقال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك، فرجع، فوضع عنه عشر صلوات، وبقيت أربعين، فرجع إلى موسى عليه السلام، فقال له مثلما قال في المرّة الأولى . فرجع فوضع عنه عشرـ صـلوات، وهكذا حتى جعلها خمس صلوات؛ فهذه الرواية لاتصح من عدّة وجوه:

الأول: أنه لا يجوز على الله سبحانه تبديل قوله ولا تغيير أمره، قال تعـالى: ﴿**مَـا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾[ق:٢٩].

الثاني: أنه إذا كان عدد ركعات الخمس الصلوات سبع عشرة ركعة، فكـم كـان سيكون عدد ركعات الخمسين الصلاة؟! وهل ستتسع ساعات اليوم والليلة لأداء خمسين فريضة؟! ومعلـوم أن ذلـك لـيس في قـدرة الإنسـان وطاقتـه، فكيف يكلّفنا الله تعالى بذلك؟ وهو القائل جلّ وعلا: ﴿**لاَ يُكَلِّفُ اللَّـهُ نَفْسًـا إِلاَّ وُسْـعَهَا**﴾ [البقرة:٢٨٦]، والقائـل: ﴿**يُرِيـدُ اللَّــهُ بِكُـمُ الْيُسْرَـ وَلاَ يُرِيـدُ بِكُـمُ الْعُسْرَ**﴾ [البقرة:١٨٥].

الثالث: أن الروايات ذكرت أن النبي ﷺ لقي موسى عليه السلام في السماء السادسـة، ولقي إبراهيم صلوات الله عليه في السماء السابعة؟!، فكان الأولى أن يرجـع

النبي ﷺ إلى إبراهيم صلوات الله عليه لا إلى موسى عليه السلام، إذ أن إبراهيم صلوات الله عليه هو صاحب الشأن في أمر أمة محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾[البقرة:٧٨].

وفي أحاديث المعراج غير هذا من التناقض ووجوه الضعف مما لا يسع المجال لذكره، وفيما ذكرناه الكفاية، إذ القصد الاختصار، وبالله التوفيق.

المعجزة الخالدة

لقد طلب المشركون من رسول الله ﷺ الآيات والمعجزات الدالّة على صدق نبوّته، ولكن شاء الله تعالى أن تكون المعجزة التي أيّد بها نبيّه ﷺ هي المعجزة التي يريدها هو، لا التي يردونها هم، فكانت تلك هي معجزة القرآن الكريم، لتكون هذه المعجزة دالّة على صدق نبوّة محمد ﷺ منذ مبعثه إلى أن تقوم الساعة، ولو أن الله سبحانه وتعالى جعل معجزة محمد ﷺ واحدة من تلك المعجزات التي كانوا يطلبونها لبطل أثرها وانتهى دورها بمجرد وقوعها، غير أن القرآن بقي وسيبقى على مدى الدهر آية باقية، ومعجزة خالدة، لا يوثرّ فيه مرّ السنين، وتوالي الدهور والأيّام، ويأتي الإعجاز في القرآن الكريم من عدّة وجوه:

الأول: حسن تأليفه، وروعة تناسقه ونظمه؛ فالقرآن الكريم لم يكن مجرّد كتاب تفصيلي لأحكام الدين وشرائعه، بل كان هذا الكتاب هو المعجزة الخالدة الذي لا تنتهي عجائبه، وذلك لما في الكتاب الكريم من الفصاحة والبلاغة التي أعجزت العرب منذ ذلك الحين وإلى اليوم عن أن يحاكوا القرآن أو يأتوا

بمثله، في الوقت الذي بلغ العرب القمّة في فصاحة الكلمـة وبلاغـة التعبـير، فكان تأييد الله لنبيه ﷺ بمعجزة الكلمة، لكونها من جنس مقـدور العـرب، وكان عجزهم عن محاكاة القرآن في فصاحته وبلاغته دليلاً على أنه منـزل مـن عند الله، وكان بحق هو أكبر المعجزات، وأعظم الدلائل الدالّة على نبوّة سيدنا محمد ﷺ، لاسيّما وأنه تعالى قد تحدّاهم أن يأتوا بملثه، وتحدّاهم أن يأتوا بعشر سور من مثله، وتحدّاهم أن يأتوا بسورة واحدة من مثله فلم يستطيعوا.

وقد أخبر تعالى عنهم أنّهم لن يستطيعوا لا هم ولا من سيأتي بعـدهم، بـل وأخبر تعالى أنه لا قدرة لجميع الخلق على أن يأتوا بمثله ولو تظاهروا على ذلك بقضِّهم وقضيضهم، قال تعالى: ﴿**وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ**﴾ [البقرة:٢٣-٢٤]، وقال جل وعلا: ﴿**قُلْ لَئِنْ اجْتَمَعَتْ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا**﴾[الإسراء:٨٨].

الثاني: الإخبار عن الأمـور السـابقة لنـزول القـرآن، وذكـر بعـض التفصـيلات الدقيقة لها؛ كما في قصتي موسى ويوسف عليهما السلام، وخبر أهل الكهـف، وذي القرنين، وشأن موسى والخضر عليهما السلام، والإجابة عن تحدّيات أهل الكتاب في سؤالهم للنبي ﷺ عن مثل تلك الأمور، في الوقـت الـذي لم يكـن الرسـول ﷺ عـلى عهـد بـالقراءة والكتابـة، ولا كـان مختلطـاً بأهـل الكتـاب، ولا بالقصّاصين وحملة الأخبار، قال تعالى: ﴿**وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ**

وَلا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ * بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٨-٤٩].

الثالث: الإخبار عن المغيَّبات التي ستكون في المستقبل، مما لا يمكن الإطلاع عليه إلاّ بواسطة الوحي؛ ومن ذلك قوله تعالى: ﴿الم*غُلِبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾[الروم:٢-٤][1]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ المَسْجِدَ الحَرَامَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخَافُونَ﴾[الفتح:٢٧]، ونحو ذلك كإخباره بما سيئول إليه حال كبار قريش كأبي لهب، وأبي جهل، والوليد بن المغيرة، والأخنس بن شريق، وغيرهم ممن

---

(١) القراءة المتواترة المشهورة هو ضم الغين في (غلبت) وفتح الياء في (سيغلبون)، وهذه القراءة توافق ما هو مشهور من أن سبب نزول الآيات أن المشركين كانوا يحبّون أن يظهر أهل فارس على الروم لأنهم وإياهم أهل أوثان، وكان المسلمون يحبّون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أهل كتاب، فلمّا بلغ أهل مكة أن الملك كسرى هزم جيش الروم سُرّ لذلك كفارُ قريش، فبشّر الله المؤمنين بأن الروم سيغلبون الفرس في قادم الأيّام، فلما كانت السنة السابعة ظهرت الروم على فارس وأسلم عند ذلك كثير من قريش .

والذي نراه أن مثل هذه الرواية محل نظر، إذ أنّ تبشير المؤمنين بنصر الروم على فارس لايدل عليه سياق الآية، حيث قال تعالى:﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ*بِنَصْرِ اللهِ يَنصُرُ مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ* وَعْدَ اللهِ لا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾[الروم:٤-٦]، والمعلوم أن وعد الله بالنصر لا يكون إلاّ لرسله وأوليائه، قال تعالى:﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ﴾[غافر:٥١]، وقال تعالى:﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج:٤٠]، فدلّ ذلك على أن المراد في الآية هو تبشير المؤمنين بما سيكون لهم من الغلبة والنصر على الفرس والروم ﴿وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللهِ﴾، وقد روي عن علي بن أبي طالب وأبي سعيد الخدري وعبد الله بن عمر أنهم قرأوا الآية بفتح الغين في (غلبت) وضم الياء في (سيغلبون)، وهذه القراءة إن صحّت فهي شاهد قوي على ما ذكرناه، والله تعالى أعلم.

توعّدهم القرآن بالعذاب، وماتوا على شركهم، ولو أن أحداً منهم أسلم لكان في إسلامه تكذيب للقرآن.

الرابع: احتوائه على الكثير من المعارف والعلوم الإنسانية والتطبيقية التي لم تعرفها العرب في عصر النبي ﷺ ولا بعده، واشتماله على التشريعات المنظّمة لحياة الناس.

الخامس: إخبار القرآن عن حقائق علميّة لم يعرفها العالم إلاّ مع تقدم العلوم وتطوّر الوسائل التكنولوجية الحديثة؛ كإخبار القرآن عن مراحل تطوّر الجنين، ودوران الشمس حول نفسها، وقانون التزاوج في النبات وسائر المخلوقات.. إلخ.

أضف إلى ذلك أنّ القرآن الكريم في حين أنّه نزل قبل مئات السنين؛ إلا أنّه ما زال وسيظلّ إلى أن تقوم الساعة غضًّا طريًّا، تردده الألسن، ويُتلى في المحاريب، وسيبقى القرآن الكريم معجزاً للعرب وللعالم بأسلوبه ومعانيه، وبهدايته وتشريعاته، وبعلومه وأسراره التي تنكشف أسرارها يوماً بعد يوم، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ**﴾[فصلت:٥٣].

والقرآن الكريم هو الكتاب الحق الذي ﴿**لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ**﴾ [فصلت:٤٢]، والقرآن كتاب ومنهج صالح لكل زمان ومكان على اختلاف الناس في أفكارهم وعقولهم وأفهامهم.

وهو آخر الكتب السماوية جاء مصدّقاً لما سبقه من الكتب السماوية لما فيها من أصول الشرائع وأمهات الأخلاق، وهو ناسخ لما عدا ذلك من التفصيلات

والجزئيّات؛ قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنْ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة:٤٨].

والقرآن الكريم إلى جانب ذلك اختُصّ بخصائص لا توجد في غيره، فهو منزل من عند الله بلفظه، كما أنه محفوظ من الزيادة والنقصان، تولّى الله حفظه بنفسه، ولم يوكل ذلك إلى أحد من خلقه، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩].

والسرّ في ذلك أنه لم يكن محتكراً في أيدي طائفة معيّنة حتى يتطرق إليه الشك، بل بقي شائعاً بين المسلمين يتلونه، ويتعلّمونه، ويعلِّمونه، منذ نزوله على النبي ﷺ إلى اليوم وإلى ما شاء الله، إضافة إلى ما أودع الله فيه من نور وهدى مالت إليه القلوب، وقامت لخدمته الأجيال، ولقد كان للقرآن الكريم الدور الأكبر لأكبر حركة فكريّة اجتماعية عرفتها البشرية حتى يومنا هذا.

كتاب الهداية الربّانيّة

القرآن الكريم هو كتاب الله الذي أرسله على رسوله الأمين، ونبيه الكريم هدى ورحمة للعالمين، فهو كتاب الهداية الربانيّة، وسفر السعادة الأبديّة، وقانون الفضيلة، ودستور العدالة، وهو روح هذه الأمة الذي يحفظ لها حياتها الكريمة، والذي تستمد منه أحكامها، وتأخذ منه شريعتها وقانونها، وتقتدي به في أقوالها

وأفعالها، وما فضلت هذه الأمة على سائر الأمم، ولا فضل هذا الدين على سائر الأديان؛ إلاّ بمعجزة الدهر، وآية العصور والأزمان، معجزة القرآن الكـريم، إذ هو كتاب هداية، ومنهج حياة، بين الله فيه للناس ما يجب لهم وما يجب علـيهم، وما يحل لهم وما يحرم عليهم، وما من صغيرة ولا كبيرة يحتـاج النـاس إليهـا إلاّ شملها تشريعه، ووسعها بيانه، يقول الله تعالى: ﴿**كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ**﴾[فصلت:١]، ويقول تعالى: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُـلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ [الأنعام:٣٨]، وفي الحديث عن علـي عليه السلام قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وآله يقول: «**أَلا إِنَّهَا سَتكُونُ فِتْنَـةٌ**»، قلـتُ: فـما المخـرَجُ منها يا رسول الله ؟ قال: «**كِتَابُ اللَّـهِ فِيهِ نَبَأُ مَا قَبْلَكُمْ، وَخَبَرُ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمُ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ الْفَصْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللَّـهُ، وَمَـنِ ابْتَغَـى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّـهُ، هُـوَ حَبْـلُ اللَّــهِ المَتِـينُ، وَهُـوَ الـذِّكْرُ الْحَكِـيمُ، وَهُـوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وَهُوَ الَّذِي لا تَزِيغُ بِهِ الأَهْوَاءُ، وَلا تَلْتَبِسُ بِهِ الأَلْسِنَةُ، وَلا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلا يَخْلَقُ عَنْ كَثْرَةِ الرَّدِّ، وَلا تَنْقَضِي عَجَائِبُهُ، هُوَ الَّذِي لَمْ يَنْتَهِ الْجِـنُّ إِذْ سَمِعَتْهُ حَتَّى قَالُوا: إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ، مَـنْ قَـالَ بِـهِ صَـدَقَ، وَمَنْ عَمِـلَ بِـهِ أُجِـرَ، وَمَـنْ حَكَـمَ بِـهِ عَـدَلَ، وَمَـنْ دَعَـا إِلَيْـهِ هُـدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ**»[١].

ويقول الإمام علي عليه السلام: «**ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْـهِ الْكِتَـابَ نُـوراً لاَ تُطْفَـأُ مَصَـابِيحُهُ، وَسِرَاجاً لاَ يَخْبُو تَوَقُّدُهُ، وَبَحْراً لاَ يُدْرَكُ قَعْرُهُ، وَمِنْهَاجاً لاَ يُضِلُّ نَهْجُهُ، وَشُعَاعاً لاَ**

(١) رواه الإمام أبو طالب والترمذي.

يُظْلِمُ ضَوْؤُهُ، وَفُرْقَاناً لاَ يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ، وَتِبْيَاناً لاَ تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ، وَشِفَاءً لاَ تُخْشَى أَسْقَامُهُ، وَعِزّاً لاَ تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ، وَحَقّاً لاَ تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ.

فَهُوَ مَعْدِنُ الإِيمَانِ وَبُحْبُوحَتُهُ، وَيَنَابِيعُ الْعِلْمِ وَبُحُورُهُ، وَرِيَاضُ الْعَدْلِ وَغُدْرَانُهُ، وَأَثَافِيُّ الإِسْلاَمِ وَبُنْيَانُهُ، وَأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وَغِيطَانُهُ، وَبَحْرٌ لاَ يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ، وَعُيُونٌ لاَ يُنضِبُهَا الْمَاتِحُونَ، وَمَنَاهِلُ لاَ يَغِيضُهَا الْوَارِدُونَ، وَمَنَازِلُ لاَ يَضِلُّ نَهْجَهَا الْمُسَافِرُونَ، وَأَعْلاَمٌ لاَ يَعْمَى عَنْهَا السَّائِرُونَ، وَآكَامٌ لاَ يَجُوزُ عنْهَا الْقَاصِدُونَ»[1].

ويقول فيه أيضاً: «وَاعْلَمُوا أَنَّ هَـذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ، وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ، وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ، وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ، زِيَادَةٍ فِي هُدىً أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمًى.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ، وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنًى، فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ، وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَائِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ؛ وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ، وَالْغَيُّ وَالضَّلَالُ، فَاسْأَلُوا اللَّـهَ بِهِ، وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ، وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ، فَإِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللَّـهِ تَعَالَى بِمِثْلِهِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ، وَقَائِلٌ مُصَدَّقٌ، وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَلَا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلًى فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرْآنِ، فَكُونُوا مِنْ

---

(١) نهج البلاغة، ج١، خطبة رقم(١٩٨).

حَرَثَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ، وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ، وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ، وَاسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ»[1].

وللإمام القاسم بن إبراهيم الرسيي (ع) رسالتان في مديح القرآن: المديح الكبير، والمديح الصغير، اشتملتا على الكلام في بيان فضل القرآن ومنزلته، وبيان واجب المسلمين نحو قرآنهم وكتاب ربهم، لا غنى لطالب العلم من الرجوع إليهما.

هذا وفضائل القرآن الكريم أكثر من أن تحصى، ويكفي في ذلك ما وصف به الحق تبارك وتعالى كتابه الكريم بأوصاف تدل على فضله، وتبيّن منزلته، حيث سمّاه الله تبارك وتعالى نوراً، وذكراً، وروحاً، وشفاءً، وهدى، ورحمةً، ووصفه بأنّه أحسن الحديث، وقال عزّ من قائل في بيان قدره وقوّة تأثيره: ﴿**لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾[الحشر:٢١]، وقال وهو أصدق القائلين: ﴿**فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ * فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ * لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ * تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ**﴾[الواقعة:٧٥-٧٩] .

فأي حديث أعظم من هذا الحديث؟، وأي كتاب يدانيه في فضيلة من فضائله؟، وإنّه لا موازنة ولا مفاضلة بين كلام الله وكلام البشر، بل لا موازنة ولا مفاضلة بين هذا الكتاب وبين غيره من الكتب السماوية كلها.

" فالقرآن الكريم كنز عظيم، فيه كل ما يحتاجه الفرد ليصبح كما يحب الله

---

(١) نهج البلاغة، ج١، خطبة رقم(١٧٦).

ويرضى، وفيه كل ما تحتاجه الأمة للخروج من النفق المظلم الذي تسير فيه، فهو يصلح لأن يكون بمثابة مشروع لأعادة الحياة إلى روح الأمّة، والنهوض بها من كبوتها التي طالت.

ولقد أكرمنا الله عز وجل وتفضّل علينا بهذا القرآن، وأرانا كيف يمكن أن يكون القرآن هو ذلك المشروع الذي تحيا به الأمة، وينهض بها، ويبني مجدها، ويعيدها إلى سيرتها الأولى.

ومع تيسّر القرآن للجميع إلاّ أن غالبية الأمة - إلاّ من رحم الله - قد هجرته وأعرضت عنه، ليصدق فيهم قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾[الفرقان:٣٠]، وكان من سوء حظ المسلمين أنّهم انشغلوا عن تدبّر القرآن وفهمه إلى أمور أخرى أبعدتهم عن الاستفادة من القرآن والتزود من هديه"[١].

فأمّا علماء أصول الدين وعلماء الكلام فقد اقتصر بحثهم على ماهيّة القرآن، وكيف هو؟، وهل هو قديم أو مُحدَث؟ مخلوق أو غير مخلوق؟، حتى جعلوا هذه المسألة أصلاً من أصول الدين، وركناً من أركان الإيمان[٢]!!.

---

(١) عن كتاب (العودة إلى القرآن كيف ولماذا؟) للدكتور مجدي الهلالي "بتصرّف".

(٢) تعمّدنا عدم ذكر مسألة خلق القرآن في ثنايا هذا البحث، لأنّ هذه المسألة في اعتقادنا غير ذات جدوى، باعتبار أنها ليست محل تكليف، ولسنا مساءلون عنها، هذا مع ما نعتقده بأنّ القول بقِدَم القرآن وأنّه غير مخلوق، كلام سفسطائي ينكره الواقع، وتكذّبه الأدلّة الواضحة التي لا ينكرها إلاّ متعصّب أو جهول، إذ أنّ القرآن الكريم ليس محل استثناء لما اشتمل عليه قوله تعالى: ﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾، ثمّ إنّ الله عز وجل قال في القرآن: أنزلناه، وفصّلناه، وبيّناه، وجعلناه، ونحو ذلك، وقال: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مَّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلاَّ اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[الأنبياء:٢]، وقال: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾[البقرة:١٠٧ =

وأمّا علماء التفسير فقد أشغلوا القارئ للقرآن عن فهم مقاصد القرآن وغاياته السامية بمباحث الإعراب، وقواعد النحو، ونكت المعاني، ومصطلحات البيان، وقراءات القرّاء، وجدل المتكلمين، وتخريجات الأصوليين، واستنباطات المجتهدين والفقهاء المقلّدين، وتأويلات المتصوّفين، وآراء الفلاسفة والباحثين، وتعصّبات الفرق والمذاهب، بالإضافة إلى ما داخَلَ تلك التفاسير من حشو الكلام، وما مزجت به من خرافات الإسرائيليات، وأخبار القصّاصين، وموضوعات الوضّاعين.

وأمّا الفقهاء فكانت مباحثهم دائرة حول الجدل في دلالة آيات القرآن، هل هي قطعيّة أم ظنّيّة؟، وما هو المتشابه منها وما هو المحكم، واقتصر بحثهم وتأمّلاتهم في آيات الأحكام، واختلفوا في عددها فقيل أنها مائة وعشرون، وقيل مائتان، وقيل أكثر، وأوصلها بعضهم إلى خمسمائة آية، وهي التي يلزم المجتهد معرفة معانيها ودلالتها دون غيرها من الآيات!!.

وأمّا علماء الحديث والمتسمّين بأهل السنّة فقد انشغلوا بالأحاديث ورواتها

هذا مع ما اشتمل عليه القرآن من ذكر قصص الأنبياء، وأخبار الأمم السابقة، كما أنه نزل منجّماً بحسب الأحداث والوقائع، على نحو قول الله عزّ وجلّ: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاء مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُواْ عَلَيْهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللهِ﴾، وقوله تعالى في شأن زواج النبي ﷺ بزينب بنت جحش بعد طلاقها من زيد بن حارثة: ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ﴾، فهل كانت مثل تلك الأسماء والوقائع وأمثالها قديمة حتى يقال بقِدَم القرآن الذي أخبر عنها؟!، سبحانك هذا بهتان عظيم.

ومرويّاتها عن القرآن وقراءاته، وعن فهم أحكامه وأسراره[1]، وقدّسوا السنّة حتى جعلوها حاكمة على القرآن، وساقهم ذلك إلى تأويل بعض آيات القرآن بما يتوافق مع مرويّات الآحاد وأدلّة السنّة الظنّيّة، وقد يدّعون أنّها ناسخة لما في القرآن من آيات صريحة واضحة.

وأما الأمراء والولاة فاكتفوا من القرآن أن يفتتحوا به الاحتفالات في المناسبات الرسميّة، وأن يتلى في الإذاعات والقنوات عند الحداد على موت ملك أو زعيم.

وأمّا العامّة –إلاّ من رحم الله– فقد اكتفوا من القرآن بالتبرّك به بوضعه في الرفوف، وتعليقه في الجدران، وتزيين البيوت والسيّارات والمكاتب بطبعاته الفاخرة، وبعض آياته المكتوبة على لوحات جميلة، واكتفوا من القرآن بقراءته في رمضان فحسب، وتلاوة ماتيسّر لهم منه في سائر الأيام على الأموات والمرضى.

---

(١) وقد فطن السلف من الصحابة والتابعين إلى هذا الخطر العظيم، فنهوا عنه، وحذّروا منه، ومن ذلك ما رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله، عن علي عليه السلام أنه خطب فقال: «أعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه، فإنما هلك الناس حيث تتبّعوا أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم».

وروي عن علقمة أنه لقي صحيفة مكتوب فيها حديث من أحاديث أهل الكتاب، فانطلق بها مع الأسود إلى عبد الله بن مسعود، وقالا له: هذه صحيفة فيها حديث عجيب، فقال: هاتها، ثم أمر جاريته أن تأتي بالطست، وسكب فيها ماء، وجعل يمحوها بيده، ويقول: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، قالا: انظر إليها فإن فيها حديثاً حسناً، فجعل يمحوها، ثم قال: «إنما هذه القلوب أوعية، فأشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره».

وعن عامر الشعبي، عن قرظة بن كعب أنه خرج مع بعض الصحابة يريدون العراق، فمشى معهم عمر بن الخطاب إلى خارج المدينة، ثم إنه ودّعهم فقال: «إنكم تأتون أهل قرية لهم دويّ بالقرآن كدوي النحل فلا تصدّوهم بالأحاديث فتشغلوهم، جرّدوا القرآن، وأقلّوا الرواية عن رسول الله ﷺ، امضوا وأنا شريككم»، فلما قدم قرظة على أهل العراق قالوا: حدّثنا، قال : نهانا عمر بن الخطاب.

وجهل المسلمون أو تجاهلوا أن القرآن الكريم منهج حياة جاءهم هبة ربّانيّة ومنحة إلهيّة من إلههم الخالق العليم رحمة منه وفضلاً، ليعينهم على السير في الحياة بما يحقق لهم السعادة في الدنيا والآخرة، فكانت النتيجة الحتميّة أن تلاشى ما بناه الجيل الأول من سلفهم من مجد وعزّ، وصرنا نحن المسلمين وللأسف في مؤخّرة الأمم، لا قيمة لنا ولا وزن، ولا لموقعنا مكانة، ولا لوجودنا اعتبار.

لذلك كان لا بدّ لنا من عودة حقيقيّة إلى القرآن، فننشغل به، ونتلوه حقّ تلاوته، في صلواتنا، وتهجّداتنا، وسائر أوقاتنا، وأن نتدبّر آيات القرآن الكريم، ونسير معه حيث سار، ونعمل بما دلّنا عليه قدر استطاعتنا، وعند ذلك سيعود لنا بإذن الله تعالى مجدنا الزائل، وكرامتنا الضائعة، وديارنا المسلوبة، ويتحقق بإذن الله عزّ وجلّ ماوعد به عباده المؤمنين، وأولياءه المخلصين، قال تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّـهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا**﴾ [النور:٥٥]، وقال وهو أصدق القائلين: ﴿**وَلَيَنصُرَنَّ اللَّـهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّـهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّـهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ**﴾[الحج:٤٠-٤١] [(١)].

---

(١) حول هذا الموضوع يراجع: مقدّمة تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، وكتابَي: (العودة إلى القرآن كيف ولماذا؟)، و(تحقيق الوصال بين القلب والقرآن) للدكتور مجدي الهلالي.

النبي الخــاتم

شاءت إرادة الله تعالى أن تكون الرسالات السماوية التي أنزلها الله وبعث بها أنبيـاءه وأنزل بها كتبه عبر الأجيال المتعاقبة؛ رسالات إصلاح وهداية، وكانت كل رسالة مـن الرسالات السماوية تأتي مكمّلة لما قبلها من الرسالات ومتمّمة لها.

ولقد ظلت البشريّة عـلى مـدى قـرون طويلـة تكابـد الشـقاء، وتتخـبّط في الظلمات، وتعيش في مستنقع الجهل والتخلف والانحطـاط، حتـى أذن الله عـزّ وجل أن يرفع عن بني الإنسان غياهـب الظـلام، وأن تنقشـع عـنهم سـحائب الجهل والضلال، فأرسل للوجود نوره الذي أضاء الكون بنور العلم والحكمة، وذلك بأن أشرقت فيه شمس محمد بن عبدالله صلوات الله وسلامه عليـه وعـلى آله، فكان من أكبر نعم الله على خلقه، ومن أعظم مننه على عباده؛ أن بعثه فـيهم بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

فأنقذ الله البشريّة من هلاك محقـق، وأخـرج الإنسـانية بمبعثـه مـن ظلـمات الشرك إلى نور التوحيد، ومن ظلال الباطل إلى هداية الحق، ومن مزالـق العمـى إلى مدارج الهدى والرشاد، يقول الله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّـينَ رَسُـولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَـانُوا مِـن قَبْـلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِـمْ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِـيمُ * ذَلِـكَ فَضْلُ اللَّـهِ يُؤْتِيهِ مَـن يَشَـاء وَاللَّـهُ ذُو الْفَضْـلِ الْعَظِـيمِ**﴾[الجمعة:٢-٤] ، ويقـول

سبحانه: ﴿قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللَّـهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّـهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[المائدة:١٥-١٦].

وما من شك أنّ محمد بن عبدالله ﷺ هو أفضل الرسل مكانة، وأعلاهم منزلة، بدليل أن الله أخذ العهد على جميع الأنبياء والرسل بالإيمان به واتباعه إذا بُعث فيهم، وأوجب عليهم التبشير به والإخبار بمبعثه، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّـهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُواْ أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُواْ وَأَنَاْ مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾[الأحقاف:٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّـهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾[الصف:٦].

فدلّ ذلك أنّ سيّدنا محمداً ﷺ كان مُبشَّراً به بين سائر الأنبياء والمرسلين، وأنهم جميعاً كانوا مأمورين باتّباعه والتسليم له، وفي ذلك يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله: «**لَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إلا اتِّبَاعِي**»[1].

ومن هنا ندرك سر عظمة النبي الأعظم ﷺ، وهو أن الله سبحانه وتعالى

---

(١) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن جابر بن عبد الله، ولفظه: أنّ عمر أتى النبي ﷺ فقال: إنا نسمع أحاديث من اليهود تعجبنا، أفترى أن نكتب بعضها؟ فقال: «**أَمُتَهَوِّكُونَ أَنْتُمْ كَمَا تَهَوَّكَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى؟ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِهَا بَيْضَاءَ نَقِيَّةً، وَلَوْ كَانَ مُوسَى حَيًّا مَا وَسِعَهُ إِلَّا اتِّبَاعِي**».

اصطفاه رحمة للعالمين، واختاره رسولاً إلى الناس أجمعين، وبعثه بـدين الإسـلام الخالد الذي أكمل الله به دينه، وأتم به نعمته على الناس، وجعله خاتمـة الأديـان والرسالات.

ومن المعلـوم أنّ الصـفات الحميـدة والخصـال الكريمـة التـي اتصـف بهـا النبي ﷺ هي ولا شك فوق وصـف الواصـفين، فقـد بلـغ الرسـول ﷺ أوج الكمال البشري، حيث اجتمعت فيه خصال الجمال والكمال التي لم ولن تكون في غيره، فكان صلوات الله وسـلامه عليـه وعـلى آلـه الإنسـان الكامـل في خَلْقـه وصورته، والكامل في خُلُقه وسـجاياه، والكامـل في أدبـه وسـيرته، وفي عقلـه ومنطقه، وفي كل جانب من جوانب شخصية الرسول ﷺ تبرز معـاني العظمـة والرقي، فلم يرَ الرائي قبله ولا بعده مثله قط، ولقـد كـان ذلـك محـل إعجـاب الشعراء والخطباء والبلغاء الذين امتلأت بطون الكتب من مدائحهم وإطراءاتهم ووصفهم للنبي ﷺ منذ عصر الصحابة إلى يومنـا هـذا وإلى أن تقـوم السـاعة، ومن ذلك قول حسان بن ثابت في قصيدة يمدح بها المصطفى ﷺ حيث قال:

وَأحسَـنُ منْـكَ لم تَـرَ قَـطُّ عيْنـي ... وَأجمَـلُ منْـك لم تَلِـدِ النِّسَـاءُ

خُلِقْـتَ مُـبَرَّأً مِـنْ كُـلِّ عيْـبٍ ... كَأَنَّـكَ قـدْ خُلِقْـتَ كَـمَا تَشَـاءُ

وقال غيره:

كَمُلتْ مَحاسِـنُهُ فَلَـوْ أهْـدى السـنَا ... للبَـدْرِ عنْـدَ تَمامِـهِ لم يُخْسُـفِ

وَعـلى تَفَـنُّنِ وَاصِـفِيهِ بوصْـفِهِ ... يَفْنَى الزَّمَـانُ وفيْـه مَـا لم يُوصَـفِ

وتتجلّى عظمة الكمال المحمّدي في الآتي[1]:

١- كرم الأصل وطيب المعدن:

فقد ولد ﷺ من أشرف مَحتِد وأكرم أصل، بلا جدال ولا فصل، فكان نخبة بني هاشم وصميمها وأشرفها، لم يلتقِ أبواه على سفاح قط، ولم يزل الله ينقله من الأصلاب الطيّبة إلى الأرحام الطاهرة، صفيًّا مهذّباً، لا تتشعب شعبتان إلا كان في خيرهما -كما ورد الخبر بذلك- وفي ذلك يقول الصادق المصدوق صلى الله عليه وعلى آله: «**إِنَّ اللَّـهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**»[2]، وفي رواية:«**إِنَّ اللَّـهَ عز وجل خَلَقَ الْخَلْقَ، فَاخْتَارَ مِنَ الْخَلْقِ بَنِي آدَمَ، وَاخْتَارَ مِنْ بَنِي آدَمَ الْعَرَبَ، وَاخْتَارَ مِنَ الْعَرَبِ مُضَرَ، وَاخْتَارَ مِنْ مُضَرَ قُرَيْشًا، وَاخْتَارَ مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاخْتَارَنِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَأَنَا مِنْ خِيَارٍ إِلَى خِيَارٍ**»[3].

وقد اختار الله نبيّه محمداً ﷺ واصطفاه في هذا النسب الطاهر، كما اختار من قبله من الأنبياء واصطفاهم من أعلى الناس وأشرف الأنساب؛ حتى لا يعيّرهم أحد بنسبهم، أو يطعن في أصلهم.

٢- حكمته ورجاحة عقله:

فقد بلغ الرسول ﷺ من كمال العقل وسموّ الفكر الغاية القصوى التي لم

---

(١) **المصادر**: (محمد الإنسان الكامل) للسيد محمد علوي المالكي، و(خاتم النبيين) للشيخ محمد أبو زهرة، و(الرحيق المختوم) لصفي الدين المبارك فوري.

(٢) رواه أحمد، ومسلم، والترمذي، وأبويعلى، عن واثلة بن الأسقع.

(٣) رواه الطبراني في الأوسط، والحاكم في المستدرك، عن عبد الله بن عمر.

يبلغها أحد سواه، وما توافر العقل في إنسان كما توافر في محمد بن عبد الله ﷺ، ولو لم ينزل عليه الوحي لكان صلوات الله عليه وعلى آله قادراً بما منحه الله من عقل وحكمة أن ينشئ دولة، وأن يقيم مجتمعاً مدنيًّا فاضلاً، ولقد علمت قريش بكمال عقله وقوّة إدراكه، ولذلك ارتضت به حكماً وهو لا يزال شابًّا يافعاً يوم أن أعادت قريش بناء الكعبة، واختصموا فيمن يضع الحجر الأسود في مكانه، حيث ادّعت كل قبيلة أنها الأحق بذلك دون سواها، واحتدم الخلاف بين قبائل قريش وبطونها، وكادت الحرب أن تنشب بينهم، وارتضوا بعد ذلك على أن يحكّموا بينهم أول من يدخل عليهم، فكان الداخل عليهم هو محمد بن عبد الله ﷺ فقالوا: رضينا بالصادق الأمين حكماً. فقال لهم رسول الله -ﷺ هلمّ إليّ بثوب، فلما أتوا بالثوب أخذ الحجر الأسود ووضعه فيه ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه، ففعلوا، فلما وضعوه جوار الكعبة حمله بيده ووضعه في موضعه، فسلّموا لحكمه، وارتضوا بفعله.

ويتجلّى كمال عقله وحكمته في مواقف كثيرة ومواطن متعدّدة لايسع المجال لسردها، ومن ذلك أن شابًّا جاء يستأذنه في الزنا، فقال له الرسول ﷺ: «أترضاه لأمك أو أختك أو إبنتك؟» فقال: لا. قال: «وكذلك الناس يكرهونه». فما كان من الشاب إلاّ أن تاب وعزم على أن لا يعود إلى الزنا.

وبهذا العقل الحكيم نشر الرسول ﷺ دعوته على أساس من الحكمة والموعظة الحسنة، وأدار الرسول ﷺ دولة الإسلام التي قامت على حكم الله وتطبيق شرعه، وقاد المعارك الحربية بحنكة دالّة على براعة عسكريّة وقيادة حربيّة وخبرة بأساليب الحروب وحسن إدارة الجيوش، وسياسة للأمور مع

الأصدقاء والأعداء بشكل لم يعهد له مثيل، واستطاع في فترة قصيرة أن يقضي على الشرك في جزيرة العرب، وأن يقوّض دولتي الفرس والروم، في حين أنه لم يكن قد تعلّم الفنون الحربية ولا النظم السياسيّة في مدرسة ولا كلّيّة.

٣- رحمته بأمّته وحرصه على هدايتها:

فقد كان ﷺ أرحم الناس بأمّته وأشفقهم بها، وإننا لا نغالي إذا قلنا: إن الرحمة بلغت نسقها الأعلى في شخصيّة النبي ﷺ الذي أرسله الله رحمة للعالمين، ولقد شهد الحق تبارك وتعالى للنبي ﷺ بما كان عليه من الرحمة والشفقة على أمته في مواضع كثيرة من كتاب الله الكريم، فقال تعالى: ﴿**لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [التوبة:١٢٨]، وقال جل وعلا: ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ**﴾[آل عمران:١٥٩]، وقال سبحانه: ﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً**﴾ [الكهف:٦].

ولقد كانت سيرته مع الناس نموذجاً للرحمة والشفقة، ومثلاً أعلى للعطف والحنان، فإنه لمّا كذّبه أهل الطائف وسلّطوا عليه سفهاءهم، ورموه بالحجارة حتى أدموه، نزل عليه جبريل عليه السلام فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. ثم ناداه ملك الجبال فسلّم عليه ثم قال: يا محمد إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك بما شئت، فإن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «بل

أرجو أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا»، وكان ذلك قبل الهجرة.

ولو افترضنا أنّ الرسول ﷺ وقف ذلك الموقف لعجزه وضعفه، فإنه ﷺ قد وقف موقفاً آخر بعد أن رجع ﷺ من حنين ومعه اثنا عشر ـ ألف مقاتل، وتوجّه إلى الطائف لقتال من شرد إليها من حنين، فحاصرهم بضعاً وعشرين ليلة، وقاتلهم قتالاً شديداً، فلم يظفر بهم، فانصرف عنهم، فلما انصرف قال له بعض أصحابه: ادع عليهم. فقال ﷺ: «**اللَّـهُمّ اهْـدِ ثَقِيفًـا وَأْتِ بِهِـمْ**»، ومثل ذلك ما قاله يوم أحد؛ وقد كُسرت رباعيّته، وجُرح وجهه، وهُشّمت البيضة على رأسه، فما زاد على أن قال: «**اشْتَدَّ غَضَبُ الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَى قَوْمٍ كَلَمُوا وَجْهَ نَبِيِّهِ**»، ثم مكث ساعة، ثم قال: «**اللَّـهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي فَإِنَّهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**».

٤- زهده:

كان ﷺ أزهد الناس في الدنيا، فلم يكن يدّخر لنفسه شيئاً مما كان يدر عليه من مال خديجة، ولا مما كان يحصل عليه من سهمه في الغنائم ونصيبه في الفيء وغيرها، وقد فتحت عليه الفتوحات وجلبت إليه الأموال من كل مكان وهو معرض عن الدنيا زاهد في حطامها، ولقد عُرض عليه أن تكون له بطحاء مكة ذهباً فقال: «**لَا يَا رَبِّ، وَلَكِنْ أَجُوعُ يَوْمًا وَأَشْبَعُ يَوْمًا، فَإِذَا شَبِعْتُ حَمِدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ، وَإِذَا جُعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَدَعَوْتُكَ**»[1].

وكان ﷺ يكره التنعّم والترفّه في الفراش، وفي المأكل والمشرب والملبس،

---

(١) رواه أحمد والترمذي عن أبي أمامة.

وغير ذلك، فكان ﷺ ينام على الحصير حتى يؤثّر على جنبه، وكان يتوسّد بحِشْية من ليف، وربما عرض عليه بعض أصحابه أو زوجاته إصلاح فراشه فيقول: «**مَالِي وَلِلدُّنْيَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ مَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ سَارَ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، فَاسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[1].

وكان ﷺ لا يدّخر شيئاً لنفسه، وان ادّخر فإنما يدّخر لأهله، وكان يقتصر في مأكله على القوت الضروري، ويقنع منه باليسير، ويقول: «**اللَّهُمَّ ارْزُقْ آلِ مُحَمَّدٍ فِي الدُّنْيَا قُوتًا**»[2]، وفي رواية: «كَفَافاً»، وكان غالب طعامه خبز الشعير، وقد يكون معه التمر.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ -والتفت إلى أُحد- فقال: «**والله ما يسرني أن لآل محمد صلى الله عليه وسلم ذهبا أنفقه في سبيل الله، أموت يوم أموت وعندي منه دينار، إلا دينارا أرصده لدين**»، قال: فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم وما ترك ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمةً، ولقد ترك درعه التي كان يقاتل فيها رهناً بثلاثين قفيزا من شعير، ثم قال ابن عباس : لقد كان يأتي على آل محمد ﷺ الليالي، ما يجدون فيها عشاء.

وسبب زهد النبي ﷺ على هذا النحو حتى لا تفتنه الدنيا، أو تثبطه عن عبادة مولاه والاقبال عليه، وليكون في ذلك تسلية لفقراء المسلمين ومساكينهم يخفّف عنهم ما يعانوه من الفقر والعوز، ولذا كان ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ أَحْيِنِي**

---

(١) رواه أحمد والطبراني وابن حبان وأبويعلى عن ابن عباس.

(٢) رواه مسلم، والترمذي، وابن ماجه، وابن حبان عن أبي هريرة.

مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ»[1].

وليتطابق الفعل مع القول، فيكون قدوة لغيره في ذلك، فإنه لا يصح أن يدعو الرسول أمته إلى التقشّف والزهد وهو يرفل في الديباج والحرير.

٥- صبره وشجاعته:

فلقد كان ﷺ المثل الأعلى في الصبر، ممتثلاً أمر الله عز وجل حيث قال: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾[الأحقاف:٣٥]، وقال: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[النحل: ١٢٧]، وقال: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾[النحل: ١٢٧]، ونحو ذلك، فكان صبره ﷺ في سبيل الله يفوق صبر الصابرين، وتحمّله لأذى المعاندين يعلو على تحمّل العالمين.

ولقد كان المشركون جميعاً رجالهم ونساؤهم وصبيانهم يتصدّون له بالعداوة، ويقابلونه بأنواع الأذى، فكان ﷺ يقابل ذلك بالصبر والمصابرة على نحو ما هو معلوم من حياته وسيرته.

صبر على عداوتهم واستهزائهم وسخريتهم يوم أن جفوه وأنكروه وكذبوه ورموه بالسحر والجنون والكهانة وقالوا فيه وفي رسالته ما قالوا.

وصبر على أذى الأقارب يوم أن آذوه وأصحابه وأهله وعشيرته وحاصروهم في شعب بني هاشم حتى أكلوا الجيف وأوراق الشجر، وصبر

---

(١) رواه الترمذي، والبيهقي، والطبراني، عن عبادة بن الصامت.

عليهم حين أخرجوه من بلده وعادوه وحاربوه وتآمروا عليه.

وصبر على أذى الأباعد يـوم أن ذهـب إلى ثقيـف يعـرض علـيهم دعوتـه فـردّوه وسلّطوا عليه سفهاءهم وصبيانهم ورموه بالحجارة حتى أدموه، كما صبر عـلى مخادعـة المنافقين، وعداوة من جاوره في المدينة من اليهود، وغِلظة وجفاء من وفد إليه من أعراب البادية الذين لا عهد لهم بدين، ولا معرفة لهم بخلق ولا أدب.

وكذلك كان صبره في ميادين الحرب وساحات القتال، فكان بذلك أشـجع أصحابه، وأربطهم جأشاً، وأعظمهم ثباتاً، ولقد فرّ عنه أصحابه في أحد وحنين وهو ثابت في مكانه لم يتزحزح.

وعن أنس بن مالك قال: فـزع أهـل المدينـة ذات ليلـة، فـانطلق نـاس قِبَـلَ الصوت، فتلقّاهم رسول الله ﷺ راجعاً -وقد سبقهم إلى الصوت- وهـو عـلى فرس لأبي طلحة عُرْي، في عنقه السيف، وهو يقول: «لم تُرَاعوا، لم تُرَاعوا».

وفي وصف شجاعة النبي ﷺ ورباطة جأشـه يقـول عنـه فـارس الإسـلام الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام: «كنّا إذا حمي البأس ولقـي القـوم القـوم، اتقينـا برسول الله ﷺ، فما يكون منـا أحـد أدنـى مـن القـوم منـه». وفي روايـة: «وإن الشجاع منا ليحاذي الذي يحاذي رسول الله ﷺ».

٦- ورعه وعبادته:

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّـهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء**﴾[فاطر: ٢٨]، وما من شك أن أعلم الناس وأحكمهم وأعرفهم بالله هو الحبيـب المصـطفى ﷺ، لـذلك كـان

أورع الناس وأعظمهم تقوى وخشية من الله سبحانه وتعالى، ولقد قال عن نفسه وهو الصادق المصدوق في أكثر من موقف: «**أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ للَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ**»[1].

ولقد بلغ من خشوع النبي ﷺ وخشيته أنه كان يُسمع لجوفه في الصلاة أزيز كأزيز المِرجل[2].

وكان ﷺ يقوم الليل حتى تفطّرت قدماه، فقالت له بعض نسائه: لم تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟، قال: «**أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟**»[3].

وعن علي عليه السلام قال: «ماكان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق، ولقد رأيتنا ومافينا إلاّ نائم؛ سوى رسول الله ﷺ تحت شجرة يُصلّي حتى أصبح».

وكان ﷺ يكثر من التوبة والاستغفار في سائر أوقاته، ففي الحديث عنه ﷺ قال: «**إِنِّي لأَسْتَغْفِرُ الله وأَتُوبُ إِلَيْه في اليَوْمِ وَاللَّيْلَةِ مِائَة مَرَّة**»[4].

ولقد كان ﷺ من أكثر الناس تقوى، فكان أبعد الناس عن المحرّمات والشبهات، ومن ذلك ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ عن نفسه حيث قال: «**إِنِّى لأَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِي فَأَجِدُ التَّمْرَةَ سَاقِطَةً عَلَى فِرَاشِي أَوْ فِى بَيْتِى**

---

(١) رواه البخاري، والبيهقي، وابن حبان، عن أنس.

(٢) **الأزيز**: صوت غليان المرجل، وهو الإناء الذي يغلي فيه الماء، والمراد ما كان يعرض له في الصلاة من الخوف الذي يوجب ذلك الصوت، والحديث رواه الترمذي، والنسائي، وأبو داود، عن عبدالله بن الشخير.

(٣) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، والبيهقي، وابن حبان، عن عائشة.

(٤) رواه أحمد، والنسائي، والحاكم، وأبو يعلى، وابن ماجه، عن حذيفة.

فَأَرْفَعُهَا لآكُلَهَا ثُمَّ أُلْقِيَهَا خَشْيَةَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الصَّدَقَةِ»[1].

٧- جوده وكرمه:

كان ﷺ أجود ما يكون الجود، يؤثر على نفسه، ويعطي ما في يده ولو كان أحوج إلى ما يعطي، ويبذل الكثير وهو محتاج إلى القليل، فعن أبي ذر الغفاري قال: كنت أمشي مع النبي ﷺ في حرّة المدينة عِشاءً ونحن ننظر إلى أُحد، فقال: «**يَا أَبَا ذَرٍّ؛ مَا أُحِبُّ أَنْ أُحُدًا ذَاكَ لِي ذَهَبًا تَأْتِي عَلَيْهِ لَيْلَةٌ وَعِنْدِي مِنْهُ دِينَارٌ، إِلاَّ دِينَارٌ أَرْصُدُهُ لِدَيْنٍ، إِلاَّ أَنْ أَقُولَ بِهِ فِي عِبَادِ اللَّهِ هَكَذَا وَهَكَذَا**» وأومأ عن يمينه وعن شماله ومن قدامه.

وكان ﷺ يستحي أن يردّ سائلاً فإن كان له شيء أعطاه، وإن لم يكن معه شيء قال للسائل: «**مَا عِنْدِي شَيْءٌ أُعْطِيكَ، وَلَكِنِ اسْتَقْرِضْ حَتَّى يَأْتِيَنَا شَيْءٌ فَنُعْطِيَكَ**». قال ذلك لبعض من جاء يسأله وكان عنده عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله هذا أعطيته ما عندك فما كلّفك ما لا تقدر عليه، فكره رسول الله ﷺ قول عمر، فقام رجل من الأنصار فقال: بأبي أنت وأمي؛ أعط ولا تخف من ذي العرش إقلالا، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: «بهذا أمرت»[2].

ومما يذكر من كرم النبي ﷺ وسعة جوده أنه حمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام يقسّمها فما ردّ سائلاً حتى فرغ منها، وفي غزوة حنين غنم المسلمون الغنائم الكثيرة، وجاءه الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه، فوقف وقال: «**أَعْطُونِي رِدَائِي، فَلَوْ كَانَ عَدَدُ هَذِهِ الْعِضَاهِ**

(١) رواه البخاري، ومسلم، وابن حبان، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الترمذي والبزار عن عمر.

نَعَمًا[1] لَقَسَمْتُهُ بَيْنَكُمْ، ثُـمَّ لاَ تَجِـدُونِي بَخِـيلاً وَلاَ كَـذُوبًا وَلاَ جَبَانًـا»[2]، وجعـل النبي ﷺ يوزّع تلك الغنائم ولم يرجع منها بشيء، ولقد أعطى صفوان بن أميّـة غنماً بين جبلين، فرجع إلى قومه يقول لهم: يا قوم أسلِمُوا، فإن محمداً يعطي عطاءَ من لا يخشى الفقر.

وعلى كلٍّ فلقد كان المصطفى ﷺ في جوده وكرمه البحر الـذي لا ينضـب، وإنه لجدير بقول الشاعر:

هُـوَ الْبَحْـرُ مِـنْ أَيِّ النَّـوَاحِي أَتَيْتَـهُ	فَلُجَّتُـهُ المَعْـرُوفُ وَالْبَحْـرُ سَـاحِلُهْ
تَـــرَاهُ إِذَا مَـــا جِئْتَـــهُ مُـــتَهَلِّلاً	كَأَنَّـكَ تُعْطِيـهِ الَّـذِي أَنْـتَ سَـائِلُهْ
فَلَـوْ لَمْ يَكُـنْ فِي كَفِّـهِ غَـيْرُ رُوحِـهِ	لَجَـادَ بِهَـا فَلْيَتَّـقِ اللَّـهَ سَـائِلُهْ

٨- فصاحته وبلاغته:

كان النبي ﷺ يمتاز بفصاحة اللسان، وبلاغـة القـول، وكـان مـن ذلـك بالمحـل الأعلى، نصاعة لفظ، وجزالة قول، وقلّة تكلّف، أوتي جوامع الكلـم، وخـص ببـدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب، يخاطب كل قبيلة بلسانها، ويحاورها بلغتها، جاءه رجل من حمير فقال: أمن ام بر ام صيام في ام السفر؟ فقال رسول الله ﷺ: «لَـيْسَ مِـنِ أمْ بِـرِّ أمْ صِيَامُ فِي أمْ سَفَرِ»[3].

---

(١) **العضاه**: جمع عِضَة وهو شجر شوك كثير في الصحراء، **والنَّعَم**: الإبل.

(٢) رواه أحمد، والبخاري، وابن حبان، عن جبير بن مطعم . والطبراني عن ابن عباس.

(٣) رواه الطبراني عن كعب بن عاصم.

واجتمعت له ﷺ قوّة عارضة البادية وجزالتها، ونصاعة ألفاظ الحاضرة ورونق كلامها، إلى جانب التأييد الإلهي الذي مدّه الوحي، قال له بعض أصحابه: ما رأينا الذي هو أفصح منك؟ فقال: «**وما يمنعني وإنما أنزل القرآن بلساني لسان عربي مبين، وإني من قريش، ونشأت في بني سعد بن بكر؟**»[1].

٩- كمال خلقه:

حيث بلغ ﷺ في حسن الخلق وكماله مبلغاً ليس له حدود، ولقد كان ﷺ المثل الأعلى من عظيم الخصال وحلو الشمائل، وحميد السجايا، حتى قيل: إن أخلاق النبي ﷺ كانت في ذاتها أمراً خارقاً للعادة.

كان ﷺ شغوفاً بمكارم الأخلاق، محبًّا لها، متمسّكاً بها، وكان يقول: «**إِنَّمَا بُعِثْتُ لأُتَمِّمَ مَكَارِمَ الأَخْلاَقِ**»[2]، فكان لذلك جديراً بثناء ربه عليه وتزكيته له، حيث قال في كتابه الكريم: ﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾[ن:٤].

وتتجلّى عظمة وكمال الخلق المحمّدي في الآتي:

١- **حفظ اللسان**؛ حيث كان ﷺ يحفظ لسانه عن المراء والخصام والفحش والبذاء والسباب والكذب والمزاح إلاّ بحق، وكان أبعد الناس من سوء الأخلاق، لم يكن فاحشاً، ولا متفحّشاً، ولا لعّاناً، ولا صخّابا في الأسواق، وكان كثير الصمت لا يتكلّم إلاّ فيما لزم لتبيين حق، أو دفع باطل، أو تعليم جاهل، أو إرشاد ضال، أو غير ذلك من مواطن الخير، ومواضع البر.

(١) رواه أحمد، ومسلم، والترمذي، عن واثلة بن الأسقع.

(٢) رواه مالك، والحاكم، والبيهقي، عن أبي هريرة.

٢- **صدق الوعد والحديث**؛ وأما صدق النبي ﷺ وأمانته فقد شهد له بذلك العدو قبل الصديق، والبعيد قبل القريب، إذ لقّبه قومه بالصادق الأمين، فلقد عرف بالصدق منذ أن وعى، وما عرف عنه كذبة قط في حياته كلها، وكان من صدقه أنه كان أشد ما يكون على صدق الوعد والوفاء بالعهد، ومن ذلك ماروي عن عبد الله بن أبي الحمساء أنه بايع النبي ﷺ ببيع قبل أن يُبعث، فبقيَت له بقيّة، فوعده أن يأتيه بها في مكانه، فنسي، ثم ذكر بعد ثلاثة أيام، فجاء فإذا رسول الله ﷺ ينتظره في مكانه فقال له: «**يَا فَتَى لَقَدْ شَقَقْتَ عَلَيَّ، أَنَا هَا هُنَا مُنْذُ ثَلاَثٍ أَنْتَظِرُكَ**»[1].

٣- **حفظ الأمانة**؛ وأمّا أمانته فقد بلغ فيها مبلغاً عظيماً، حيث كان رجال قريش يضعون أماناتهم عنده، وقد بلغ من حفظه لأماناتهم ورعايته لها أن خلّف ابن عمه علياً بن أبي طالب عليه السلام يوم الهجرة ليؤدّي عنه الأمانات ويرجع الودائع إلى أصحابها، في حين أنهم كانوا على شركهم، وكانوا يعادونه حتى الجأوه وأصحابه للخروج من مكة وترك أموالهم وديارهم، وكان في ذلك ما يبرر أخذه لأماناتهم وودائعهم لو أراد.

٤- **الحلم والعفو**؛ كان الحلم والاحتمال، والعفو عند المقدرة، والصبر على المكاره، صفاتٌ أدبه الله بها، وكل حليم قد عرفت منه زلّة، وحفظت عنه هَفْوَة، ولكنه ﷺ لم يزدد مع كثرة الأذى إلاّ صبراً، وعلى إسراف الجاهل إلاّ حلماً، قالت عائشة: ما خُيّر رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما

(١) رواه أبو داود والبيهقي.

لم يكن إثماً، فإن كان إثماً كان أبعد الناس عنه، وما انتقم لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها.

كان ﷺ القدوة الحسنة والمثل الأعلى في الحلم، وكظم الغيظ، وسماحة النفس، وسلامة الصدر من الأحقاد والضغائن، حليماً، وافر الحلم، كثير الاحتمال، كثير الفضل والإفضال، يصل من قطعه، ويعطي من حرمه، ويعفو عمن ظلمه، ويغض طرفه عن القذى، ويحبس نفسه عن الأذى، ويصبر على ما يكره، ولا يزيده شدة الجهل إلاّ حلماً، لا يغضب لشيء يتصل بذاته، وكان أبعد الناس غضباً، وأسرعهم رضاً.

وقد ورد مما يدل على ذلك الشيء الكثير الذي لا يسع المقام لذكره، وليس أدل على ذلك مما فعله النبي ﷺ بعد أن دخل مكة فاتحاً وجمع له من كان بمكة من قريش، وكان معه عشرة آلاف مقاتل ينتظرون أمره فيهم، فما كان منه إلاّ أن قال: ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيراً، أخٌ كريم وابن أخٍ كريم، فقال: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، اذهبوا فأنتم الطلقاء.

٥- **التواضع ولين الجانب**؛ كان رسول الله ﷺ أبعد الناس عن الكبر، وأشدّهم تواضعاً، وألينهم عريكة، يجلس على الأرض، وينام عليها، ويمشي راجلاً، ويركب ما أمكنه من فرس أو بغل أو حمار، ويركب الحمار بلا سرج.

وفي وصف خلقه وشدّة تواضعه قالت عائشة: كان يخصف نعله، ويخيط ثوبه، ويعمل بيده كما يعمل أحدكم في بيته، وكان بشَراً من البشر، يَفْلِي ثوبه، ويحلب شاته، ويخدم نفسه، ويعلف ناضحه، ويقمّ البيت، ويعقل البعير، ويأكل

مع الخادم ويعجن معه، ويحمل بضاعته من السوق.

وكان ﷺ يأتي ضعفاء المسلمين، ويزورهم، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم، ولا يأتيه أحد حرّ أو عبد أو أمَة وله حاجة إلاّ قام معه في حاجته، وكان يحب المساكين ويجالسهم، ويؤاكلهم، ولا يحقّر فقيراً لفقره، ولم يكن يترفّع على عبيده وإمائه في مأكل ولا ملبس، وكان يخدم من خَدَمَه، ولم يقل لخادمه: أفٍّ؛ قط، ولم يعاتبه على فعل شيء أو تركه.

وكان ﷺ يبدأ من لقيه بالسلام، وإذا لقي مسلماً بدأه بالمصافحة، وكان يمنع عن القيام له كما يقومون للملوك، ولا يجلس إليه رجل يحدثه إلاّ أقبل عليه بوجهه، ولا يعرض عنه إلاّ أن يكون الرجل هو الذي يعرض عنه، وكان يكرم من دخل عليه وربما بسط له ثوبه، ويؤثر الداخل عليه بالوسادة التي تحته.

وكان ﷺ ليّن الجانب مع أهله وأصحابه وخدمه، يحادثهم، ويجلس فيهم كأحدهم، ويتألّفهم، ويكرم أهل الفضل في أخلاقهم، ويتألّف أهل الشر بالبشر إليهم، وإذا كان في سفر مع أصحابه لم يكن يتميز عليهم بشيء.

محبّة الرسول (ﷺ)

إنّ من الواجب على من يدّعي محبة الله تعالى أن يقدّم الدليل على هذه المحبّة، وإنه ما من شك أن ذلك لا يتأتّى إلاّ من خلال اقتران محبة الله بمحبة الرسول الأعظم ﷺ واتباعه.

ذلك لأن محبّة الرسول ﷺ هي الوسيلة الموصّلة إلى محبّة الله تعالى، ومحبّة الله تعالى ورسوله الكريم ﷺ هي الدين كله، وعليها مدار الهداية والتقوى، والصلاح والفلاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:٣١-٣٢].

لذلك كانت محبّة النبي ﷺ هي المنزلة الرفيعة العالية، التي يتنافس فيها المتنافسون، ويسعى إليها المجتهدون، ويتفانى عليها المحبون.

وكيف لا يكون الأمر كذلك ورسول الله ﷺ هو أحق من يجب أن تفزع القلوب لمحبّته، وهو الجدير بالإكبار والإعظام، لأن الله أنقذنا به من الضلال، وأخرجنا به من الظلمات إلى النور، وبواسطته منحنا الله سعادة الدنيا والآخرة، لذلك استحق أن يكون حظه من المحبّة له أوفى وأزكى من المحبّة للنفس والمال والأهل والأولاد ومن الناس أجمعين، مصداقاً لقول المصطفى ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُوْنَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ**»[1].

وإنه لمن نافلة القول أن نشيد بالمحبّة العظمى التي كان عليها الصحابة الأخيار الذين ضربوا المثل الأعلى في الحب المحمّدي، وقطعوا مراتب المحبّة وأقسامها، وفنيت نفوسهم صبابةً وشغفاً وتعلّقاً بذات المصطفى ﷺ وصفاته، فأحسّوا طعم الإيمان، وذاقوا حلاوته، مصداقاً لقول الرسول الأعظم ﷺ: «**ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمّا**

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة عن أنس وأبي هريرة.

سِواهُما، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلاّ للَّـهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ في الْكُفْرِ كَـما يَكْـرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّارِ»[1].

ومما يدل على مبلغ ما وصل إليه الصحابة من الحب العميق لرسـول الله ﷺ ماروي أن أبا الحسن علي بن أبي طالب عليه السلام سئل: كيـف كـان حـبُّكم لرسـول الله ﷺ؟ فقال: «كان والله أحب إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ومـن الماء البارد على الظمأ».

ولقد كان كل واحد من الصحابة الأخيار يحب رسول الله أكثر من نفسه التي بـين جنبيه، ويجود بروحه فداء للحبيب المصطفى ﷺ، ودفاعاً عن الدين الذي جاء به.

فهذا خبيب بن عدي لّما أسره المشركون بمكة وأخرجوه ليقتلوه، ولما شـدّوا وثاقـه على الخشبة تقدم منه أبو سفيان وقال له: أنشدك الله يا خبيب؛ أتحب أن محمدًا الآن عندنا مكانك يضرب عنقه، وأنك في أهلك؟، فقال خبيب: والله ما أحب أن محمـدًا الآن في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة، وإني جالس في أهلي. فقال أبو سفيان: ما رأيـت مـن الناس أحدًا يحب أحدًا كحب أصحاب محمدٍ محمدًا.

كل ذلك وغيره مما لايسع المقام لذكره كان من صحابة رسـول الله ﷺ؛ لعلمهـم بمنزلة الحبيب المصطفى ﷺ ومكانته، وما من شك أنهـم إنـما انتصروا وعـزّ شـأنهم بمحبتهم لرسول الله ﷺ واقتفائهم آثاره وخطاه، واتّباعهم شريعته وسنّته.

وإنه لا يتحقّق لأمّة الإسلام اليوم نصر ولا عزّ، ولا يكون لهم مجد ولا سـؤدد؛ إلاّ

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأبوداود عن أبي أمامة.

إذا ساروا في طريق المحبّة والإقتداء بالقائد الأعظم محمد بن عبد الله ﷺ.

والواجب علينا أن نؤدّي شكر ما أنعم الله به علينا ببعثة النبي ﷺ، وذلك بأن يكون الرسول ﷺ أحبَّ إلينا من أنفسنا وأموالنا وأهلينا ومن الناس أجمعين، وأن نترجم هذا الحب إلى عمل، وذلك بأن نسير على نهجه، ونقتفي أثره، ونتّبع سنّته، ونلزم أخلاقه وآدابه، وأن نجعله قدوةً لنا فيما نأتي ونذر، سائرين وراءه في درب الهدى، عاملين بتوجيهاته، منفّذين أوامره، مجتنبين نواهيه.

وهذه هي المحبّة المطلوبة التي يرضاها الله ورسوله، إذ ما من شك أن المحبّة الصادقة لله تعالى ورسوله هي التي يكون لها أثرها الكبير في نفس المؤمن، وتأثيرها الواضح على سلوكه وتصرّفاته، وإلاّ فهو قول كاذب، وادّعاء باطل، يصدق عليه قول الشاعر:

تَعصي الإلهَ وأنتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَذا لَعَمْريْ في القِيَاسِ بَديْعُ!!

لَو كَان حُبُّكَ صَادقاً لأطَعْتَهُ ... إنَّ المُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيْعُ

أهل البيت

أهل بيت رسول الله هم ولا شك أحق الناس بالحب والتقدير، فمحبتهم محبّة لرسول الله ﷺ، وتكريمهم تكريم له ﷺ.

وأهل البيت هم وصيّة رسول الله ﷺ الذي أوصانا الرسول صلوات الله عليه بمحبّتهم، وأوجب الله علينا في كتابه الكريم مودّتهم، فقال عزّ من قائل: ﴿**قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾[الشورى:٢٣]، أي قل يا محمد: لا أطلب منكم أجراً على الذي جئتكم به من الحق إلاّ أن تودّوني في قرابتي، وتصلوا الرحم التي بيني وبينكم.

وقال ﷺ: «**أَحِبُّوا اللَّـهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي بِحُبِّ اللَّـهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي بِحُبِّي**»[(١)]، وقال صلوات الله عليه وعلى آله: «**أَدِّبُوا أَوْلاَدَكُمْ عَلَى خِصَالٍ ثَلاَثٍ : عَلَى حُبِّ نَبِيِّكُمْ، وَحُبِّ أَهْلِ بَيْتِهِ، وَعَلَى قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ**»[(٢)].

وعن زيد بن أرقم قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه و سلم يوما خطيبا بماء يدعى خُمًّا، فحَمِد اللَّـهَ وأثنى عليه، ووعظ وذكّر، ثم قال: «**أَمَّا بَعْدُ أَلاَ أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِىَ رَسُولُ رَبِّى فَأُجِيبَ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ**

---

(١) رواه الترمذي والطبراني والحاكم، عن ابن عباس.

(٢) رواه الديلمي وابن النجار في تاريخه عن علي عليه السلام.

أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ»، فحث على كتاب الله ورغّب فيه ثم قال: «**وَأَهْلُ بَيْتِي؛ أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي**»[1].

ويكفي أهل البيت النبوي الشريف من علو الشأن ورفيع المنزلة أن الله تعالى أوجب الصلاة عليهم في الصلاة، وجعل الصلاة عليهم مقرونة بالصلاة على رسوله ﷺ، وما من مسلم ولا مسلمة إلاّ وهو يصلّي عليهم، ويدعو لهم، إمتثالا لأمر الله ورسوله.

فعن كعب بن عجرة قال: يا رسول الله؛ قد علمنا -أو قال: قد علّمتنا- كيف نسلّم عليك، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «**قُولُوا اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ وَبَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**»[2].

وهذه هي الصلاة الواجبة التي لا تتمّ الصلاة إلاّ بها، ولا تصحّ إلاّ بأدائها، ولا تُقبل إلاّ بذكرها، وفي ذلك يقول الإمام الشافعي رضوان الله عليه:

يَا آلَ بيتِ رسُولِ اللَّهِ حُبُّكمُ ... فَرضٌ من اللَّهِ في القُرآنِ أنْزَلَهُ

كَفَاكمُ من عظِيمِ الشَّأنِ أنَّكُمُ ... منْ لمْ يُصَلِّ عَلَيكُم لَا صَلاةَ لَهُ

وقد ورد في فضل أهل البيت في كتاب الله تعالى وسنّة رسوله ﷺ الشيء

---

(١) رواه مسلم عن زيد بن أرقم، وسيأتي ذكر الحديث بروايات أخرى وتخريجه قريباً.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه، عن كعب بن عجرة، وأبي مسعود البدري، وغيرهما.

الكثير الذي لا يسع المجال لذكره، وإنّه من الواجب علينا شرعاً أن نحب أهل بيت رسول الله وذريّته، وأن نحترمهم ونجلّهم، حبًّا لرسول الله ﷺ وإجلالاً له، ونودّهم نزولاً عند أمره، وتنفيذاً لوصيّته.

ومما ورد في فضل أهل البيت والوصيّة بهم مايلي:

(١) **آية المودّة**: وهي قوله تعالى: ﴿**قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾ [الشورى:٢٣]، ويدل على اختصاصها بأهل البيت ماروي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لمّا نزلت: ﴿**قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**﴾ قالوا: يا رسول الله؛ ومن قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودّتهم؟ قال: «**عَلِيٌّ وَفَاطِمَةُ وَابْنَاهُمَا**»[١].

وروى الإمام أبو طالب في أماليه وغيره من خطبة للإمام الحسن بن علي عليهما السلام بعد مقتل أبيه سلام الله عليه، قال فيها: «وأنا من أهل البيت الذين افترض الله مودّتهم على كل مسلم فقال تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿**قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا**﴾ فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت»[٢].

(٢) **حديث الثقلين**: وهو الحديث المروي عن زيد بن أرقم وغيره الذي سبق ذكره، وهو في رواية بلفظ: «**إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنْ الْآخَرِ: كِتَابُ اللَّهِ؛ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا**»، وفي رواية: «**إِنِّي أُوشِكُ أَنْ**

(١) رواه الطبراني في الكبير، وأحمد بن حنبل في فضائل الصحابة، عن سعيد بن جُبير.
(٢) رواه الطبراني وأبو يعلى وابن حبان والحاكم.

أُدْعَى فَأُجِيبَ، وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ الثَّقَلَيْنِ؛ كِتَابَ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنْ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَإِنَّ اللَّطِيفَ الخَبِيرَ نَبَّأَنِي أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ، فَانْظُرُوا كَيْفَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا»[1].

(٣) حديث السفينة: وهو قول النبي ﷺ: «**إِنَّمَا مَثَلُ أَهْلِ بَيْتِي فِيْكُمْ كَمَثَلِ سَفِيْنَةِ نُوحٍ؛ مَنْ رَكِبَهَا نَجا، ومَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ وَهَوَى**»[2].

(٤) آية المباهلة: وهي قوله تعالى: ﴿**فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ**﴾[آل عمران:٦١]، جاء في سبب نزول الآية أنّه لمّا عرض رسول الله ﷺ الملاعنة على نصارى نجران قبلوا ذلك منه، وفي اليوم الثاني خرج رسول الله ﷺ إليهم آخذاً بيد الحسن، والحسين يتبعه، وفاطمة تمشي من خلفه، وقال لعلي: اتبعنا، فلمّا رآهم النصارى خافوا من الملاعنة، فدعاهم الرسول ﷺ إلى الإسلام فأبوا ورضوا بالمصالحة، فالتزموا بأداء الجزية للمسلمين والبقاء على دينهم.

(٥) آية التطهير وحديث الكساء: فآية التطهير قول الله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[الأحزاب:٣٣].

وحديث الكساء هو حديث أم سلمة المشهور في نزول آية التطهير، رواه عنها ربيبها عمر بن أبي سلمة وغيره، وذلك أنّ هذه الآية نزلت على رسول الله ﷺ

(١) رواه أحمد ومسلم والنسائي والترمذي والطبراني والحاكم وأبو يعلى، عن زيد بن أرقم وأبي سعيد الخدري.

(٢) رواه الإمام أبو طالب في أماليه وابن جرير والحاكم والطبراني وأحمد بن حنبل في فضائل الصحابة عن أبي ذر، وأخرجه البزار والطبراني عن ابن عباس وأبي سعيد الخدري .

وهو في بيت أم سلمة، فدعا الحسن والحسين وفاطمة وعليًّا، فأجلسهم بين يديه، وتجلّل هو وهم بالكساء، ثم قال: «**اللَّـهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي فَأَذْهِبْ عَنْهُمُ الـرِّجْسَ وَطَهِّرْهُمْ تَطْهِيرًا**»، فقالت أم سلمة: وأنا معهم يا رسول الله؟، فقال: «**لاَ؛ وَأَنْـتِ عَلَى خَيْرٍ**»، وفي رواية: «**أَنْتِ عَلَى مَكَانِكِ، وَأَنْتِ عَلَى خَيْرٍ**»[1].

وفي آية التطهير وحديث الكساء جملة أحكام، نوجزها فيما يلي:

١- أن أنّ لفظ أهل البيت مصطلح شرعي لا يُقصد به إذا أطلق إلاّ الأربعة الذين ضمّهم الكساء، وهم: علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام، ويلحق بهم من تناسل منهم بدليل دخولهم في حكم تحريم الزكاة عليهم.

٢- أنّه لا يُقصد بأهل البيت في الآية أزواج النبي ﷺ، حيث أنّ ما فعله ﷺ من ضمّه للأربعة المذكورين تحت كسائه، وقوله: «**اللَّـهُمَّ هَؤُلَاءِ أَهْلُ بَيْتِي**» إنّما هو بمثابة تفسير عملي للآية، هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإنّ النبي ﷺ زاد الأمر توضيحاً ورفع الإشكال بأن منع أم سلمة من الدخول معهم في كسائه لّما قالت: وأنا معهم يا رسول الله؟ فقال: «**لاَ؛ وَأَنْتِ عَلَى خَيْرٍ**».

٣- عصمة أهل البيت المذكورين من الشرك والكفر وكبائر المعاصي، حيث أخبر سبحانه وتعالى أنه قد شاءت إرادته وسبق حكمه بإذهاب الرجس عنهم، وأكّد ذلك بقوله: ﴿**وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾.

والمراد بالرجس في الآية الرجس المعنوي ويقصد به نجاسات الكفر

(١) رواه الترمذي، وأخرجه مسلم والبيهقي عن عائشة، والبزار والحاكم عن عبد الله بن جعفر، وأحمد والطبراني والبيهقي والحاكم وابن حبان عن أم سلمة وواثلة بن الأسقع.

والمعاصي، وذلك لأن أهل البيت يشتركون في النجاسات الحسّيّة كالحدَث، والجنابة، والحيض، ونحو ذلك، مع سائر الناس، فهم وغيرهم فيها على سواء.

وأمّا أهل البيت ممن تناسل منهم فلا تشمل العصمة أفرادهم، وإنما العصمة لمجموعهم، ولقد شاءت إرادة الله عزّ وجل أن يبقى الخير فيهم والحق معهم إلى أن تقوم الساعة، بدليل حديث الثقلين السابق، وهو قوله: «**وَإِنَّ اللَّطِيفَ الخَبِيرَ نَبَّأَنِي أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا** -أي الكتاب والعِترة- **حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الحَوْضَ**». والله تعالى أعلم.

هذا هو القليل النادر مما ورد في فضل أهل البيت، ولو ذهبنا نفتّش عما ورد في فضلهم على الجملة، وما ورد في فضل أفرادهم -لاسيّما عليًّا وفاطمة والحسين والحسين- لاحتجنا في ذلك إلى مجلدات، وكل ذلك يدل دلالة واضحة على اختصاص أهل البيت بالمكانة والفضل دون غيرهم من سائر الناس، ﴿**ذَلِكَ فَضْلُ اللَّـهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاء وَاللَّـهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ**﴾[الجمعة:٤].

ولعلّ هذا التفضيل إنما كان لعدّة أسباب أهمّها: اتصالهم برسول الله ﷺ باتصال النسب والقرابة، إضافة إلى ما كانوا عليه من الإجتهاد في الطاعة والعبادة، وما كان لهم من الدور البارز في نصرة الدين، وحرصهم على هداية الأمّة، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما قدّموه من تضحيات في سبيل المحافظة على روح الإسلام ومبادئه السامية، حيث قدّموا أرواحهم رخيصة في الجهاد في سبيل الله؛ لإحقاق الحق، وإبطال الباطل، وإقامة الشرع، وإحياء الدين، ورفع الظلم عن كاهل الأمة، ابتداء بالإمام الحسين بن علي، ثم حفيده الإمام زيد بن علي، ثم من سار على نهجهم من الأئمّة سلام الله

عليهم أجمعين.

روي عن الحسين بن علي عليهما السلام أنه لمّا توجّه إلى العراق خطب في أصحابه قائلاً: «**إن هذه الدنيا قد تنكّرت وأدبر معروفُها، فلم يبقَ منها إلاّ صَبابةٌ كصبابة الإناء، وخَسيس عيشٍ كالمرعى، ألا ترون إلى الحق لا يُعمل به، وإلى الباطل لا يُنهى عنه؟، ليُرغّب المرء في لقاء ربه، فإني لا أرى الموت إلاّ سعادة، والحياة مع الظالمين إلا شقاوة**»، ثم قال: «**إني لم أخرج أشَراً ولا بَطَراً، ولا مُفسداً ولا ظالماً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمّة جدّي**».

ومثل ذلك ما كان من الإمام زيد بن علي سلام الله عليه حين خرج على هشام بن عبد الملك وقد رأى ما رأى من جوره وظلمه وفساده، فخرج عليه بمن معه من أهله وأصحابه، فلمّا خفقت راياته فوق رأسه؛ رفع يديه إلى السماء ثم قال: «**الحمد لله الذي أكمل لي ديني، أما والله لقد كنت أستحي أن أقدم على محمدٍ صلى الله عليه وآله وسلم ولم آمر في أمته بمعروفٍ ولم أنه عن منكرٍ، والله ما أبالي إن أقمت كتاب الله وسنّة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم أنه تأجّجت لي نار ثم قذفت فيها، ثم صرت بعد ذلك إلى رحمة الله**».

وقال عليه السلام: «**وددت لو أنّ يدي ملصقة بالثريّا، وأن أقع على الثرى، فأتقطع إرباً إربا، وأنّ الله يصلح بي أمر هذه الأمة**».

وعلى هذا النهج سار بقيّة الأئمّة من أهل البيت سلام الله عليهم، وسيظلّون كذلك إلى أن تقوم الساعة.

وأيًّا كانت الأسباب التي يمكن أن نتصوّرها، فهي في نظرنا قاصرة عن

معرفة سرّ هذا التفضيل، حيث وأنّ هناك من غيرهم مَن قد يشاركهم في بعضها أو في جميعها، لكنه في نهاية الأمر فضل الله الذي يؤتيه من يشاء من خلقه، قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[النساء:٥٤].

ولسنا مخاطبين بأن نبحث في ذلك، أو نتساءل عنه، وإنما من الواجب علينا أن نقول: سمعنا وأطعنا، وأن نقوم بما يجب علينا شرعاً نحو أهل بيت رسول الله ﷺ وذرّيّته، ومن تلك الواجبات ما يلي[1]:

١- الإقرار بأنهم صفوة الله وخيرته من هذه الأمّة.

٢- الإقرار بأنهم أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ، وأنهم حجج الله على خلقه.

٣- الإقرا بأنهم أهل الحق وقرناء الكتاب المبيِّنون للناس ما اختلفوا فيه.

٤- الاهتداء بهديهم، والاقتداء بأعلامهم، والانتماء إليهم.

٥- مناصرتهم بالقول والفعل، وبيان فضلهم ومكانتهم.

٦- إظهار محبّتهم ومودّتهم بالقول والفعل، وإظهار التوجّع مما نزل بهم، وموالاة أوليائهم، ومعاداة أعدائهم.

٧- الإحسان إليهم بكل وجوه الإحسان.

(١) **المصدر**: كتاب (قصد السبيل في معرفة الجليل) للسيد العلامة محمد عبد الله عوض المؤيدي "بتصرّف يسير".

الصُّحبة والصحابة

أكرم الله صحابة رسول الله ﷺ بصحبته ومعيّته، واختارهم لقربه وعشرته، واختصّهم بمشاهدته ورؤيته، واصطفاهم لجواره في بيته المحرّم وبلده الكريم، وتشرّفوا بالأخذ عنه، والسماع منه، والجلوس إليه، والاغتراف من بحر فضله الزاخر وخيره العميم، فاقتدوا بنصائحه وتعاليمه، وانتفعوا بتوجيهاته وإرشاداته، وتأسّوا بكل ما وهبه الله له من الفضائل والآداب، وما أنعم عليه من النفحات والبركات، فنسجوا على منواله في فعل الخير، وترسّموا خطاه في نشر البر، وساروا على نهجه القويم في إسداء الجميل، واصطناع المعروف.

ويكفي صحابة رسول الله ﷺ ما أنزل الله تعالى في كتابه الكريم من المدح لهم والإشادة بفضلهم، ومن ذلك قول الله عزّ وجل: ﴿**مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ [الفتح:٢٩].

وفيهم أنزل رب العزة تبارك وتعالى قوله: ﴿**لِلْفُقَرَاء الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ**

مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[الحشر:٨-٩]، ثم أمر تعالى من بعدهم من أهل الإيمان أن يدعوا لهم، ويترحموا عليهم، ويقدّروا لهم قدرهم وسابقتهم في نصرة الدين والدفاع عنه، فقال عزّ من قائل: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر:١٠].

ويكفيهم من الفضل والمكانة أن الله تعالى كتب لهم رضوانه، ووعدهم بمغفرته، وبشّرهم بجنته، فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[التوبة:١٠٠].

وما من شك أن تلك الآيات وغيرها لتدل دلالة واضحة على فضل الصحبة لرسول الله ﷺ وأنها نعمة كبيرة، ومنّة عظيمة، وفضيلة اختص الله بها ذلك الجيل الذي آمن برسول الله ﷺ وصحبوه وأخذوا عنه، وعزّروه، ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف:١٥٧].

هذا من ناحية، ومن ناحية ثانية فإن لهم فضل السَّبْق إلى الإسلام، وبجهادهم وتضحياتهم قام عمود الدين، وبهذا كان لهم من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلاّ الله تعالى، إذ أنهم قد شاركوا أفراد الأمة في كل حسنة من حسناتهم منذ عصر

النبي ﷺ إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، مصداقاً لقول النبي الأعظم ﷺ: «**مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلامِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ**»[١]، وفي رواية: «**مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَه، لاَ يَنْقُصُ ذلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيئاً**»[٢].

وقد ورد ورد في بعض الروايات عن النبي ﷺ ما يدل على ذلك، ومن ذلك:

- ما روي من قصة حاطب بن أبي بلتعة، وهو أنه كتب كتابًا إلى أهل مكة يخبرهم أن رسول الله ﷺ سيغزوهم، وكان رسول الله ﷺ قد أخفى ذلك عن الناس فلم يخبر به أحداً، فأطلع الله عَزَّ وَجلَّ نبيه ﷺ على كتاب حاطب، فبعث عليًّا والزبير في إثر الكتاب، فأدركا المرأة على بعير فاستخرجاه من قرونها، فأتيا به رسول الله صَلَّى الله عَلَيه وسَلَّم فقرئ عليه، فأرسل إلى حاطب، فحضر حاطب بين يدي النبي ﷺ وأقر بما فعل واعتذر عن فعله، فهم عمر أن يضرب عنقه، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ يَا ابْنَ الخَطّابِ لَعَلَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ**»[٣].

- ماروي أن خالد بن الوليد سبّ عبد الرحمن بن عوف -وقيل عمار بن ياسر- فلمّا أخبر رسول الله ﷺ بذلك قال لخالد: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَوَالَّذِي

(١) رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، عن جرير.

(٢) رواه مسلم، والترمذي، وابن ماجه، وأبوداود، عن أبي هريرة.

(٣) رواه مسلم والترمذي وابن ماجه والنسائي وأبوداود عن عمر.

نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أَنْفَقَ أَحَدُكُمْ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلَا نَصِيفَهُ»[1].

- ما ورد في كتاب الله تعالى من البشارة لأصحاب رسول الله ﷺ بالعفو عنهم، والتوبة عليهم، في مثل قوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[التوبة:١١٧]، ونحو ذلك من الآيات.

وعلى كلٍّ فإنّه من الواجب علينا أن نحسن الظن بصحابة رسول الله ﷺ، فلا نظن بهم إلاّ خيراً، بل ومن الواجب علينا أن ندعو لهم، ونترحم عليهم، امتثالاً لقول الله عزّ وجلّ: ﴿**وَالَّذِينَ جَاؤُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[الحشر:١٠]، إذ أنّ ما قدموه للإسلام من تضحيات، وما بذلوه من النفس والنفيس في سبيل الله لنصرة دينه، ورفع كلمته، لهو قليل وقليل جدًّا إذا ما قورن بأخطائهم ومخالفاتهم، وإذا ما أخذنا في الاعتبار فضل الله تعالى وسعة رحمته؛ ففضل الله أولى وأوسعُ.

ولنأخذ مثلاً على ذلك؛ وهو أن الله سبحانه وتعالى حثّ المؤمنين يوم بدر على الثبات في المعركة، وتوعّدهم بأليم العقاب إن حصل منهم تخاذل أوفرار من أرض المعركة، فقال عزّ من قائل: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفاً فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ * وَمَن**

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أبي سعيد.

يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفاً لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزاً إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاء بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّـهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾[الأنفال:١٥-١٦]، فلمّا كانت غزوة أحد حصل من الصحابة ما لم يكن في الحسبان، وهو أنهم فرّوا من أرض المعركة وتركوا رسول الله ﷺ يواجه جيش قريش بمفرده، ولم يبق معه إلاّ نفر قليل من أهل بيته وصحابته لا يتجاوزون عدد أصابع اليدين، وكان في صنيعهم هذا ما يوجب غضب الله ولعنته عليهم، وتعجيل عقوبته لهم، غير أن الله سبحانه وتعالى تفضّل عليهم بمغفرته، وبشّرهم بعفوه في آيات تتلى إلى يوم القيامة، فقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللَّـهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّـهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾[الأنفال:١٥-١٦].

فدلّ ذلك أنّ أصحاب النبي ﷺ ليسوا كسائر الناس فيما لهم من الفضل والمنزلة، وإذا كان الله تعالى فضّل السابقين من صحابة رسول الله ﷺ على غيرهم من الصحابة ممن دخلوا في الإسلام بعد أن قامت دولة الإسلام وقويت شوكتها، فقال: ﴿لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾[الحديد:١٠]، فكيف يُقارن الصحابة بغيرهم من التابعين ومن بعدهم؟!.

وإنّه من الواجب علينا أن نقف من أصحاب النبي ﷺ موقف الاعتدال والتوسّط، فلا يجوز أن نغالي فيهم فننزّلهم منزلة الأنبياء والرسل بأن نعتقد عصمتهم وتزكيتهم وعدالة جميعهم على الإطلاق، ولا أن ننزلهم في غير منزلتهم بالحط من شأنهم والاعتقاد بأنهم كسائر الناس لا فضل لهم ولا مكانة.

ومن الاعتدال والتوسط في عقيدتنا في الصحابة أن نأخذ في الاعتبار ما يلي:

أولاً: أنّ الصحبة إنّما يكون لها ذلك الفضل وينال بها صاحبها ما وعدهم الله من المغفرة والرضوان ودخول الجنان؛ إلاّ إذا كان من اتّصف بها من أهل الإيمان والتقوى والعمل الصالح، ولا تعني بأي حال أنها تزكية تدفع عن صاحبها استحقاق الذم، ولا أنها تعطي صاحبها حصانة من العقاب إذا ما ارتكب إثماً أوجرماً يستحق به ذلك، هذا إذا لم يكن الذنب منه من أعظم، والعقاب عليه أشد، ويدل على ذلك مايلي:

١- ماورد في حق نساء النبي ﷺ من الوعيد على العصيان والمخالفة، وذلك في قوله تعالى: ﴿**يَا نِسَاء النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا**﴾[الأحزاب:٣٠]، ومثله ما ورد فيما حكاه الله عن امرأتي نوح ولوط عليهما السلا، حيث يقول الله تعالى: ﴿**ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا اِمْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ**﴾[الأحزاب:٣٠].

٢- ماورد في تحذير صحابة رسوله ﷺ من المخالفة للرسول ﷺ والردّة عن الدين، وذلك في مثل قول الله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾[آل عمران:١٤٤]، وقوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَى نَفْسِهِ**﴾[الفتح:١٠]، وقوله تعالى: ﴿**فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ**

فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[النور:٦٣]، وقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ**﴾[الحجرات:٢]، وقوله ﷺ: «**لَيَرِدَنَّ عَلَيَّ الحَوْضَ رِجَالٌ مِمَّنْ صَحِبَنِي وَرَآنِي، حَتَّى إِذَا رُفِعُوا إِلَيَّ وَرَأَيْتُهُمُ اخْتُلِجُوا دُونِي، فَلأَقُولَنَّ رَبِّ أَصْحَابِي أَصْحَابِي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ**»[١]، ونحو ذلك من الآيات والأحاديث.

٣- ماورد في كتاب الله تعالى في التشنيع على أفعال بعض الصحابة ومخالفاتهم، ومن ذلك ماروي في شأن حادثة الإفك، وهو قوله تعالى: ﴿**وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاء فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[النور:٤]، فجلد النبي ﷺ حسان بن ثابت، ومسطحاً –وكان من أهل بدر– وحمنة بنت جحش.

وما ورد كذلك في شأن طُعمة بن أبيرق وإخوته، وكان قد سرق درعاً من دار جارٍ له وودعها عند يهودي، ولما اتُّهم طُعمة وخاف هو وإخوته الفضيحة رموا بها اليهودي، وقالوا: هو السارق، وأتوا رسول الله ﷺ وحلفوا على براءة أخيهم، فصدّقهم رسول الله ﷺ وهمّ بقطع يد اليهودي، وإذا بالآيات تنزل ببراءة اليهودي وإدانة طُعمة، وهي قوله تعالى: ﴿**إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا**﴾[النساء:١٠٥]، ولما افتضح طُعمة أعلن عن ردّته، وهرب إلى مكّة المكرمة، ونقب جدار منزل

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم والطبراني عن أنس.

ليسرقه، فسقط عليه الجدار، فمات تحته كافراً.

٤- ماورد من فعل النبي ﷺ في تأديب بعض أصحابه على بعض جرائمهم، وإجراء الحدّ عليهم، كما في شأن أهل الإ فك وغيرهم.

ثانياً: أنّ ما جاء في فضل الصحابة في القرآن والسنة، فإنه لا يعم العصاة منهم ولا المنافقين، وإن سمُّوا صحابة باعتبارهم شاهدوا الرسول ﷺ وجالسوه وجاهدوا معه، وإنما ذلك الفضل والكرامة لمن استقام على الإيمان، ولم يغيّر أو يبدّل، وأمّا من انقلب على عقبه في عهد النبي ﷺ أو بعد موته، وثبت أنه غيّر أو بدّل بارتكاب كبيرة والإصرار عليها، أو عمل أي عمل فيه ظلم للناس، أو محاربة للدين، أوعداوة لأهل الإيمان، فليس له من ذلك حظ ولا نصيب، وحكمه حكم من قال الله فيهم: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىَ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾[آل عمران:١٤٤] .

ثالثاً: أن الصحابة الذين ثبتت عدالتهم، وتحقّق صدق إيمانهم ليسوا في درجة واحدة في الفضل والمكانة، وإنما بعضهم أفضل من بعض، وهم في الفضل على الترتيب المذكور في قوله تعالى: ﴿**وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ**﴾ [التوبة:١٠٠].

فقد قسّمت الآية الصحابة إلى قسمين: السابقون الأولون، ثم من دخل بعدهم في الإسلام بعد هجرة النبي ﷺ ممن لم يكن لهم هجرة ولا نصرة، غير

أنهم اتبعوا من سبقهم من المهاجرين والأنصار بأحسن الأعمال، وذلك بالجهاد مع الرسول ﷺ، ومناصرته، والدفاع عن دينه، ثم يأتي بعدهم قسم آخر وهم الطلقاء ممن أسلم بعد الفتح ومن بعدهم، يقول الله تعالى: ﴿**لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّـهُ الْحُسْنَى وَاللَّـهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ**﴾[الحديد:١٠].

هذا وأهل كل قسم من هذه الأقسام الثلاثة ليسوا في درجة واحدة في الفضل والمنزلة، فبعضهم أفضل من بعض، بحسب السبق والجهاد.

مكانة الإمام علي ومنزلته

الذي نعتقده وندين الله به؛ أنّ أفضل السابقين واللاحقين من صحابة رسول الله ﷺ هو أمير المؤمنين الإمام علي بن أبي طالب سلام الله عليه، ويدل على ذلك ما يلي:

١ - **كونه من السابقين إلى الإسلام**؛ إذ لم يسبقه أحد غير خديجة عليها السلام، وكان يصلي مع رسول الله ﷺ وليس معهما أحد.

٢ - **كونه تربّى في حجر النبي ﷺ، وتولّى ﷺ رعايته منذ نعومة أظفاره.**

٣ - **كونه لم يتلطّخ بمعصية، ولم يتدنّس بأعمال الشرك والوثنية**؛ ولذا اصطلح المسلمون قديماً وحديثاً على قولهم: كرّم الله وجهه؛ عند ذكر إسمه، دون غيره من الصحابة.

٤- **قرابته من النبي ﷺ وكونه من أهل بيته، وزوج ريحانته فاطمة عليها السلام، ومؤاخاة النبي له، وإنزاله منه منزلة نفسه**؛ وهذه جملة مناقب معلومة بالضرورة، وقد ورد ذكرها مجموعة فيما روي من حديث سعد بن أبي وقاص، وهو أنّ معاوية بن أبي سفيان أمر سعداً أن يسب الإمام علي سلام الله عليه فامتنع، فقال له معاوية: ما يمنعُكَ أن تَسُبَّ أبا تُراب؟ فقال: أَمَّا ما ذكرتُ ثلاثاً قالهنَّ له رسولُ الله ﷺ فلن أَسُبَّه، لأَنْ تكون لي واحدة منهنَّ أحبُّ إِليَّ مِن حُمْر النَّعَم: سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول له -وقد خَلّفه في بعض مغازيه- فقال له علي: يا رسول الله؛ خَلَّفْتَني مع النساء والصبيان؟! فقال له رسولُ الله ﷺ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلا أَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِي؟»، وسمعتُه يقول يوم خيبرَ: «**لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّـهُ وَرَسُولُهُ**»، قال: فتطاولنا، فقال: ادْعوا لي عليًّا، فأُتِيَ به أَرْمَدَ، فَبَصَقَ في عينه، ودفع الراية إِليه، ففتح الله عليه، ولمّا نزلت هذه الآية : ﴿**نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ**﴾[1] [آل عمران:٦١] **دعا** رسولُ الله ﷺ عليًّا وفاطمةَ وحَسَناً وحُسَيْناً، فقال: «**اللَّـهُمَّ هَؤُلاَءِ أَهْلِى**»[2].

٥- **سيرته على ما كان عليه النبي ﷺ في كل أحواله**؛ ومن ذلك ما كان عليه من الزهد في الدنيا وعدم الركون إليها، فلقد بويع بالخلافة في المدينة فما بدّل

---

(١) نص آية المباهلة: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ الله عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾[آل عمران:٦١]، وقد سبق ذكر سبب نزول الآية ودلالتها في الدرس السابق، والشاهد في الآية هنا قوله تعالى: ﴿وَأَنفُسَنَا﴾ فإن رسول الله ﷺ بأمر من الله نزّل الإمام عليًّا عليه السلام منزلة نفسه، حين أخرجه معه للمباهلة.

(٢) الحديث رواه مسلم، والترمذي، والنسائي، والحاكم، والبزار، وقوله: «**اللَّهُمَّ هَؤُلاَءِ أَهْلِى**»، إنما وردت في خبر الكساء، وقد سبق ذكره وتخريجه، فلعل قوله: دعا رسولُ الله ﷺ عليًّا..إلخ سهو من الراوي، والله أعلم.

مسكنه ولا غيَّره، وكان مقرّ حكومته مسجد النبي -ﷺ، ولمّا انتقل إلى الكوفة رفض أن يسكن في دار الإمارة، وبني له بيتاً صغيراً متواضعاً إلى جنبه، ولقد حكم الناس خمس سنين ما وضع آجرة على آجرة، ولا لَبِنة على لَبِنة، ولا قصبة على قصبة، ولا أورث ذهباً ولا فضة، إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه أراد أن يشتري بها لأهله خادماً .

٦- ما ورد في فضله وتفضيله من الأحاديث الصحيحة الصريحة المتلقّاة بالقبول عند سائر فرق الأمّة؛ ومن ذلك:

١- **حديث المنزلة:** وهو قوله ﷺ: «**أَنْتَ مِنِّي - وفي رواية: أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي - بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى إِلاَّ أَنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي**»[(١)] .

٢- **حديث الغدير:** عن البراء بن عازب قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه و سلم في سفر فنزلنا بغدير خم فنودي فينا الصلاة جامعة وكسح لرسول الله ﷺ تحت شجرتين فصلى الظهر وأخذ بيد علي رضي الله تعالى عنه فقال: «**أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ؟**» قالوا: بلى. قال: «**أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَوْلَى بِكُلِّ مُؤْمِنٍ مِنْ نَفْسِهِ؟**» قالوا: بلى. قال: فأخذ بيد علي فقال: «**مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ اللَّهُمَّ وَالِ مَنْ وَالَاهُ وَعَادِ مَنْ عَادَاهُ**»[(٢)] .

٣- **حديث:** «**لَا يُحِبُّكَ إِلَّا مُؤْمِنٌ وَلَا يَبْغُضُكَ إِلَّا مُنَافِقٌ**»[(٣)] .

---

(١) رواه البخاري ومسلم والترمذي وابن ماجه وغيرهم، عن سعد بن أبي وقاص، وأم سلمة، وابن عمر، وغيرهم.

(٢) رواه أحمد والحاكم عن ابن عباس، وأحمد وابن ماجه عن البراء بن عازب، والترمذي والنسائي والطبراني عن زيد بن أرقم.

(٣) رواه مسلم والترمذي وابن ماجة والطبراني عن علي، وابن عباس، وعمران بن حصين، وفي رواية للنسائي عن ابن

٤- حديث: «مَنْ سَبَّ عَلِيًّا، فَقَدْ سَبَّنِي»[(١)].

٥- حديث: «عَليٌّ مَعَ القُرْآنِ وَالقُرْآنُ مَعَ عَلِيٍّ لَنْ يَتَفَرَّقَا حَتّى يَرِدَا عليَّ الحَوْضَ»[(٢)].

٦- حديث: «يا عمار؛ إن رأيت عليًّا قد سلك وادياً، وسلك الناس واديا غيره، فاسلك مع علي ودع الناس، إنه لن يدلّك على ردى، ولن يخرجك من هدى»[(٣)].

٧- قول النبي ﷺ في غزوة خيبر، بعد أن عجز المسلمون عن فتح الحصن: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ رَجُلاً يُحِبُّ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّـهُ وَرَسُولُهُ كَرَّارٌ غَيْرَ فِرَارٍ، يَفْتَحِ الله عَلَى يَدَيْهِ»[(٤)].

يضاف إلى ذلك ماورد في القرآن الكريم من التنويه بشأنه، ومن ذلك مايلي:

١- قوله تعالى: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّـهِ وَاللَّـهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ * الَّذِينَ آمَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّـهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ * يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ

عباس قال: نظر النبي ﷺ إلى علي فقال: «لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق، من أحبك فقد أحبني، ومن أبغضك فقد أبغضني، وحبيبي حبيب الله، وبغيضي بغيض الله، ويل لمن أبغضك بعدي».

(١) رواه أحمد والنسائي والحاكم وابن عساكر من حديث أم سلمة، عن أبي عبد الله الجدلي قال: دخلت على أم سلمة فقالت لي: أيُسَبُّ رسول الله ﷺ فيكم؟! قلت: معاذ الله!، قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول.. الحديث.

(٢) رواه الحاكم والطبراني في الكبير والأوسط عن أم سلمة.

(٣) رواه الديلمي في مسند الفردوس عن عمار بن ياسر وأبي أيوب الأنصاري.

(٤) رواه أحمد وابن ماجه والطبراني والحاكم عن علي، ومسلم والنسائي وابن حبان عن أبي هريرة.

﴿وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ * خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾[التوبة:١٩-٢٢]، نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب، والعباس بن عبد المطلب، وطلحة بن شيبة، تفاخروا فيما بينهم، فقال طلحة: أنا صاحب البيت، وعندي مفاتحه . وقال العباس: أنا صاحب السقاية، وقال علي: لقد أسلمت قبل الناس، وجاهدت مع رسول الله ﷺ، فنزلت الآية.

٢- قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لاَّ يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة:١٨]، نزلت هذه الآية في شأن الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وعلي بن أبي طالب، حيث قال الوليد لعلي: أنا أبسط منك لساناً، وأحدّ سِنانا، وأملأ في الكتيبة جسداً، فقال له علي: اسكت؛ فإنما أنت فاسق، فنزلت الآية.

٣- قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [السجدة:١٨]، نزلت هذه الآية حين وقف سائل على علي بن أبي طالب عليه السلام وهو راكع في صلاة، فنزع خاتمه فأعطاه السائل.

وكل تلك الأدلّة الواضحة، والحجج البيّنة، التي لا لبس فيها ولا شك، تدل دلالة واضحة أنّ عليًّا عليه السلام هو ولا شك أفضل الخلق بعد رسول الله ﷺ[1]،

(١) هذه المسألة هي جوهر الخلاف بين السنّة والشيعة، وهو خلاف سياسي أسّسه معاوية ومن جاء بعده من خلفاء بني أميّة وبين العباس، واستمر حتى وقتنا المعاصر.
فالشيعة بجميع مذاهبها تعتقد ما ذكرناه ودلّلنا عليه، وأما أهل السنة فيعتقدون أفضلية الخلفاء الثلاثة على الإمام علي، ويعتبرون القول بتقديم أمير المؤمنين على الخلفاء الثلاثة من الغلو في التشيع!!، وقد قرأت لبعض علمائهم المعاصرين ترجمة مختصرة للإمام علي قال فيها: "غلا فيه الشيعة حتى قدّموه على الخلفاء الثلاثة".
فإذا كانت محبّة أمير المؤمنين وتقديمه على من سواه من الصحابة يعدّ من الغلو في التشيّع، فإن من والى

وأنه وصيّه، وأحق الناس بالخلافة بعده، وأنه ولاشك شوكة الميزان، بـه يعـرف المؤمن الصادق من المنافق الكاذب.

وإذا كان القرآن الكريم قد فضح المنافقين يـوم أن كـان الـوحي يتنـزل عـلى النبي ﷺ وأخرج مكنونات أسرارهم؛ فقد كان لوجود الإمـام عـلي عليه السلام بـين ظهراني الصحابة بعد وفاة الرسول ﷺ قرابة ثلاثـين سـنة أثـر كبـير في كشـف معادن الرجال، وتمييز الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، عـلى نحـو مـا روي عن جماعة من الصحابة[1] أنهم قالوا: «ما كنّـا نعـرف المنـافقين عـلى عهـد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلاّ ببغضهم لعلي بن أبي طالب»[2]، وهو ما أخبر بـه الصـادق المصـدوق، حيـث قـال: «**سَـتُقَاتِلُ بَعْـدِيْ النَّـاكِثِينَ وَالْقَاسِـطِينَ وَالْمَارِقِينَ**»[3]، وفي رواية عـن عـلي عليه السلام قـال: «أمـرني–وفي روايـة: عَهِـد إليّ– النبي ﷺ أن أقاتل الناكثين والقاسطين والمارقين»[4]، فكان الناكثون أصـحاب الجمل لأنهم نكثوا بيعته عليه السلام، وكـان القاسـطون أهـل الشـام بصـفّين، وكـان المارقون الخوارج في النهروان.

وأمّا ما ادعاه بعض أهل السنّة من أنّ أفضل الصحابة أبوبكر، ثم عمـر، ثـم

عليًّا وقاتل معه من كبار الصحابة –أمثال عمار بن ياسر وسـلمان الفـارسي وأبي ذر الغفـاري وغـيرهـم– هم على هذا المقياس في مقدّمة الغلاة!!.

(١) منهم: أبوذر الغفاري، وعمار بن ياسر، وجابر بن عبد الله، وأبو سعيد الخدري.

(٢) رواه الطبراني والحاكم والخطيب وابن عساكر.

(٣) رواه الطبراني وابن عدي.

(٤) رواه الإمام زيد في مسنده والبزار وأبويعلى.

عثمان، ثم علي، ثم بقيّة العشرة المبشرين بالجنـة[1]، فلـيس عـلى ذلـك دليـل ولا مسـتند إلاّ ترتيـب الخلافـة، ومعلـوم أنـه لايصـح أن تكـون الخلافـة معيـاراً للأفضلية؟ وقد صحّ عن أبي بكر الصدّيق أنه قال في خطبة له يوم تولّى الخلافـة: «أيّها النّاس؛ إنّي قد وُلِّيتُ عليكم ولستُ بخيركم».

وأمّا ما ورد في فضل الثلاثة من الأخبار المذكورة في كتب أهل السنّة، فإنها – على فرض صحّة الكثير منها– لا ترقى إلى عشر معشار ما روي في فضائل أمـير المؤمنين ومناقبه.

قيل لأحد علماء السلف: مَن خير أصحاب رسول الله ﷺ؟، قال: أبـوبكر. قيل: فعلي بن أبي طالب؟، قال: إنما سألتموني عن أصحابه، وأمّا علي فهو أخوه، وليس الأخ كالصاحب.

وهذا هو الإمام النسـائي نقـل في كتابـه (السُّـنن) مـا روي مـن الأخبـار في فضائل الصحابة ومناقبهم؛ بوّب لكل صحابي باباً ضمّنه ما روي مـن فضـائله، وأمّا الإمام علي عليه السلام فقد أفرد له كتابـاً كـاملاً سـمّاه: (خصـائص عـلي بـن أبي

(١) حديث العشرة المبشرين بالجنة مشكوك في صحته، وفي سنده من هو متّهم بالوضع، ولذا لم يـرو في كتـب الصحاح المشهورة، ومما يدل على عدم صحته أنّه قد ورد عن بعض من ذكـرهم الحـديث مـا يـدل عـلى جهلهم بحالهم، ومن ذلك ماروي عن أم سلمة أنها حدّثت عن النبي ﷺ أنه قال: «**إن من أصحابي مـن لا يراني ولا أراه بعد أن أموت أبدا**»، فدخل عبد الرحمن بن عوف على عمـر؛ فـأخبره بـما سـمع مـن أم سلمة، فدخل عمر على أم سلمة فقال لها: بالله أمنهم أنا؟ فقالت: لا، ولـن أُبـرّئ أحـداً بعـدك. وروي عنه أيضاً أنه سأل حذيفة بن اليمان – وقد قيل أنه كان سرّ أسرار رسول الله ﷺ– بنحـو مـا سـأل بـه أم سلمة، فأجابه بما أجابته، فلو كان عمر يعلم أنّه من أهل الجنة لما سألهما عن حاله.

طالب)، وهو الكتاب المشهور بـ(خصائص النسائي)، فكيف يقال بعد ذلك أنّ غيره أفضل منه؟! بل كيف يقارن أمير المؤمنين بغيره من سائر الصحابة وهو من أهل بيت النبوّة ومعدن الرسالة؟!.

وفي ذلك يقول أمير المؤمنين عليه السلام: «**لَا يُقَاسُ بِآلِ مُحَمَّدٍ صَلّى اللَّهُ عَلَيهِ وَآلَهُ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَحَدٌ، وَلَا يُسَوَّى بِهِمْ مَنْ جَرَتْ نِعْمَتُهُمْ عَلَيْهِ أَبَداً، هُمْ أَسَاسُ الدِّينِ، وَعِمَادُ الْيَقِينِ، إِلَيْهِمْ يَفِيءُ الْغَالِي، وَبِهِمْ يُلْحَقُ التَّالِي، وَلَهُمْ خَصَائِصُ حَقِّ الْوِلَايَةِ، وَفِيهِمُ الْوَصِيَّةُ وَالْوِرَاثَةُ**»[1].

(١) نهج البلاغة، ج١، خطبة رقم(٢).

الولاء والبـراء

ما من شك أن من الواجب على الإنسان أن يتبصّر في حركته في الحياة، بحيث يتتبّع أهل الهداية ويسلك طريقهم، ويعرف أهل الباطل ويتجنب مسالكهم، وهذا هو بعينه الولاء والبراء الواجب على المسلم التخلّق به وممارسته ممارسة عمليّة نابعة من الإيمان بضرورة حفظ النفس وتجنيبها ما يوقعها في الخسران والهلاك في الآخرة باستحقاق دخول النار والخلود فيها، يقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ**﴾ [التحريم:٦]، وقال عزّ من قائل: ﴿**قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ**﴾[الزمر:١٤-١٥].

وبما أن الهداية والضلال طريقان مختلفان، وضدّان لا يجتمعان؛ أحدهما يوصل الإنسان إلى السعادة التي ما بعدها سعادة، والآخر يوصل الإنسان إلى الشقاء الذي ما بعده شقاء، لذا كان من الواجب على الإنسان أن يتبصّر أي الأمرين يختار، وأي الطريقين يسلك؟ لاسيما وأن الله سبحانه قد يسر للإنسان معرفة الطريقين، وبيّن له بما أنعم عليه من العقل، وأرسل إليه من الهدى؛ خير الأمرين وأفضل الطريقين، قال تعالى: ﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾[البلد:١٠]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا**﴾[الإنسان:٣]، وقال تعالى: ﴿**لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**﴾[البقرة:٢٥٦].

وما من شك أن الإنسان لا يرضى لنفسه إلاّ الخير ولا يحب لها إلاّ الصلاح، قال تعالى: ﴿**وَإِنَّهُ لِحُبِّ الخَيْرِ لَشَدِيدٌ**﴾[العاديات:٨]، غير أنه لما كان طريق الهداية مقروناً بتحمل المشاق والمكاره الناتجة عن جهاد النفس وحرمانها من الكثير من الشهوات والملذّات، كان ذلك سبباً في تعدد طرق الضلال وكثرة سالكيها والسائرين فيها.

ثم إنّه لّما كان أكثر ما يجر الإنسان إلى أن يسلك مسلك الضلال هم أتباع الباطل الذين يزيّنون للإنسان الشر، ويسوقونه إلى سبل الهلاك ومهاوي الردى، فإن من الواجب على الإنسان المؤمن أن يتجرد من الولاء والمحبّة والاتّباع إلاّ لله ورسوله، ومن أنعم الله عليهم بنعمة الإيمان والهداية من النبيين والصدّيقين والشهداء والصالحين، وأن يقف موقف العداء من الباطل وأتباعه، ويتبرّأ من الشيطان وأعوانه، وذلك من شأنه أن يخلق لدى المؤمن الثبات والاستقامة على منهج الحق، وفي نفس الوقت يجعل المؤمن على حذر من أن يقع في مهاوي الضلال، ويحميه من السير في طريقه، وهذا هو ما أكّده القرآن وحثّ عليه من خلال الآتي:

(١) **التأكيد على أن طريق الحق طريق واحد لا يتعدّد، ومستقيم ليس فيه عوج أو انحراف، في حين أن طرق الباطل متعدّدة ومائلة ومتعرّجة**؛ قال تعالى: ﴿**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ**﴾ [الأنعام:١٥٣]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ**﴾ [مريم:٣٦]، وفي الحديث أن النبي ﷺ خط خطًا، ثم قال: «**هَذَا سَبِيْلُ اللَّهِ**»، ثم خط خطوطًا عن يمينه

وشماله، ثم قال: «وهذه سُبُلٌ، وَعَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»[1].

(٢) التحذير من مكائد الشيطان وأعوانه؛ قال تعالى: ﴿وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا﴾ [النساء:٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِّن دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا * يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا * أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلاَ يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا﴾ [النساء:١٢١]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا﴾[النساء:٢٧].

(٣) بيان موقف المتبوعين من أتباعهم يوم القيامة، وبيان حسرة الأتباع وندامتهم على تصديق المتبوعين وطاعتهم؛ قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاء لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ النَّارِ * قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ﴾ [غافر:٤٧-٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُواْ مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّؤُواْ مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة:١٦٦-١٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً * يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلانًا خَلِيلاً * لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنسَانِ خَذُولاً﴾[الفرقان:٢٧-٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا * رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[الأحزاب:٦٧-٦٨].

---

(١) رواه ابن حبان من حديث عبد الله بن مسعود.

(٤) **ذكر نماذج إيمانية حيّة تبرّأت من الباطل وأهله جديرة بأن يتّخذ المؤمن منها قدوة حسنة؛** قال تعالى: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ**﴾[الممتحنة:٤]، وقال تعالى -في حكايته عن نبي الله موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِّلْمُجْرِمِينَ**﴾[القصص:١٧]، وقال تعالى -في حكايته عن نبي الله هود عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿**قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُواْ أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ**﴾ [التوبة:٢٣].

وهكذا نجد أن الولاء والبراء هو أحد القضايا الإيمانية العقائدية المهمّة وإحدى المبادئ الأساسيّة التي يجب على المؤمن التخلّق بها والحرص على ممارستها على أرض الواقع ممارسة عمليّة تدل على صدق الإيمان وقوّة العقيدة، وذلك بمحبته للمؤمنين وموالاتهمْ، وبُغضه للكافرين ومعاداتهم، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُوْلَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾[الأنفال:٧٢]، وقال تعالى: ﴿**إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ**﴾[المائدة:٥٥-٥٦]، وقال تعالى: ﴿**لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ**﴾[المجادلة:٢٢]، وقال تعالى: ﴿**لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُوْنِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَاةً**﴾[آل عمران:٢٨]، وقال تعالى: ﴿**بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ**

أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ العِزَّةَ لِلَّـهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٣٩]، وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاء مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّـهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾**[النساء:١٤٤]، وقال تعالى: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾**[المائدة:٥١].

وفي الحديث عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**أَوْثَقُ عُرَى الإِيمَانِ الْمُوَالَاةُ فِي اللَّـهِ، والْمُعَادَاةُ فِي اللَّـهِ، وَالْحُبُّ فِي اللَّـهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّـهِ**»[1].

وفي رواية عنه ﷺ أنه قال لعبد الله بن مسعود: «**يَا عَبْدَ اللَّـهِ أَيُّ عُرَى الإِسْلَامِ أَوْثَقُ؟**»، قَالَ: الله ورسوله أعلم، حتى قالها ثلاثا، قال: «**فَإِنَّ أَوْثَقَ عُرَى الإِسْلَامِ الوَلَايَةُ فِي اللَّـهِ؛ الْحُبُّ فِي اللَّـهِ، وَالْبُغْضُ فِي اللَّـهِ**»[2].

وعن أبي ذر قال: خرج إلينا رسول الله ﷺ فقال: «**أَتَدْرُونَ أَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللَّـهِ؟**» قال قائل: الصلاة والزكاة، وقال قائل: الجهاد. قال: «**إِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّـهِ عَزَّ وَجَلَّ الْحُبُّ فِى اللَّـهِ وَالْبُغْضُ فِى اللَّـهِ**»[3].

وعن مجاهد قال: قال لي عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «يا مجاهد؛ أَحِبَّ في الله، وأبغضْ في الله، ووالِ في الله عز وجل، وعادِ في الله؛ فإنه لا تُنالُ ولايةُ الله عز وجل إلاّ بذلك، ولن تجد طعم الإيمان حتى تكون كذلك، ثم قرأ: **﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾**[الزخرف:٦٧]، وقرأ: **﴿لا تَجِدُ**

---

(١) رواه الطبراني في المعجم الكبير عن ابن عباس.

(٢) رواه أبو داود عن عبد الله بن مسعود، ورواه أحمد والبيهقي عن أبي ذر.

(٣) رواه أحمد.

قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ﴿[المجادلة:٢٢]»[١] .

الولاء والمحبّة

الإسلام دين الرحمة، أساسه المحبّة، ودعامته المودّة، وجـوهره نقـاء الـروح، وسلامة الصدر، وصفاء القلب.

والإيمان هو ينبوع الحب الصافي الخالد، والمؤمن وحـده هـو الـذي طهـرت سريرته وصفت نفسه إلى درجة أنّه يحـب كـل شيء في هـذا الوجـود مـن محبتـه لخالقه، وهو الله عزّ وجل، الذي خلقـه وأوجـده، والـذي هـو واهـب الحيـاة، ومصدر الخلق والأمر والإيجاد والإمداد، فليس في هذا الوجود مـن هـو أجـدر من الله أن يحب، فهو صاحب الفضل والإحسان، وولي كل نعمة وامتنان.

لذلك فالمؤمنون بالله حق الإيمان، العـارفون بـالله حـق المعرفـة، هـم الـذي امتلأت قلوبهم بمحبة الله وتعظيمه، يقول تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّـهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّـهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّـهِ**﴾[البقرة:١٦٥]، وبمحبتهم لله أحبّوا رسوله، وبمحبتهم لله ورسوله أحسّوا طعم الإيمان، وذاقـوا حلاوتـه، مصداقاً لقول الرسول الأعظمﷺ: «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّـهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمّا سِواهُما، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إلاّ للَّـهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[٢] .

وإنه ما من شك أنّ المحبة الصادقة لله عزّ وجل لا تتأتّى إلاّ من خلال اقتران

---

(١) رواه الطبراني وابن أبي شيبة موقوفاً على ابن عباس.

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة وأبوداود عن أبي أمامة.

محبة الله بمحبة الرسول ﷺ واتباعه، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُواْ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾[آل عمران:٣١-٣٢]، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُوْنَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِيْنَ»[1].

ومن محبة الرسول ﷺ تتولّد المحبة الصادقة لأهل بيته وصحابته، وأهل الإيمان من ذرّيته وعشيرته، وكل من يلوذ به وينتسب إليه، ثم محبّة المؤمنين من أمّة الإسلام أحياءً وميّتين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ * وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة:٥٥-٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾[التوبة:٧١]، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[الحشر:١٠]، وقال رسول الله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»[2]، وقال ﷺ: «وَالَّذى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُؤْمِنُوا، وَلاَ تُؤْمِنُوا حَتَّى تَحَابُّوا، أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَىْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ»[3].

---

(١) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة عن أنس وأبي هريرة.

(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أنس.

(٣) تمام الحديث: «أَوَلاَ أَدُلُّكُمْ عَلَى شَىْءٍ إِذَا فَعَلْتُمُوهُ تَحَابَبْتُمْ؟ أَفْشُوا السَّلاَمَ بَيْنَكُمْ» رواه أحمد ومسلم وأبو داود

ولموالاة المؤمنين من أهل الإسلام ومحبّتهم مظاهر متعدّدة نذكر منها مايلي:

١- **مناصرةُ المسلمين ومعاونتُهمْ فيما يحتاجون إليه في دينهم ودنياهم**؛ قال تعالى: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾[التوبة:٧١]، وقال تعالى: ﴿**وَإِنْ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ**﴾[الأنفال:٧٢]، وفي الحديث عن الرسول ﷺ أنه قال: «**مَا مِنْ أَحَدٍ يَخْذُلُ مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ؛ إِلاَّ خَذَلَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِن امْرِئٍ يَنْصُرُ مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ؛ إِلاَّ نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ**»[(١)].

٢- **التألّم لألمهم، والسرور بسرورهم، ومشاركتهم في ذلك بالتعزية عن المصيبة، والتهنئة بالمسرّة**؛ يقول النبي ﷺ: «**مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ، إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالْحُمَّى والسَّهَرِ**»[(٢)]، وقال أيضا: «**الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ**»[(٣)]

٣- **النصح لهم، ومحبة الخير لهم، وعدم غِشّهم أوخديعتهم**؛ قال رسول الله ﷺ: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»[(٤)]، وقال عليه

والترمذي وابن ماجه وابن حبان، عن أبي هريرة.

(١) رواه أحمد، وأبو داود، والطبراني، والبيهقي، عن جابر وأبي طلحة بن سهل الأنصاري.

(٢) رواه أحمد، ومسلم، والبيهقي، عن النعمان بن بشير.

(٣) رواه البخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن حبان عن أبي موسى الأشعري.

(٤) رواه والبخاري، ومسلم، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، والدارمي، عن أنس.

الصلاة والسلام: «لاَ تَحَاسَدُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا، وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَـدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّـهِ إِخْوَانًا، الْمُسْـلِمُ أَخُـو الْمُسْـلِمِ، لاَ يَظْلِمُهُ، وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ»[1].

٤- **احترامُهم، وتوقيرُهم، والكف عن احتقارهم والتنقيص من شأنهم؛ قال تعالى:** ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَومٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُوْلَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾[الحجرات:١١]، وقال ﷺ: «الْمُسْـلِمُ أَخُـو الْمُسْلِمِ، لَا يَحْقِرُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ ولا يُسْلِمُهُ، بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»[2].

٥- **الوقوف إلى جانبهم في حالِ العسرِ واليسرِ، وفي حال الشدةِ والرخاءِ؛** وذلك بخلافِ أهلِ النفاقِ الذين يكونونَ مع المؤمنينَ في حالِ اليسرِ والرخاءِ ويتخلَّونَ عنْهم في حالِ الشدةِ .قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنْ اللَّـهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾[النساء:١٤١].

٦- **تفقد أحوالهم، وزيارتُهم، ومحبةُ الالتقاءِ بهمْ والاجتماعِ معهم؛** وفي الحديثِ القدسيِّ: «وَجَبَتْ محبَّتي للمُتَحَابِّينَ فيَّ، والمُتجالِسينَ فيَّ، والمُتزاورينَ فيَّ، والمتباذلينَ فيَّ»[3].

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي عن أنس وأبي هريرة.

(٢) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي عن ابن عمر.

(٣) رواه أحمد والطبراني والحاكم وابن حبان عن معاذ بن جبل وعبادة بن الصامت.

٧- **الدعاءُ والاستغفارُ لهم؛** قال تعالى: ﴿**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ**﴾[محمد:١٩]، وقال سبحانه : ﴿**وَالَّذِينَ جَاؤُو مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾ [الحشر:١٠].

البراءة من الكفار وأهل الضلال

تقرّر لدينا مما سبق أن من الواجب على المسلم شرعاً البراءة من الكفار، ومن في حكمهم من أهل الضلال، وذلك بالتبرّي منهم، وإظهار عداوتهم، وتسفيه دينهم، والتبرّي ممن يقف معهم و يواليهم، غير أنه لا يجوز حينئذٍ أذيّته، أو محاربته، أو الاعتداء عليه؛ إلاّ إذا أظهر الكافر عداوته للدين، ومحاربته للإسلام، ومعاداته لأهل الإيمان عداوة دينيّة ظاهرة، سواءً كان ذلك بصورة مباشرة كأن يكون ذلك من فعله أو بسببه، أو كان بصورة غير مباشرة كأن يتحالف مع الأعداء، أو يعينهم في حربهم على أهل الإسلام، أو يحرّض على محاربتهم، أو يتعامل مع الأعداء بما يدل على تأييده لهم، ورضاه عن فعلهم، قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ**﴾[الممتحنة:٩].

أمّا إذا لم يقع من الكافر ومن في حكمه شيء من ذلك فإنه يجوز للمسلم في هذه الحالة صلته ومعاملته بالحسنى في الأمور الدنيويّة، والإحسان إليه بأي وجه من وجوه الإحسان، قال تعالى: ﴿**لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ**

الْمُقْسِطِينَ﴾[الممتحنة:٨]، ونظير هذا قولُه تعالى في الوالدينِ الكافرَينِ: ﴿**وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفاً**﴾[لقمان:١٥]، وقد جاءت أم أسماء إليها تطلب صلتها وهي كافرة، فاستأذنت أسماء رسول الله في ذلك، فقال لها: «**صِلِي أُمَّكِ**»[١]، فالصلة والمكافأة الدنيوية شئ، والمودّة شئ أخر، إذ أنَّ في الصلة وحسنِ المعاملة ترغيباً للكافر في الإسلام، فهما وسيلة من وسائلِ الدعوة، بخلاف المودّة والموالاة فإنهما يدلاّن على الرضى عن عمل الكافر وإقراره على ما هو عليه.

ومن هنا فإنه لايجوز للمسلم أن يحبّ الكافر ومن في حكمه بقلبِه محبّة دينيّة، ولا أن يصدر من المسلم نحوه أي فعل يدل على محبّته والرضى عنه، ومن ذلك مايلي:

١ – **التشبُّه بالكفار ومن في حكمهم في الملبسِ والهيئة وغيرهما**؛ لأنَّ التشبّه بهم في الملبسِ والكلامِ وغيرِهما يدل على محبّة المتشبّه به، وفي الحديث عنه ﷺ أنه قال: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»[٢].

فيَحْرُمُ التشبُّه بالكفارِ ومن في حكمهم فيما هو من خصائِصِهم مِنْ العاداتِ والعباداتِ، وفيما هو من سِمَتِهم وأخلاقِهم من الأفعال والأقوال والتصرّفات، على نحو مايفعله بعض الشباب في تقليد الكفار ومحاكاتهم في نحو إطالة الشعر والأظافر، وحلق شعر الرأس واللحية بتشكيلات معيّنة القصد منه التشبّه بهم في ذلك، وكذا التشبه بهم في هيئةِ اللباسِ، والأكلِ،

---

(١) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والطبراني عن أسماء.

(٢) رواه أبوداود عن ابن عمر. والنسائي، والطبراني، والبزار، عن حذيفة بن اليمان.

والشربِ، والرطانةِ بلغتهم لغير الضرورة، وغيرِ ذلك.

٢- **مشاركتُهم في أعيادِهم أو مساعدتُهم في إقامتِها أو تهنئتُهم بمناسبتِها أو حضورُ إقامتِها**؛ وقد فُسِّرَ قولُه سبحانَهُ وتعالى: ﴿**وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ**﴾[الفرقان:٧٢] بحضور أعيادَ الكفارِ.

٣- **مدحُهم والإشادةُ بما همْ عليه من المدنيّةِ والحضارةِ والإعجابِ بأخلاقِهم ومهاراتِهم دونَ نظرٍ إلى عقائدِهمْ الباطلةِ ودينِهمُ الفاسدِ**؛ قالَ تعالى: ﴿**وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى**﴾[طه:١٣١].

٤- **الدعاء والاستغفارُ لهم، والترحّم عليهِم**؛ وقد حرَّم اللَّهُ ذلك لأَنَّه يتضمّن حبّهم، والرضى بفعلهم، وتصحيح ما هم عليه من العقائد والعبادات وغيرها، قال تعالى: ﴿**مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُواْ أُوْلِي قُرْبَى مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ * وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لأَبِيهِ إِلاَّ عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ**﴾[التوبة:١١٣-١١٤]، وقال تعالى: ﴿**لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ**﴾ [المجادلة:٢٢] .

٥- **تعظيم الكافر بقول أو فعل**؛ فإنه لا يجوز أن يُعظّم الكفار وقد حقّرهم الله جلّ وعلا، قال تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُوْلَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ**﴾[البينة:٦].

٦- الاستعانةُ بهم، والثقةُ بهم، وتوليتُهم المناصبَ التي فيها أسرارُ المسلمينَ، واتخاذهمُ بِطانةً ومستشارينَ؛ قال تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتْ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَهَاأَنْتُمْ أُوْلاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ الْأَنَامِلَ مِنْ الغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ* إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا**﴾[آل عمران:١١٨-١٢٠].

فهذه الآيات الكريمة تشرح دخائل الكفار وما يكنّونه نحو المسلمين من بغضٍ، وما يُدبّرونه ضدهم من مكرٍ وخيانة، وما يحبّونه من مضرة المسلمين وإيصال الأذى إليهم بكلِ وسيلة، وأنهم يستغلّون ثقة المسلمين بهم فيخطّطون للإضرار بِهم، والنيلِ منهم، ومن هنا فإنه لايجوز تولية الكفار أعمال المسلمين التي يتمكّنون بواسطتها من الاطلاعِ على أحوال المسلمين وأسراره، ويكيدون لهم بإلحاق الضرر بهم.

روى الإمامُ أحمدُ عن أبي موسى الأشعري قال: قلتُ لعمرَ: لي كاتبٌ نصرانيٌ، قال: مالَكَ قاتلَكَ اللَّهُ!!، أما سمعتَ قولَه تعالى: ﴿**يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ**﴾ [المائدة:٥١]؟ألا اتخذتَ حنيفاً؟! قلتُ: يا أمير المؤمنين لي كتابته وله دينه، قال:لا أُكرمُهم إذ أهانهم الله، ولا أُعزّهم إذ أذلّهم الله، ولا أُدنيهم وقد أقصاهم الله .

وروى الإمام أحمد ومسلم أن النبي ﷺ خرج إلى بدر، فتبِعه رجل من

المشركين فلحقه عند الحَرّة، فقال: إِني أَردت أنْ أَتّبِعَـكَ وَأُصـيب معـك، قـال: «تؤمن بِاللَّـهِ ورسوله؟» قال: لا، قال: «**فَارْجِعْ فَلَنْ أَسْتَعِينَ بِمُشْرِكٍ**».

٧- **إعانتُهمْ ومناصرتُهم على المسلمين، وحمايتهم، والذبّ عنهم**؛ ولا يعني ذلك تحريم التعاملِ معهـم في المعـاملات المباحـة، كالعمـل لهـم في الوظـائف والأعمال العامّة والخاصّة، أو التعامل معهم في التجارة واستيراد البضائعِ والمصنوعات النافعة، ولا الاستعانة بهـم في الوظـائف والأعـمال العامـة والخاصة، والاستفادة منْ خبراتهم ومخترعاتهم.

ويستثنى من ذلك العمل في أجهزتهم الاستخباراتيّة بقصد التجسّـس عـلى المسلمين، والتعاون معهم في أي أمر من الأمور التي يكون فيهـا مصـلحة لهـم، وضرر بالمسلمين وأموالهم وأوطانهم، أو بأي فرد من أفرادهم، كأن يبيع المسـلم للكافر سلاحاً يستعين به على قتل مسلم أو إيذائه، أو يشتري منهم بضاعة يعلم أنّ أرباحها تذهب في دعـم المحـاربين للإسـلام والمحتلّـين لأراضي المسـلمين، ونحو ذلك، فإنه لايجوز.

موالاة الظالم وإعانته

الفاسق والظالم من أهل الإسلام حكمه حكم الكافر في ذلك، لايجوز إعانته، ولامناصرته، ولاحمايته والدفاع عنه، ولايجوز كذلك تعظيمه بقول أو فعل، قال تعالى: ﴿**وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّـن دُونِ اللَّـهِ مِـنْ أَوْلِيَاء ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ**﴾[النمل:١١٣]، وقد ورد في السنّة النبوية في التحذير من إعانة الظالم وموالاته الكثير من الأحاديث الدالّة على ذلك، ومن ذلك قوله ﷺ: «**مَنْ**

أَعَانَ ظَالِمًا بِبَاطِلٍ لِيَدْحَضَ بِهِ حَقًّا فَقَدْ بَرِئَتْ مِنْهُ ذِمَّةُ اللَّـهِ وَذِمَّةُ رَسُولِهِ»[1]، وقوله ﷺ: «مَنْ أَعَانَ قَوْمًا عَلَى ظُلْمٍ فَهُوَ كَالْبَعِيرِ الْمُتَرَدِّي، فَهُوَ يَنْزِعُ بِذَنَبِهِ»[2]، وقوله ﷺ: «مَنْ مَشَى مَعَ ظَالِمٍ يُقَوِّيهِ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُ ظَالِمٌ فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الْإِسْلَامِ»[3]، وقوله ﷺ: «مَنْ مَشَى مَعَ قَوْمٍ يُرِى أَنَّهُ شَاهِدٌ وَلَيْسَ بِشَاهِدٍ فَهُوَ شَاهِدُ زُورٍ وَمَنْ أَعَانَ عَلَى خُصُومَةٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ كَانَ فِي سَخَطِ اللَّـهِ حَتَّى يَنْزِعَ وَقِتَالُ الْمُؤْمِنِ كُفْرٌ وَسِبَابُهُ فُسُوقٌ»[4]، وقوله ﷺ: «مَنْ أَعَانَ عَلَى خُصُومَةٍ بِظُلْمٍ أَوْ يُعِينُ عَلَى ظُلْمٍ لَمْ يَزَلْ فِي سَخَطِ اللَّـهِ حَتَّى يَنْزِعَ»[5]، وفي رواية: «فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنْ اللَّـهِ»[6].

وعن جابر بن عبد الله أن النبي صلى الله عليه وآله سلم قال لكعب بن عجرة: «يَا كَعْبُ بْنَ عُجْرَةَ : أَعَاذَكَ اللَّـهُ مِنْ إِمَارَةِ السُّفَهَاءِ» قال: وما إمارة السفهاء؟، قال: «أُمَرَاءُ يَكُونُونَ بَعْدِي لَا يَهْتَدُونَ بِهَدْيِي، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، فَمَنْ صَدَّقَهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَأَعَانَهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ؛ فَأُولَئِكَ لَيْسُوا مِنِّي وَلَسْت مِنْهُمْ، وَلَا يَرِدُونَ عَلَى حَوْضِي، وَمَنْ لَمْ يُصَدِّقْهُمْ بِكَذِبِهِمْ، وَلَمْ يُعِنْهُمْ عَلَى ظُلْمِهِمْ؛ فَأُولَئِكَ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ، وَسَيَرِدُونَ عَلَى حَوْضِي»[7].

---

(١) رواه الطبراني، والبيهقي، والحاكم، عن ابن عباس.

(٢) رواه البيهقي عن ابن مسعود.

(٣) رواه الطبراني، وأبو نعيم، عن أوس بن شرحبيل.

(٤) رواه البيهقي عن أبي هريرة.

(٥) رواه أبوداود، وابن ماجة، عن عبد الله بن عمر.

(٦) رواه أبوداود، عن عبد الله بن عمر.

(٧) رواه الإمام أبوطالب في أماليه، وأحمد، وابن حبان، والحاكم، والطبراني، وأبويعلى.

قال الإمام الذهبي في كتاب الكبائر: فصل : في الحذر من الدخول على الظلمة ومخالطتهم ومعونتهم قال الله تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[النمل:١١٣]، والركون ههنا السكون إلى الشيء والميل إليه بالمحبّة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تميلوا كل الميل في المحبّة، ولين الكلام والمودة. وقال السدي وابن زيد: لا تداهنوا الظلمة. وقال عكرمة: هو أن يطيعهم و يودّهم. وقال أبو العالية: لا ترضوا بأعمالهم ﴿فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ فيصيبكم لفحها ﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاء﴾، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما لكم من مانع يمنعكم من عذاب الله، ﴿ثُمَّ لاَ تُنصَرُونَ﴾ لا تمنعون من عذابه، وقال الله تعالى : ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾[1] [الصافات:٢٢]، أي أشباههم و أمثالهم و أتباعهم.

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: لا تملأوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكار من قلوبكم لئلا تحبط أعمالكم الصالحة، وقال مكحول الدمشقي: ينادي منادٍ يوم القيامة أين الظلمة وأعوانهم؟ فما يبقى أحد مدّ لهم حبراً، أو حبّر لهم دواةً، أو برى لهم قلماً فما فوق ذلك إلا حضر معهم، فيجمعون في تابوت من نار فيلقون في جهنم.

و جاء رجل خيّاط إلى سفيان الثوري فقال: إني رجل أخيط ثياب السلطان هل أنا من أعوان الظلمة؟ فقال سفيان: بل أنت من الظلمة أنفسهم، ولكن أعوان الظلمة من يبيع منك الإبرة و الخيوط.

(١) نص الآية: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ * مِن دُونِ اللهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾.

و قد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «**أول من يدخل النار يوم القيامة السوّاطون الذين يكون معهم الأسواط يضربون بها الناس بين يدي الظلمة**»، وعن ابن عمر قال: (الجلاوزة[1] والشرط كلاب النار يوم القيامة).

و جاء عن النبي ﷺ أنه قال : «**لا يقف أحدكم في موقف يضرب فيه رجل مظلوم فإن اللعنة تنزل على من حضر ذلك المكان إذا لم يدفعوا عنه**» ..انتهى.

قلت: ومما يروى عن السلف في بغضهم للظلمة وترك إعانتهم، وقول كلمة الحق في وجوههم؛ ماروي أن أحدهم -واسمه بحير بن ريسان- جاء إلى ابن عباس يستعين به على ابن الزبير -وكان عاملاً له[2]- فقال له ابن عباس: «أنت امرؤ ظلوم، لا يحل لأحد أن يشفع لك ولا يدفع عنك»[3].

هذا وللإمام الغزالي رحمه الله في كتاب إحياء علوم الدين بحث فيما يحل من مخالطة السلاطين الظلمة وما يحرم، وحكم غشيان مجالسهم، والدخول عليهم، والإكرام لهم، لاغنى للباحث من الرجوع إليه، قال: ولمّا خالط الزهري السلطان كتب أخ له في الدين[4] إليه: «عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك، أصبحت شيخاً كبيراً قد أثقلتك نعم الله لما فهّمك من كتابه وعلّمك من سنة نبيه محمد ﷺ، وليس كذلك أخذ الله الميثاق على العلماء، قال الله تعالى ﴿**لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ**

---

(١) الجلاوزة: أعوان الظلمة.

(٢) الضمير عائد على بحير بن ريسان، والعامل: هو الوالي على البلد.

(٣) رواه البيهقي في شعب الإيمان عن مجاهد.

(٤) المشهور أنه الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام.

﴿تَكْتُمُونَهُ﴾[آل عمران:١٨٧] [1]، و أعلم أن أيسر ما ارتكبت، وأخف ما احتملت؛ أنك آنست وحشة الظالم، وسهّلت سبيل البغي بدنوك ممن لم يؤدّ حقًّا ولم يترك باطلاً حين أدناك، اتخذوك قُطْباً تدور عليك رحى ظلمهم، وجسراً يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلّما يصعدون فيه إلى ضلالهم، ويدخلون بك الشك على العلماء، ويصادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمروا في جنب ما خربوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك فيما أفسدوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ﴾[مريم:٥٩] الآية [2]، وإنك تُعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل، فداوِ دينك فقد دخله سقَم، وهيِّءْ زادك فقد حضره سفر بعيد، وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء، و السلام».

وقال الإمام يحيى بن الحسين عليه السلام في كتابه (الأحكام) مانصّه:

(من أعان ظالماً ولو بخط حرف، أو برفع دواة أو وضعها؛ ثم لقي الله عزوجل على ذلك وبه، ولم يكن اضطرته إلى ذلك مخافة على نفسه لقي الله يوم القيامة وهو معرض عنه غضبان عليه، ومن غضب الله عليه فالنار مأواه والجحيم مثواه، أما أني لا أقول إن ذلك في أحد من الظالمين دون أحد، بل أقول: إنه لا يجوز معاونة الظالم، ولا معاضدته، ولا منفعته، ولا خدمته، كائنا من كان، من آل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أو من غيرهم، كل ظالم ملعون، وكل معين ظالم ملعون، وفي ذلك ما بلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله

(١) نص الآية: ﴿وَإِذَ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاء ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾.

(٢) نص الآية: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.

وسلم أنه قال: «**مَنْ جَبَا دِرْهَماً لِإِمَامٍ جَائِرٍ كَبَّهُ اللَّـهُ فِي النَّـارِ عِـلَى مِنْخَرَيْـهِ**»، وفي ذلك ما يقال: إن المعين للظالم كالمعين لفرعون على موسى.

وفي ذلك ما بلغنا عن أبي جعفر محمد بن علي رحمة الله عليه أنه كان يروي ويقول: إذا كان يوم القيامة جُعل سرادق[1] من نار، وجُعل فيها أعوان الظالمين، ويجعل لهم أظافير من حديد يحكّون بها أبدانهم حتى تبدوا أفئدتهم، فيقولون: ربنا ألم نكن نعبدك؟ فيقال: بلى ولكنكم كنتم أعواناً للظالمين. وبلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «**مَنْ سَوَّدَ عَلَيْنَا فَقَدْ شَرَّكَ فِي دِمَائِنَا**») انتهى.

---

(١) **السُّرَادِق**: هو مايُمَدّ على صحن البيت فيغطيه.

الضرورات الدينية

هناك بعض الأمور الأساسيّة التي عليها مدار الإسلام، والتي هي ضرورة من ضرورات الدين، وركائزه الأساسية، وقواعده المتينة، وتتمثل في أربعة أمور، هي:

١- الولاية العامّة. ٢- الهجرة.

٣- الجهاد. ٤- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وسيكون الحديث هنا عن كل ضرورة من هذه الضروات، وبيان أهمّيتها، على أن لكل منها أحكاماً وتفصيلات تضمنّتها كتب الفقه، وكتب الأصول، ولا يسع المقام لذكرها هنا وإنما سنقتصر عل ذكر بعضها بغرض الاختصار، وبالله التوفيق.

(١) الولاية العامة

ضرورة وجود دولة تجمع كلمة الناس، وتوحّد صفّهم، وتدبّر شؤونهم، وتحقّق مصالحهم؛ أمر لا يختلف عليه إثنان من بني البشر، أيًّا كان دينهم أو عقيدتهم؛ باعتبار أن ذلك ضرورة من ضرورات الحياة، وفطرة إلهيّة فطر الله الناس عليه.

وإنّه لّما كانت كثير من فرائض الإسلام وأحكامه مترتّبة على وجود الدولة (الولاية العامّة) كالجهاد، والعدل بين الناس، ورفع الظلم، وإقامة الحدود، وتأمين السبُل...إلخ؛ كان من الواجب أن تجتمع كلمة الناس في بلاد الإسلام على إقامة الدولة الإسلاميّة التي تحقّق المقاصد الشرعيّة المذكورة وغيرها، وتحقّق كذلك مصالح الناس العامّة والخاصّة، وذلك من خلال اختيار وتنصيب قائد

يقودهم، وإمام يسوسهم، ويجمع كلمتهم، ويوحّد صفّهم.

وهذا القائد أو الإمام هو صاحب الولاية العظمى الذي هو رئيس الدولة، والإمام الشرعي الحائز على بيعة الأغلبية بالاختيار من عامّة الناس أو من أهل الحل والعقد (ممثلي الشعب).

ولا تكون البيعة إلاّ للعدْل الأكثر نهوضاً واستمساكاً بعلوم الشريعة الإسلامية وأحكامها، قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[البقرة:١٢٤].

شروط الترشح للولاية العامّة:

تضمّنت مصادر الشريعة الإسلاميّة الفقهيّة جملة من الشروط الواجب توافرها فيمن يرشّح نفسه للولاية العامة، أهمّها ما يلي:

١- أن يكون حائزاً على قدر كبير من العلم والمعرفة بأحكام المعاملات، وأحكام السلم والحرب تؤهّله للاجتهاد، والمعرفة الكافية في العلوم السياسيّة، والعلاقات والقوانين الدوليّة، وقوانين الدولة ودستورها، وغير ذلك من العلوم والمعارف التي تتعلّق بعمله وتدخل في اختصاصاته.

٢- أن يكون مُدبِّراً ذا بصيرة وخبرة في أمور السياسة والحكم، سخيًّا يضع الحقوق في مواضعها.

٣- أن يكون سليم الحواس والأطراف من العاهات والآفات التي تعوقه عن ممارسة أعماله كما يجب.

٤- أن يكون شجاعاً مقداماً (في مقدّمة الصفوف) بقوله وفعله في نصرة الحق والجهاد في سبيل الله حيث يكون مجوّزاً للسلامة.

٥- أن لا يكون قد تقدّمه إمام مُجاب؛ لأنه لا يصلح إمامان في قُطْر واحد.

٦- أن يكون معروفاً بالتقوى والورع، مجتنباً للقبائح التي تجرح العدالة، متنزّهاً عن الصغائر التي تُخلّ بالمروءة.

وهذه الشروط جميعها هي محل إجماع بين الفقهاء عموماً، ويشترط الجمهور من العلماء: أن يكون نسبه قرشيًّا، وأما الزيديّة فيشترطون أن يكون من ذرّية الحسنين عليهما السلام[1]، ولهم أدلّتهم التي تقضي بوجوب تقديم آل بيت رسول الله على غيرهم، والتي سبق ذكر بعضها في درس أهل البيت.

مهام رئيس الدولة وواجباته:

هناك الكثير من المهام والواجبات التي يجب على رئيس الدولة (الإمام) القيام بها، والتي منها ما يلي:

---

(١) حصر الإمامة في أهل البيت إنما هو من آليات الوصول إلى الحكم، ولا يُمَثِّل جوهر أو روح النظرية في الإمامة، ولكن الأمر يُعرض وكأن الإمامة عند الزيديّة ليست إلاّ التأكيد على الحق الفريد لأهل البيت فيها، مما قد يوحي للكثير -زيدية وغيرهم- أن موضوع الحصر هو الأساس، في حين ترى الزيدية أنّه لا بد للقائم بأمر الإمامة من إذن شرعي يسمح له بممارسة الأمر والنهي على غيره من الناس، وترى أن الله تعالى قد جعل هذا الإذن للأكفأ والأفضل من أهل البيت، وليس في هذا ما يمنع من تنصيب أو انتخاب رئيس للدولة من غيرهم في حال عدم وجود الإمام [أو وجوده لكن تغلّب عليه غيره باختيار الناس وانتخابهم]، فيجوز له أن يقوم بالأمر كمنصوب للحِسبة؛ لأنّ كلّ من عرف من نفسه أنه يصلح للإمامة وليس هناك إمام؛ جاز له ترشيح نفسه لهذا المنصب، وانتصابه عليه، وأن يمارس سلطة رئيس الدولة، [ويلزم الناس طاعته والانقياد له].

المصدر: كتاب (الزيدية قراءة في المشروع وبحث في المكونات) للأستاذ عبد الله محمد حميد الدين، وكتاب (من هم الزيدية؟) للسيد يحيى عبد الكريم الفضيل "منقول بتصرّف".

١- العمل بالشريعة الإسلامية (الكتاب والسنّة)، وتطبيق أحكامها.

٢- تحقيق الحرّيّة ومبدأ العدل والمساواة بين الأفراد في إطار تعاليم الدين الحنيف.

٣- تجهيز الجيوش وتسليحهم وتدريبهم، والحفاظ على سيادة الأمّة، وحماية حقوقها، وصيانة استقلالها، والدفاع عن أراضيها.

٤- تعليم أفراد الأمّة وتثقيفهم بثقافة عصرهم، وتعريفهم بأمور دينهم، والعمل على تحقيق ما تصبو إليه الأمّة من خير وأمن وازدهار.

٥- الجهاد في سبيل الله، والقيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود الشرعيّة على مستحقّيها.

٦- إقامة العدل بين الناس، وإنصاف المظلومين، والأخذ على يد الظالم وتأديبه.

٧- أخذ الزكاة من الأغنياء، والفيء والجزية[1] -إن وجدتا- وغيرها من موارد الدولة، وصرفها في مستحقّيها.

٨- الاهتمام بمصالح الأمّة العامّة والخاصّة، والعمل على توفير احتياجاتهم الضروريّة التي تكفل لهم حياة سعيدة مستقرّة، كتأمين السبل، وشقّ الطرق، وإنشاء المستشفيات ودور رعاية الفقراء والأيتام، وإحياء وتطوير القطاعات الهامّة؛ كالزراعة والصناعة ونحوها.

٩- الاستعانة بأهل الكفاءات والتخصّصات وأهل المشورة والرأي، وتقريبهم، وتعظيمهم، ورعايتهم.

١٠- تسهيل الحِجَاب في سائر الأوقات -عدا الأوقات الخاصّة بأهله - ليصل إليه الضعيف والمظلوم وذو الحاجة بكل يسر وسهولة.

(١) **الفيء**: غنائم الحرب، **والجزية**: ما يفرض على غير المسلمين (أهل الذمّة).

ثم إنه لا بدّ له مع هذا من الاستمرار في الاستقامة بالحق والقيام بالعدل وفق الشريعة الإسلامية، وليس له الحق أن يتصرّف تصرّفاً مخالفاً للشريعة أو متعارضاً معها، فلا يبتّ في أمر إلاّ وفق الشريعة الغرّاء والسنّة المطهّرة.

وتزداد التبعة على الإمام في حالة الحرب حيث يصير الواجب عليه أكثر، ويجب أن يكون في مقدّمة الصفوف بقوله وفعله، وله الحق وحده في أعلان الحرب بعد الشورى، كما أنه له الحق في المصالحة وقبول الهدنة على الشروط المعروفة المقرّرة في الشريعة الإسلامية[1].

المهدي عند الزيديّة:

من اللافت للانتباه أنّ مؤلفات المتقدّمين من أئمّة الزيدية لم تهتم كثيراً بالحديث عن المهدي، وما روي عن المهدي في كتب المتأخّرين إنما هو مأخوذ من كتب الحديث التي رواها أصحاب السنن من غير أهل البيت.

والذي يظهر من أقوال الأئمّة المتقدّمين أن أهل البيت يقولون بأن هناك مهديًّا مخصوصاً سيكون في آخر الزمان غير أنهم لا يسمّونه بإسم أو لقب، باعتبار أنّ المهدي ليس إلا فضلاً من الله يسعد به من جاءه، ولكنه ليس الأمل الوحيد المنشود للتغيير في المجتمع المسلم.

ولأن الحق يمكن أن يعود، والعدل يمكن أن يقام بغياب المهدي؛ لذلك توجب الزيديّة السعي إلى أن يكون لكل عصر مَهْدِيُّهُ الذي يملأ زمانه عدلاً وقسطاً[2].

---

(١) **المصادر**: كتاب (من هم الزيدية) للسيد يحيى عبد الكريم الفضيل، وكتاب (الزيدية نظرية وتطبيق) للسيد علي عبد الكريم الفضيل "بتصرّف".

(٢) نقلاً عن كتاب (الزيدية قراءة في المشروع وبحث في المكوّنات) للأستاذ عبد الله محمد حميد الدين"بتصرّف" .

(٢) الـهجرة

هي في اللغة: الانتقال مـن أرض إلى أرض. **وفي الشرع**: الإنتقـال مـن بلـد الكفر أو دار الفسق إلى بلد الإسلام والطاعة.

ويتبيّن من التعريف المذكور أن دار الإقامة على ثلاثة أقسام:

١- **دار الإسلام**؛ وهي البلد التي تظهر فيها أحكام الإسلام وتقام فيهـا شـعائر الدين.

٢- **دار الكفر**؛ وهي البلد التي تظهر فيهـا أحكـام الكفـر ومللـه، عـلى حكـم الإسلام وشرعه.

٣- **دار الفسق**؛ وهي البلد التي تظهر فيها شعائر الدين دون أحكامـه، فتظهـر بسبب ذلك كبائر المعاصي؛ كالربا، والزنا، وشرب الخمر، وغيرها؛ من غـير نكير من سلطان أو محتسب.

وقد يقتصر الحاكم في دار الفسق على إظهار بعض أحكـام الإسـلام التـي لا تتعارض مع مصالحه، بما يضمن له البقاء على عرشه وكرسيّه.

فأمّا دار الإسـلام فـلا يصـح الهجـرة منهـا إلى مثلهـا، بـدليل مـا روي عـن النبي ﷺ أنه قال: «**لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الْفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ**»[1]، أي لا هجرة من مكة بعد فتحها ، حيث وقد صارت بعد الفتح دار إسلام، والمراد: أنه لا تصـح الهجرة بعد الفتح من بلد قد فُتح وصار دار إسلام بعد أن كـان دار كفـر، إلاّ إذا

(١) رواه الترمذي والنسائي عن ابن عباس. وأحمد والطبراني والحاكم عن زيد بن ثابت.

كانت الهجرة لغرض ديني؛ من طلب علم، أو تعليم، أو حج، أو جهاد، أو دعوة إلى الإسلام، أو نحو ذلك، فهي مستحبّة، وقد تكون واجبة في مثل الحج الواجب والجهاد.

ولا شك بأنّ المهاجر لمثل هذه الطاعات يصدق عليه قوله تعالى: ﴿**وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾[النساء:١٠٠].

قال في الكشاف –في تفسيره لهذه الآية: كل هجرة لغرض ديني؛ من طلب علم، أو حج، أو جهاد، أو فرار إلى بلد يزداد فيه طاعة أو قناعة، وزهداً فى الدنيا، أو ابتغاء رزق طيّب، فهي هجرة إلى الله ورسوله، وإن أدركه الموت فى طريقه فأجره واقع على الله.

وأمّا دار الكفر فالهجرة منها إلى دار الإسلام واجبة على المسلم إذا توافرت الشروط التالية:

١- عدم تمكّن المسلم من إظهار دينه، وإقامة شعائره في بلد الكفر الذي هو فيه، أو كان يخاف الفتنة على نفسه، أو على أهله أو ولده.

٢- وجود البلد المسلم الذي يستطيع الإقامة فيه، ويتمكّن فيه من إظهار شعائر دينه.

٣- إذا كان صحيح البدن قادراً على السفر، وتحمّل تكاليف الهجرة.

فإذا اختلّ أحد هذه الشروط بأن كان ممن يقدر على الهجرة، ولكنه يتمكّن من إظهار

دينه وإقامة شعائره، فلا تجب عليه الهجرة لإمكان إقامته لشعائر دينه بدون الهجرة، بل تكون هجرته إلى دار الإسلام مستحبّة، لما في ذلك من المصالح الدينيّة والدنيويّة، كتكثير سواد المسلمين، ومعونتهم، وتعلّم لغتهم، والأخذ عن علمائهم، والأمن على نفسه وأهله وولده من الفتنة، وفي نفس الوقت يتبرّأ من تكثير سواد الكفار، ومخالطتهم، وحضور منكراتهم، وغير ذلك.

وقد دلّت النصوص الشرعية على أنّ الهجرة من بلد الكفر إلى بلاد المسلمين لأجلِ الفرارِ بالدينِ واجب شرعي محتّم على المسلمِ إذا كان قادراً على الهجرة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا**﴾[النساء:٩٧]، وقوله تعالى في شأن المنافقين: ﴿**وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ**﴾[الأنفال:٧٢]، وقوله: ﴿**فَلاَ تَتَّخِذُواْ مِنْهُمْ أَوْلِيَاء حَتَّىَ يُهَاجِرُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾[النساء:٨٩].

ومن هنا نعلم أنّه لا عذر للمسلم القادر على الهجرة في الإقامة في دار الكفرِ، وذلك لعظم خطر الإقامة فيها على دين المسلم وخلقه، إلاّ إذا توافرت الشروط التالية[١]:

١- وجود العذر الشرعي وهو الحاجة المعتبرة شرعاً، كخوف المسلم على دينه، أو نفسه، أو ماله، أو عرضه، أو من يعولهم؛ إذا أقام في بلده الأصلي، حيث

(١) **المصدر**: أحكام التعامل مع غير المسلمين، خالد بن محمد الماجد "منقول بتصرّف".

لا يجد المكان الذي يستقبله ويـأمن فيـه غـير بـلاد الكفـر، أو كـان في ذلـك مصلحة دينيّة كأن تكون لأجل الدعوة إلى الله ونشرـ الإسـلام، أو مصـلحة دنيويّة كطلب الرزق، أو العلاج، أو تجارة، أو عمل، أو علم لا يتوافر نحـوه في بلد الإسلام.

٢- أن ينوي الإقامة المؤقّتة التي تنقضي بزوال العذر الذي من أجله أقام في بلد الكفر، فلا يجوز له أن ينوي تأبيد إقامته؛ لأن التأبيد يعني الهجـرة مـن بـلاد الإسلام إلى بلاد الكفر، وهذا مناقضة صريحة لحكم الشرع في إيجاب الهجرة من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام .

٣- كون بلد الكفر الذي ينوي الإقامة فيه لـيس دار حـرب؛ أي غـير محـارب للمسلمين.

٤- توفّر الحريّة الدينيّة في بلد الكفر بما يأمن المسلم على نفسه وأهله وولده مـن الافتتان في الدين، ويتمكّن من تعلّم دينه وتعليمه لأهلـه وولـده، ويـتمكّن كذلك من إظهار الدين وإقامة شعائر دينه الظاهرة.

٥- بقاء ولاء المسلم لدينه ولإخوانه المسلمين، فلا يقدّم ولاءه لوطنه الكافر أو قوميّتة الكـافرة عـلى ولا ئـه لدينـه وأبنـاء أمّتـه، وأن يكـون المسـلم معتـزًّا بإسلامه، مبتعداً عن مواطن الشر، حذراً من دسائس الأعداء ومكائدهم.

فإذا توافرت هذه الشروط جاز للمسلم أن يقيم في بلد الكفر، وأن يستخرج بطاقـة إقامة، أو حتى يتجنس بجنسيّة ذلك البلد إن توقّف حصول الإقامة عليها.

وأمّا المستضعف الذي لايتمكّن من إظهار دينه لضعفه، ولا يستطيع الهجرة لعجزه وعدم قدرته عليها، فالهجرة من دار الكفر غير واجبة عليه، حيث استثنى الله سبحانه المستضعفين في قوله تعالى: ﴿**إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلاَ يَهْتَدُونَ سَبِيلاً * فَأُوْلَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا**﴾[النساء:٩٨-٩٩]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا**﴾[النساء:٧٥]، ولكن ينبغي للمؤمن المستضعف في هذه الحالة أن يبقى في حالة تأهّب واستعداد للهجرة، وأن يبذل ما في وسعه، ويتحيّن الفرصة للهروب والنجاة بدينه.

وأما دار الفسق فلا يجب على المسلم الهجرة منها ما دام متمكّناً من إقامة شعائره الدينيّة، باعتبارها في الأصل دار إسلام، إلاّ أنه قد يتعيّن على المسلم الهجرة من دار الفسق لاعتبارات متعلّقة بالأحوال والأشخاص، وفي غالب الأحوال فإن الهجرة منها مستحبّة لاسيّما مع خشية الفتنة، والله تعالى أعلم.

(٣) الجهـاد

مما لا خلاف فيه أنّ الإسلام دين عالمي، وإنـه مـامن شـك أن أمّـة الإسـلام مكلّفة شرعاً بتبليغ دعوة الإسلام لكل بقـاع الأرض، قـال تعـالى: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾[البقرة:١٤٣].

ولّما أنّه لا يكاد يخلو زمان ولا مكان من الطواغيت الحاكمة الظالمة التي تقف حجر عثرة أما نشر دعوة الإسلام وتعريف الناس به؛ فقد شرع الإسلام الجهـاد للوقوف في وجه الطاغوت، ولكي يتمكّن المسلمون من تبليغ رسـالة الإسـلام إلى الناس دون معوّقات.

ولا يعني ذلك بأي حال من الأحـوال أنّ الجهـاد يعنـي إكـراه النـاس عـلى الدخول في الإسلام، أو يهدف إلى توسيع رقعـة دولـة الإسـلام الجغرافيّـة عـلى النحو الذي تفعله الدول الاستعماريّة عبر التأريخ، أو كسباً للمنافع الدنيوية، أو حبّاً في اظهار القوّة والتفوّق الحربي، وإنما شُرع الجهاد في سبيل الله لدفع الظلـم، ومقارعة الكفر، ومقاومة الباطل، ونشر العدل والحريّة والسلام، والدفاع عـن الأنفس والأوطان والأموال والحرمات.

ومن هنا فإن الجهاد في سبيل الله أمر لا غنى عنه لتحقيق جملـة مـن الغايـات والأهداف والمصالح، والتي من أهمها مايلي:

١- الدفاع عن العقيدة، وحماية الشـعائر والعبـادات، وإقامـة نظـام الإسـلام، وتحقيق عبادة الله تعالى وحده، وفرض هيمنة شريعة الله على سـائر الشرـائع

والقوانين الوضعيّة السائدة، قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لله فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾[البقرة:١٩٣].

٢- رد أي عدوان قد يقع على مسلم أو على جماعة مسلمة من أي عدو يتربّص بالإسلام والمسلمين ويسعى للنيل منهم، والدفاع عن أرض الإسلام وحمايتها من أي عدوان قد يقع عليها من أي عدو أو مستعمر، قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللَّـهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاء الْكَافِرِينَ * فَإِنِ انتَهَوْاْ فَإِنَّ اللَّـهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ للَّـهِ فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ * الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللَّـهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللَّـهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾[البقرة:١٩٠-١٩٤].

٣- نصرة المستضعفين من أهل الإسلام المفتونين في دينهم لدفع الظلم عنهم؛ فإذا وقع على أحد من المسلمين أو على بعضهم إعتداء على نفسه أو ماله أو عرضه أو دينه ظلماً وعدواناً وجب على المسلمين نصرته ورفع الظلم عنه، قال تعالى: ﴿وَإِنْ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾[الأنفال:٧٢].

٤- إرهاب الأعداء، ودفع شرّهم، وإذلالهم، وتوهين كيدهم، ورفع شأن المسلمين وإعزازهم، قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّـهِ

وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّـهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[الأنفال:٦٠].

٥- تحقيق العدل والمساواة، وتحرير الناس من العبوديّة لغير الله، ومحاربة الظلم والتسلّط والاستعباد، سواءً كان ذلك من ولي أمر المسلمين أو من غيره، وسواءً وقع ذلك على المسلمين أو على غيرهم، قال تعالى: **﴿وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾**[الأنفال:٧٢].

٦- تأديب المتمرّدين، والبغاة، والناكثين للعهود: قال تعالى في شأن البغاة: **﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّـهِ﴾** [الحجرات:٩]، وقال تعالى في حق من نقضوا العهود والمواثيق: **﴿وَإِن نَّكَثُواْ أَيْمَانَهُم مِّن بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُواْ فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُواْ أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ﴾**[التوبة:١٢].

ولمّا كان الجهاد في سبيل الله بهذه الأهمّية فقد احتل المكانة السامية من بين سائر الفرائض الشرعية، حيث جعله الله فريضة من أقدس الفرائض، وركناً من أقوم الأركان، وواجباً من أجل الواجبات، من أنكره فهو كافر، ومن تخلّف عنه دون عذر فهو منافق، ومن قصّر فيه بدون سبب فهو فاسق، ومن فرّ منه وأدار ظهره للأعداء فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير.

فالجهاد في سبيل الله ولاشك أمره عظيم وشأنه كبير، وليس أدل على ذلك من تكرار الحديث عن الجهاد في سبيل الله والحث عليه في مواضع كثيرة من كتاب الله الكريم، ثم ما ورد في السنّة النبويّة المطهّرة من الحث على الجهاد وبيان فضله في أحاديث كثيرة لا سبيل إلى حصرها، ومن ذلك قوله ﷺ لمعاذ بن جبل

حين سأله أن يدلّه على عمل يدخله الجنة، فكان مما قال: «**إِنْ شِئْتَ أَنْبَأْتُكَ بِرَأْسِ الأَمْرِ، وَعَمُودِهِ، وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ، رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلاَمُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاَةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِيْ سَبِيْلِ اللَّهِ**»[1].

ومعنى ذلك أن الجهاد في سبيل الله في أعلى المقامات وأرفعها، وأنه لا شيء من معالم الدين أشهر منه ولا أظهر، ولا شيء من فرائض الإسلام أعلى منه ولا أرفع، فهو كذروة سنام البعير التي لا شيء في البعير أعلى منها.

وفي الحديث عن أبي ذر الغفاري قال: سألت رسول الله: أي العمل أفضل؟ قال: «**إِيمَانٌ بِاللَّهِ وَجِهَادٌ فِي سَبِيلِهِ**»[2].

وعن أبي هريرة قال: قيل: يا رسول الله، ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: «**إِنَّكُمْ لاَ تَسْتَطِيعُونَهُ**» قالوا: بلى. فأعادوا عليه مرّتين أو ثلاثاً، كل ذلك يقول: «**إِنَّكُمْ لاَ تَسْتَطِيعُونَهُ**»، ثم قال: «**مَثَلُ الْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ الصَّائِمِ الْقَائِمِ الْقَانِتِ بِآيَاتِ اللَّهِ، لاَ يَفْتُرُ مِنْ صَلاَةٍ وَلاَ صِيَامٍ حَتَّى يَرْجِعَ الْمُجَاهِدُ إِلَى أَهْلِهِ**»[3].

وفي رواية عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله دلّني على عمل يعدل الجهاد، قال: «**لاَ أَجِدُهُ**»، ثم قال: «**هَلْ تَسْتَطِيعُ إِذَا خَرَجَ الْمُجَاهِدُ أَنْ تَدْخُلَ مَسْجِدَكَ فَتَقُومَ لاَ تَفْتُرَ، وَتَصُومَ وَلاَ تُفْطِرَ؟!**»[4].

---

(١) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه والحاكم.

(٢) رواه البيهقي والنسائي وابن حبان.

(٣) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن حبان.

(٤) رواه البخاري والترمذي والنسائي وابن حبان.

(٤) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبادة من العبادات افترضها الله على عباده، وأوجبها على الخاصّة والعامة من أنبيائه ورسله وأوليائه، وهو ولا شك من الأمور الضروريّة الواجبة التي تهم الأمّة كلّها، لأن خيريّة هذه الأمة وفلاحها مرتبط بقيامها بهذه الفريضة، وسعادتها ونجاتها متعلّقة بأدائها لهذه المهمّة، قال تعالى: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[آل عمران:١٠٤].

فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أصل عظيم من أصول الإسلام الواجبة، وركن لازم من أركانه الأساسية التي لا يقوم بناء الإسلام إلاّ عليها، ذلك لأن الدين إنما يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولولاه ما قام إسلام، ولا ظهر دين.

وصلاح الفرد المسلم واستقامته -والمجتمع بأسره- متوقّف على القيام بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولذلك وصف الله تعالى به عباده المؤمنين وأولياءه المتقين فقال: ﴿**وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَه**﴾[التوبة:٧١]، وقال تعالى: ﴿**الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنْ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ**﴾[الحج:٤١].

ومما يدل على عظم شأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تقديمه على الإيمان بالله في مثل قوله تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ**

بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[آل عمران:١١٠]، وما ذلك إلاّ لعِظَم شأن هذا الواجب، وما يترتّب عليه من المصالح العظيمة التي لا تتحقّق إلاّ به.

إذ ما من شك أن المحافظة على حرمة الإسلام وصون المجتمع المسلم من أن تنتشر فيه المنكرات، ويغرق في بحار الفتن، ومزالق الشرور، ودركات الهبوط؛ أصل عظيم من أصول الشريعة، وركن مشيد من أركانها المنيعة، ولا يتأتّى ذلك إلاّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، تلك المهمّة العظمى والأمانة الكبرى التي بها صلاح أمر الأمّة، واستتباب أمنها، وقوّة تماسكها.

وما فُقدت هذه الشعيرة العظيمة في قوم إلا زاغت عقائدهم، وفسدت أوضاعهم، وتغيّرت طباعهم، حيث يألف الناس المعاصي، ويستشري الشر، ويعمّ الضلال، وتتكاثر الفتن، وفشت في الأمة بوادر الاختلال، وحلّ بها الدمار والنكال.

ففي الحديث عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: «**كَيْفَ بِكُمْ إِذَا فَسَقَ فِتْيَانُكُمْ وَطَغَى نِسَاؤُكُمْ؟**» قالوا: وإن ذلك لكائن يا رسول الله؟! قال: «**نَعَمْ وَأَشَدُّ مِنهُ سَيَكُونُ**» قالوا: وما أشد منه يا رسول الله؟! قال: «**كَيْفَ بِكُمْ إِذَا لَمْ تَأْمُرُوا بِمَعْرُوفٍ وَلَمْ تَنْهَوْا عَنْ مُنْكَرٍ؟**» قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟! قال: «**نَعَمْ وَأَشَدُّ مِنهُ سَيَكُونُ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا رَأَيْتُمْ الْمَعْرُوفَ مُنْكَرًا، وَالْمُنْكَرَ مَعْرُوفًا؟**»، قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟! قال: «**نَعَمْ وَأَشَدُّ مِنهُ سَيَكُونُ، كَيْفَ بِكُمْ إِذَا أَمَرْتُمْ بِالْمُنْكَرِ وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمَعْرُوفِ؟**» قالوا: أو كائن ذلك يا رسول الله؟! قال: «**نَعَمْ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ وَأَشَدُّ مِنهُ سَيَكُونُ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: فَبِي حَلَفْتُ لَأُتِيحَنَّ لَهُمْ فِتْنَةً تَتْرُكُ الْحَلِيمَ فِيهَا حَيْرَانَ**»(١).

---

(١) رواه ابن أبي الدنيا.

وإنّ أخطر مايصيب المجتمع المسلم المداهنة في الدين وعدم التناهي بين المسلمين، حيث يألف الناس المنكر، وتحسن في عيونهم المعصية، ويسهل عليهم فعل الشر دون وازع من دين ولا ضمير، وحين ذلك يستحقون اللعن والطرد من رحمة الله، وفي ذلك يقول الرسول الأعظم ﷺ: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا اتَّقِّ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ. ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ، فَلَمَّا فَعَلُوا ذَلِكَ ضَرَبَ اللَّهُ قُلُوبَ بَعْضِهِمْ بِبَعْضٍ**»، ثم قرأ: ﴿**لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ**﴾ [المائدة:٧٨-٧٩]، ثم قال: «**كَلاَّ، وَاللَّهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالْمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطِرُنَّهُ عَلَى الْحَقِّ أطْراً، وَلَتَقْصُرُنَّه عَلَى الْحَقِّ قَصْراً، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَنَنكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ**»[1].

لذلك كان جديراً بالمسلمين أن يقوموا بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خير قيام، وأن يتعاونوا في سبيل إزالة المنكرات وتطهير المجتمع من الفساد والشرور، امتثالا لقول الله عز وجل: ﴿**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [آل عمران:١٠٤]، وقوله ﷺ: «**مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»[2]، وعنه ﷺ أنه قال: «**لَا**

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والبيهقي عن عبدالله بن مسعود.

(٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي سعيد.

يَحِلُّ لِعَيْنٍ تَرَى اللَّـهَ يُعْصَى فَتَطْرُفَ حَتَّى تُغَيِّرَ أَوْ تَنْتَقِلَ»[1].

وفي ذلك مايكفي للتأكيد على أنه ليس هناك أحد كائناً من كان بمنآى عن المسئوليّة في القيام بهذه الفريضة، إذ من الواجب على كل مسلم مكلّف عاقل أن يأمر بالمعروف وأن ينهى عن المنكر في حدود سلطته وعلى قدر مسئوليّته.

فمن كانت له ولاية وسلطة كالإمام في ولايته، والأب في أسرته، والشيخ في قبيلته، والمدير في مؤسسته، ونحوذلك من أهل الولايات وأصحاب السلطات؛ فالواجب عليه أن يغيّر المنكر بيده تغييراً مباشراً بأي إسلوب من الأساليب الممكنة، فيبدأ بالوعظ، ثم التقريع، ثم التهديد، ثم العقاب بالأخف، ثم بالأشد.. وهكذا.

أما من ليس له ولاية، ولا يقدر على تغيير المنكر بيده، فالواجب عليه أن يعمل على تغيير المنكر بما يقدر عليه حسب استطاعته باللسان أو القلم، بالوعظ، والإرشاد، والخطابة، والإفتاء، والتأليف، والكتابة في الصحف والمجلات، وإصدار الملصقات والمنشورات، واستخدام وسائل الإعلام المختلفة المرئيّة والمسموعة، واستعمال ما أمكن استعماله مما يحقّق الغرض ويقوم بالواجب.

وأمّا من عجز عن فعل شيء مما سبق فالواجب عليه حينئذ أن لا يكون مشاركاً في المنكر، ولا راضياً به، وأن يظهر من فعله وقوله ما يدل على إنكاره للمنكر، وعدم رضاه به، وكراهته له، وسخطه من فاعله، وذلك بترك مجالس المنكر، والابتعاد عن مخالطة العاصين، ومؤانسة الظالمين، ومناصرة المبطلين، وبذلك يكون المسلم قد شارك في تغيير المنكر وإزالته.

---

(١) رواه الإمام الهادي في الأحكام.

أما الموقف السلبي الذي يصحبه مجالسة أهل المنكر، ومخالطة أهل العصيان، ومؤانسة أهل الظلم والطغيان ومداهنتهم، فإنه بذلك يكون شريكاً لهم في فعلهم، ولو لم يكن منه إلاّ المداهنة لهم، وإظهار الرضا بفعلهم، وهو ما أشار إليه النبي ﷺ في الحديث الذي سبق ذكره بقوله: «**إِنَّ أَوَّلَ مَا دَخَلَ النَّقْصُ عَلَى بَنِى إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ كَانَ الرَّجُلُ يَلْقَى الرَّجُلَ فَيَقُولُ: يَا هَذَا اتَّقِّ اللَّهَ وَدَعْ مَا تَصْنَعُ فَإِنَّهُ لاَ يَحِلُّ لَكَ. ثُمَّ يَلْقَاهُ مِنَ الْغَدِ فَلاَ يَمْنَعُهُ ذَلِكَ أَنْ يَكُونَ أَكِيلَهُ وَشَرِيبَهُ وَقَعِيدَهُ..**» الحديث، وصرّح به الحق تبارك وتعالى في قوله: ﴿**وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكَفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا**﴾[النساء:١٤٠].

ومن الأحاديث الواردة في التحذير من الإعانة على فعل المعصية، والمشاركة فيها، والرضا بفعلها؛ قوله ﷺ: «**إِذَا عُمِلَتِ الخَطِيئَةُ فِى الأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَأَنْكَرَهَا كَمَنْ غَابَ عَنْهَا، وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيَهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا**»[١].

وعنه ﷺ أنه قال: «**مَنْ أَعَانَ عَلَى قَتْلِ مُؤْمِنٍ وَلَوْ بِشَطْرِ كَلِمَةٍ لَقِىَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ آيِسٌ مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ**»[٢].

وقال ﷺ:«**لَعَنَ اللَّهُ الخَمْرَ، وَشَارِبَهَا، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَمُبْتَاعَهَا، وَعَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ**»[٣].

---

(١) رواه أبو داود والطبراني عن العرس بن عميرة الكِندي.

(٢) رواه أبو داود وابن ماجة والبيهقي عن أبى هريرة . والطبراني عن ابن عباس.

(٣) رواه أبو داود والحاكم والبيهقي عن ابن عمر. والترمذي وابن ماجهعن أنس.

وعن أبي مسعود قال: لا تحل صفقتان في صفقة، وإن رسول الله ﷺ لعن آكل الربا، وموكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: «**هم سواء**»[1].

وعلى كلٍّ فإن التقصير في ذلك لا يعفي الإنسان من المسئوليّة أمام الله في تركه للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مهما كانت الأعذار والمبرّرات، كأن يظن عدم التأثير، أو نحو ذلك.

لأنّ المسلم مطالب بالتبليغ، وعليه أن يؤدّي الواجب الذي عليه، وأن يبرّئ ذمّته أمام الله، وليس مسئولاً عن النتيجة كيفما كانت، قال تعالى: ﴿**فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلاَّ الْبَلاغُ**﴾ [الزخرف:٤٨]، وقال تعالى في سياق قصة أصحاب السبت: ﴿**وَإِذَ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُواْ مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ * فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ**﴾[الأعراف:١٦٤-١٦٥].

فقد أوضحت الآيات أن النجاة من العذاب لم تكن إلاّ للقائمين بواجب النهي عن المنكر، وفي ذلك إشارة إلى أن العذاب شمل الساكتين مع العصاة أنفسهم.

فمن سكت عن النهي عن المنكر بحجّة ظن عدم التأثير فهو ولا شك مقصّر في دينه، مفرّط في حق ربه، ولكن عسى الله ألاّ يؤاخذه في الآخرة لما قد يعلم الله في قلبه من إنكار المنكر وعدم الرضا به.

وأمّا خوف الأذى أو الحبس أو الإهانة أو نحو ذلك؛ فإنّه وإن كان ذلك

(١) رواه الطبراني، والبيهقي، والبزار.

عذراً شرعيًّا لكنّ الأخذ بالعزيمة في مثل هذه الحالات أولى من الأخذ بالرخصة، إذ من المفترض ألاّ تكون هذه الأعذار مانعة للإنسان عن فعل الواجب والقيام به، وذلك لأن الإنسان مأجور ومجازى من الله تعالى على قيامه بواجب النصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بأعظم الأجور والحسنات، فإذا أضيف إلى ذلك بلاء من حبس أو نحوه كان الأجر أعظم، والثواب أجزل، ويدل على ذلك قول الرسول صلّى اللَّهُ علَيهِ وعلى آلِهِ: «**سَيِّدُ الشُّهَدَاءِ حَمْزَةُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَرَجُلٌ قَامَ إِلَى إِمَامٍ جَائِرٍ فَأَمَرَهُ وَنَهَاهُ فَقَتَلَهُ**»[1].

وأما خوف انقطاع الرزق بالفصل من الوظيفة ونحوه؛ فهو ناتج عن ضعف الإيمان بالله تعالى وأنه الرازق المعطي، وهو القائل جل وعلا: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا**﴾[التحريم:٤]، والقائل: ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا * وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ**﴾[التحريم:٢-٣].

وقد يكون المانع من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الحياء والخجل، وهذا أيضاً أمر لا يليق بالمؤمن، فقد ربّى الإسلام أبناءه على الشجاعة في قول الحق، وعلى الاعتزاز بالله، وأن يقولوا كلمة الحق لا يخافون في الله لومة لائم.

فعن عبادة بن الصامت قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على أن نقول -أو نقوم- بالحق حيث كنا وأن لا نخاف في الله لومة لائم»[2]، وعن أبي ذر قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أصل رحمي وإن أدبَرَت، وأن أقول الحق وإن كان مُرًّا، وأن لا

---

(١) رواه الحاكم والخطيب عن جابر.

(٢) رواه الحاكم.

تأخذني في الله لومة لائم»[1].

ولقد دعا الإسلام إلى التضحية والجهاد في سبيل الله لرفع الظلم، وإزالة المنكر، ففي الحديث عن النبي ﷺ قال: «**مَا مِنْ نَبِيٍّ بَعَثَهُ اللَّهُ فِي أُمَّتِهِ إِلَّا كَانَ لَهُ مِنْ أُمَّتِهِ حَوَارِيُّونَ وَأَصْحَابٌ يَأْخُذُونَ بِسُنَّتِهِ، وَيَقْتَدُونَ بِأَمْرِهِ، ثُمَّ إِنَّهَا تَخْلُفُ خُلُوفٌ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ، وَيَفْعَلُونَ مَا لَا يُؤْمَرُونَ، فَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِيَدِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِلِسَانِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَمَنْ جَاهَدَهُمْ بِقَلْبِهِ فَهُوَ مُؤْمِنٌ، وَلَيْسَ وَرَاءَ ذَلِكَ مِنَ الْإِيمَانِ حَبَّةُ خَرْدَلٍ**»[2].

وقال ﷺ: «**لَتَأْمُرُنَّ بالمَعْرُوفِ، وَلَتَنْهَوُنَّ عَنِ المُنْكَرِ، وَلَتَأْخُذُنَّ عَلَى يَدِ الظَّالِمِ، وَلَتَأْطِرُنَّهُ عَلَى الحَقِّ أطْراً، وَلَتَقْصُرُنَّه عَلَى الحَقِّ قَصْراً، أَوْ لَيَضْرِبَنَّ اللَّهُ بقُلُوبِ بَعْضِكُمْ عَلَى بَعْضٍ، ثُمَّ لَيَلْعَننكُمْ كَمَا لَعَنَهُمْ**»[3].

وقال صلى الله عليه وعلى آله: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنْ المُنْكَرِ، أَوْ لَيُوشِكَنَّ اللَّهُ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عِقَابًا مِنْهُ ثُمَّ تَدْعُونَهُ فَلَا يُسْتَجَابُ لَكُمْ**»[4]، وفي رواية: «**لَتَأْمُرُنَّ بِالمَعْرُوفِ وَلَتَنْهُنَّ عَنِ المُنْكَرِ أَوْ لَيُسَلِّطَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ شِرَارَكُمْ ثُمَّ يَدْعُو خِيَارُكُمْ فَلاَ يُسْتَجَابُ لَهُمْ**»[5].

وروي عن الإمام الحسين بن علي عليه السلام أنّه قال -في خطبة له حين أراد الخروج إلى العراق: إن رسول الله ﷺ قال: «**من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً**

---

(١) رواه الطبراني وغيره.

(٢) رواه أحمد، ومسلم، والبزار، والبيهقي، وابن حبان، عن عبدالله بن مسعود.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) رواه أحمد، والترمذي، والبيهقي، عن حذيفة بن اليمان.

(٥) رواه الإمام أبو طالب في أماليه عن علي عليه السلام.

لحُرَم الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنّه رسول الله، يعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغيّر عليه بفعل ولا قول، كان حقًّا على الله أن يدخله مُدخله».

الآداب الشرعيّة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يجب على من يقوم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يراعي الآداب الشرعية في ذلك، والتي منها مايلي:

١- **أن يكون على علم ومعرفة بما يأمر به أوينهى عنه،** بحيث يعلم أنّ ما يأمر به من المعروف، وأنّ ما ينهى عنه من المنكر، فإن التبس عليه الأمر، أو كان مما هو مختلف فيه بين علماء الأمّة؛ وجب عليه أن يتوقّف، حتى لا يقع في المحظور من حيث لا يدري.

٢- **أن يستعمل اللّين في ذلك** حتى يؤدّي الأمر أو النهي ثمرته المرجوّة، وفي ذلك يقول الله تعالى في حكايته عن موسى وهارون عليهما السلام: ﴿**اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى * فَقُولا لَهُ قَوْلاً لَّيِّنًا لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى**﴾[طه:٤٣-٤٤].

٣- **أن يستعمل الحكمة** حتى لا يؤدي النهي عن المنكر إلى ما هو أنكر من قتل نفس أو نحوه، ومن الحكمة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يختار الوقت المناسب والأسلوب المناسب، على نحو ما ذكرنا سابقاً.

٤- **أن يبدأ بالأهم قبل المهم،** فيقدّم النهي عن المنكر على الأمر بالمعروف، ويبدأ بالأمر بالفريضة الواجبة، والنهي عن المحرّم البيّن الواضح، قبل غيرهما من المندوبات أو المكروهات.

٥- **أن يبدأ بنفسه فيما يدعو إليه ويأمر به**، وأن يكون قدوة حسنة في تطبيق ما يأمر به وينهى عنه على نفسه وأهله، قال تعالى في حكايته عن شعيب عليه السلام: ﴿**وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ**﴾ [هود:٨٨]، وقال تعالى في ذمه لبني إسرائيل لما كانوا عليه من مخالفة ما يأمرون به: ﴿**أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾ [البقرة:٤٤].

ومن كلام أمير المؤمنين عليه السلام في ذلك قوله: «**مَنْ نَصَبَ نَفْسَهُ لِلنَّاسِ إِمَاماً فَعَلَيْهِ أَنْ يَبْدَأَ بِتَعْلِيمِ نَفْسِهِ قَبْلَ تَعْلِيمِ غَيْرِهِ، وَلْيَكُنْ تَأْدِيبُهُ بِسِيرَتِهِ قَبْلَ تَأْدِيبِهِ بِلِسَانِهِ، وَمُعَلِّمُ نَفْسِهِ وَمُؤَدِّبُهَا أَحَقُّ بِالاْجْلاَلِ مِنْ مُعَلِّمِ النَّاسِ وَمُؤَدِّبِهِمْ**»[1].

ولأبي الأسود الدؤلي أبيات في هذا المعنى، قال فيها:

يَا أَيُّهَا الرَّجُلُ الْمُعَلِّمُ غَيْرَهُ ... هَلا لِنَفْسِك كَانَ ذَا التَّعْلِيمُ

فَابْدَأْ بِنَفْسِك فَانْهَهَا عَنْ غَيِّهَا ... فَإِذَا انْتَهَيْت عَنْهُ فَأَنْت حَكِيمُ

فَهُنَاكَ يُقْبَلُ مَا تَقُولُ وَيُقْتَدَى ... بِالْقَوْلِ مِنْك وَيَنْفَعُ التَّعْلِيمُ

لا تَنْهَ عَنْ خُلُقٍ وَتَأْتِيَ مِثْلَهُ ... عَارٌ عَلَيْك إذَا فَعَلْت عَظِيمُ

وممّا ورد في الحديث في التحذير من مخالفة الإنسان لما يأمر به وينهى عنه: قوله صلى الله عليه وآله: «**يُؤْتَى بالرَّجُلِ يَوْمَ القيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُ بَطْنِهِ فَيدُورُ بِهَا كَمَا يَدُورُ الحِمَارُ فِي الرَّحَى، فَيَجْتَمِعُ إِلَيْه أَهْلُ النَّارِ، فَيَقُولُونَ: يَا فُلانُ؛ مَا لَكَ؟! أَلَمْ تَكُنْ تَأْمُرُ بالمعْرُوفِ وَتنهَى عَنِ المُنْكَرِ؟ فَيقُولُ: بَلَى؛ كُنْتُ آمُرُ بِالمَعْرُوفِ**

---

(١) نهج البلاغة، المختار من حِكَم أمير المؤمنين عليه السلام، ح٤.

وَلا آتِيهِ، وأَنْهَى عَنِ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ»[١]

وعنه ﷺ أنه قال: «مَثَلُ الَّذِي يُعَلِّمُ النَّاسَ الخَيْرَ وَيَنْسَى نَفْسَهُ كَمَثَلِ السِّرَاجِ يُضِيءُ لِلنَّاسِ وَيَحْرُقُ نَفْسَهُ»[٢].

ولله در القائل[٣]:

يَا وَاعِظَ النَّاسِ قَدْ أَصْبَحْت مُتَّهَمًا ... إِذْ عِبْت مِنْهُمْ أُمُورًا أَنْتَ آتِيهَا

كَالْمُلْبِسِ الثَّوْبَ مِنْ عُرْيٍ وَعَوْرَتُهُ ... لِلنَّاسِ بَادِيَةٌ مَا إِنْ يُوَارِيهَا

تمّ بحمد الله تعالى وحسن توفيقه..

والحمد لله رب العالمين..وصلى الله وسلّم على نبيّنا محمد وعلى آله الطاهرين.

---

(١) رواه أحمد والبخاري ومسلم عن أسامة بن زيد.

(٢) رواه الطبراني في الكبير والأصبهاني في الأمثال عن جندب بن عبد الله.

(٣) أبو العتاهية إسماعيل بن القاسم بن سويد العيني، المتوفي سنة٢١١ هـ.

المراجع

١- **القرآن الكريم.**

٢- **مجموع كتب ورسائل الإمام الهادي يحيى بن الحسين (ع)**، تحقيق الأستاذ/ عبد الله الشاذلي، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية.

٣- **القضاء والقدر**، محمد بن محمد اسماعيل المنصور، مكتبة بدر-صنعاء.

٤- **قصد السبيل إلى معرفة الدليل**، محمد بن عبد الله عوض المؤيدي، مكتبة أهل البيت-صعدة.

٥- **صحيح السنّة بين أهل السنّة والسنّة**، من اصدارات مدرسة لوامع الأنوار بفروة، مكتبة التراث الإسلامي-صعدة.

٦- **المنتزع المختار فيما يتعلّق بالاعتقادات من الأحاديث والآثار**، علي بن محمد العجري، تحقيق/ عبد الله حمود العزي، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية.

٧- **الفتاوى**، علي بن محمد العجري، دار الحكمة اليمانية-صنعاء.

٨- **مقدّمة تفسير المنار**، محمد رشيد رضا، المكتبة التوفيقية-القاهرة.

٩- **من هم الزيدية؟**، يحيى عبد الكريم الفضيل، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافيّة.

١٠- **حقائق المعرفة**، الإمام المتوكل على الله أحمد بن سليمان، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافيّة.

١١- **رسالة إبليس إلى أخوانه المناحيس**، الحاكم الجشمي.

١٢- **أصول دين الإسلام**، عبد الله محمد إسماعيل.

١٣- **الزيدية قراءة في المشروع وبحث في المكونات**، عبد الله بن محمد بن إسماعيل، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية-عمّان.

١٤- **الزيدية نظرية وتطبيق**، تأليف: علي بن عبد الكريم الفضيل، الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

١٥- **المصابيح الساطعة الأنوار في تفسير أئمة أهل البيت الأطهار وشيعتهم الأبرار**، أحمد بن إبراهيم الشرفي، تحقيق/ محمد قاسم الهاشمي وعبد السلام عباس الوجيه، مكتبة التراث الإسلامي -صعدة.

١٦- **ينابيع النصيحة في العقائد الصحيحة**، الأمير الحسين بن بدر الدين، تحقيق: د/ المرتضى بن زيد المحطوري، مكتبة بدر-صنعاء.

١٧- **الأحكام في الحلال والحرام**، الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين(ع)، مكتبة التراث الإسلامي-اليمن- صعدة.

١٨- **المجموع الحديثي والفقهي**، الإمام زيد بن علي (ع)، تحقيق الأستاذ/ عبدالله بن حمود العزي، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية.

١٩- **تيسير المطالب في أمالي أبي طالب**، الإمام أبو طالب يحيى بن الحسين الهاروني، تحقيق/ عبد الله حمود العزي، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية.

٢٠- **نهج البلاغة**، للإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، بشرح الشيخ محمد عبده، مؤسسة الأعلمي- بيروت.

٢١- **الزيدية،** د/ أحمد محمود صبحي، الزهراء للإعلام العربي.

٢٢- **مختار الصحاح،** محمد بن أبي بكر الرازي، مكتبة لبنان-بيروت.

٢٣- **خلاصة الفوائد،** القاضي جعفر بن أحمد بن عبد السلام.

٢٤- **الصحابة عند الزيدية،** محمد يحيى سالم عزان، دار الحكمة اليمانية-صنعاء.

٢٥- **العقد الثمين في معرفة رب العالمين.**

٢٦- **العقيدة الصحيحة،** الإمام المتوكل على الله إسماعيل.

٢٧- **الرسالة الوازعة للمعتدين عن سب صحابة سيد المرسلين،** طبع بمصر- ضمن مجموع الرسائل اليمانية سنة ١٣٤٨هـ.

٢٨- **تكملة الأحكام والتصفية من بواطن الآثام،** الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى، تحقيق/ عبد الله حمود العزي، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية.

٢٩- **مجموع كتب ورسائل الإمام القاسم الرسي (ع)،** تحقيق/ عبد الكريم أحمد جدبان، دار الحكمة اليمانية-صنعاء.

٣٠- **الإيضاح شرح المصباح،** أحمد بن يحيى حابس.

٣١- **الأساس،** الإمام القاسم بن محمد، تحقيق د/ البير نصري نادر.

٣٢- **سبيل الرشاد إلى معرفة رب العباد،** محمد بن الحسن بن القاسم بن محمد، تحقيق/ محمد بن يحيى عزان.

٣٣- **عدة الأكياس في شرح معاني الأساس،** أحمد بن محمد الشرفي، دار الحكمة اليمانية-صنعاء.

٣٤- **الحق الدامغ**، الشيخ أحمد الخليلي.

٣٥- **نظرة وبيان في متشابه القرآن**، عبد المجيد بن عبد الرحمن الحوثي، دار التراث الإسلامي-صعدة.

٣٦- **رؤية الله بين العقل والنقل**، عبد الله حمود درهم العزي، دار الحكمة اليمانية-صنعاء.

٣٧- **صحيح شرح العقيدة الطحاوية**، حسن السقاف، دار الإمام النووي.

٣٨- **العلو للعلي الغفّار**، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قايماز، تحقيق/ حسن السقاف، دار الإمام النووي.

٣٩- **دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه**، أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، تحقيق/ حسن السقاف، دار الإمام النووي.

٤٠- **تبسيط العقائد الإسلامية**، حسن أيوب، دار الندوة الجديدة-بيروت.

٤١- **قراءة في كتب العقائد المذهب الحنبلي نموذجاً**، حسن بن فرحان المالكي، مركز الدراسات التاريخية.

٤٢- **رفع الإشكال عما يصل إلى الميت من ثواب الأعمال**، عبد الرحمن محمد عبد الملك المروني، مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية.

٤٣- **الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، جار الله محمود بن عمر الزمخشري، تحقيق/ عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي -بيروت.

٤٤- **لوامع الأنوار في جوامع العلوم والأثار**، الإمام مجد الدين بـن محمـد بـن منصور الحسني المؤيدي، تحقيق/ محمد علي عيسى الحذيفي، مركز أهـل البيت-صنعاء.

٤٥- **مقدمة كتاب البحر الزخار**، الإمام المهدي أحمد بن يحيى المرتضى، مصوّر بالأوفست عن الطبعة الأولى، دار الحكمة اليمانية -صنعاء.

٤٦- **محمد الإنسان الكامل**، محمد علوي المالكي، المكتبة العصرية-بيروت.

٤٧- **المحاور الخمسة للقرآن الكريم**، محمد الغزالي، دار الصحوة.

٤٨- **عقيدة المسلم**، محمد الغزالي، دار القلم.

٤٩- **ركائز الإيمان بين العقل والقلب**، محمد الغزالي، دار القلم.

٥٠- **الإيمان والحياة**، د/ يوسف القرضاوي، دار المعرفة.

٥١- **تحقيق الوصال بين القلب والقرآن**، مجدي الهلالي، مؤسسة اقرأ-القاهرة.

٥٢- **العودة إلى القرآن لماذا وكيف؟**، مجدي الهلالي، دار الأندلس-القاهرة.

٥٣- **السيرة النبوية لابن هشام**، أبي محمد عبد الملك بـن هشـام الحمـيري، دار إحياء التراث العربي -بيروت-.

٥٤- **الرحيق المختوم**، صفي الرحمن المباركفوري، دار القلم -بيروت.

٥٥- **في ظلال القرآن**، سيد قطب، دار الشروق.

٥٦- **رسائل العدل والتوحيد**، د/ محمد عمارة.

٥٧- **نظرية عدالة الصحابة والمرجعية السياسية في الإسلام**، المحامي أحمد حسين يعقوب.

٥٨- **الأنموذج الخطير في ما يرد من الإشكال على آية التطهير**، عبد الله بن الحسن، تحقيق/ أحمد محمد حجر، مكتبة التراث الإسلامي –صعدة.

٥٩- **الإيضاح شرح المصباح**، أحمد بن يحيى حابس، مراجعة وتصحيح: حسن بن يحيى اليوسفي، دار الحكمة اليمانية –صنعاء.

٦٠- **الإسلام**، سعيد حوّى، دار السلام–القاهرة.

٦١- **روح الدين الإسلامي**، عفيف عبد الفتاح طبارة،دار العلم–بيروت.

٦٢- **إيثار الحق على الخلق**، محمد بن ابراهيم الوزير، دار الكتب العلمية–بيروت.

٦٣- **أحكام التعامل مع غير المسلمين**، خالد بن محمد الماجد.

٦٤- **الولاء والبراء في الإسلام**، محمد بن سعيد القحطاني.

مُحتويات الكتاب